معراج البيان

علام سلامة



معراج البيان

اختيـار وتصنيف

علام سلامه

المدرّس بدار العلوم

الجزء الأول

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الجزء فى المدارس الثانوية ومدارس المعلمين الأوّلية
وفى السنة الأولى بمدرسة دار العلوم

فهـــرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

باب الاستعطاف والاعتذار ٩٩

باب العتاب واللوم والتأنيب والتهديد ١١٧

صفحة

باب الشكر والتهانئ — فصل فى الشكر ١٤١

فصـــل فى التهـانئ ١٤٥

باب القصص والمحـاورات ١٤٩



الحمــد لله خلق الإنسان، علمه البيــان . والصلاة والسلام على أفصح عدنان وقحطان ، المؤيّد ببلاغة القرآن ، وعلى آله اللُّسْن المقاول، الأَبِيْنَاء الفياصل ، وعلى صحابته هُداة الأنام، ومصابيح الظلام، وأمراء الكلام .

وبعدُ : فإنّ صناعة البيان من أشرف الصناعات مقاما، وأعزّها مراما ، وأكثرها شِعابا وأوعرها لِهابا (1) . من ثَقِفَها فقد فاز بحُسْنَى الرِّغاب ، وأُوتِى الحكمة وفصل الخطاب . وما امتاز الإنسان، من سائر صنوف الحيوان إلّا باللسان القائل، والجَنَان العاقل . ولأمرٍمّا قالت الأوائل : المرء بأصغريه قلبه ولسانه . وقال حكيم الشعراء :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يَبْقَ إلا صورة اللحم والدم

وقال سيدنا رسول الله فى غير مَخِيلَة ولا فخر: "أنا أفصح العرب بَيْدَ أنّى من قُريش ونشأتُ فى بنى سعد بن بكر" .

وما صناعة البيان إلّا مَلَكة من الملكات، قِوامها ما فى الغريزة، من استعداد، وتمامها إلقاح النَّحِيزة (2) ، بالدُّربة والاعتياد، فلن يكون المرء ذابيان ناصع ، ومنطق بارع، مالم تتهيأ له عدّتان : أُولاهما قَريحة ثاقبة، وثانيتُهما مَرانة دائبة، وهاتان العُدّتان مُتضافرتان فى دَرْك الغَاية ، اذا وَنَت إحداهما أعانتها الأخرى . فكأىّ من طبع شَحاح ضعيف، نَهَض به فضل دَرَب وتثقيف، كالأرض المهزولة الزَّهاد (3)، يُذْهب من ضعفها

---

(1) اللهب : وجه من الجبل كالحائط لا يستطاع ارتقاؤه . (2) النحيزة : الطبيعة .

(3) الزهاد : الأرض الضعيفة لا تقبل ماء كثيرا .

مضاعفة السّماد . ورُبّ قريحة مِسْماح فيّاضة، ثَقّفها قليل من الرياضة، كالأرض الأرِيضه القِرواح[1]، يُرْبِيها يسير من جَهْد الفَلّاح . وعلى قدر تفاوت البشر فى السلائق والتمرين، تتفاضل منازلهم من البيان والتبيين . ولئن كانت الغرائز من مواهب المنعم المنّان، إن إرهافها وصقلها لمن كسب الإنسان .

وبعـد : فقد أطبق أولو الخبرة السديدة والتجارب الرشيدة، من السالفين والخالفين، على أن لا سبيل الى المرانة الناجعة فى إصـلاح المنطق والتحلّى بحليـة البيان، إلا بمُمارسة المختار المصفّى من أقوال البلغاء، ومُدَارَسة المستجاد المنخول مما أُثِرعن مصاقع الخطباء وفحول الشعراء وكبار الكُتّاب وفَوَقَـة الحكماء ، والاطلاع على مادار بين المَداره وأولى اللّسَن فى الأندية والأسمار : من محاورات ومناظرات، ومُسَاجلات ومُقَاولات ، مع التّفهُّم لمعانيها، والتدبّر لمنازعها ومناحيهـا ، والتّفَطُّن لأساليبها ، والتبصّر فى تراكيبهـا ، والتامّل فى أخيلتها الساحرة ، وتشابيهها النادرة ، واستعاراتها الأنيقـة، وكناياتها الدقيقة . ولقد دلّنا الاستقراء الصالح على أنّه كلمـا كان حظ المرء من الاطلاع والحفظ أكثر، كانت مرتبته فى البلاغة أسنى وأفخر، ونصيبه من حسن البيان أجزل وأوفر . ولقد وجدنا أن رءوس أعلام البيان وأقطاب فحول البـلاغة كانوا رُواة ناقلين، قبـل أن يكونوا فُصُحًا قائلين؛ فهـذا ابن المقفع شيخ الكتّاب وإمام المترسلين يقول : شربت من الخطب رِيّا، ولم أضبط لها رِيّا، فغاضت ثم فاضت، فلا هى نِظاما، وليس غيرها كلاما . وسمع الرشيد من سهل بن هارون كلاما أعجبه، فقال له : ياسهل! مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يُعْجِزه القول؟ وكان زهير بن أبى سلمى راوية لطفيل الغنوى ، والحطيئة راوية لزهير، والفرزدق راوية للحطيئة . ويروى أن أبا تمام

(١) القراح والقرواح : الأرض الطيبة .

كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب عدا المقطعات والقصائد . وكان أبو عثمان الجاحظ والبديع الهمذانى والخوارَزْمى والمتنبى والمعرّى من أعاجيب الدهر فى كثرة المحفوظ وسعة الاطلاع .

وبعد : فقد حَدَانى كل أولئك أن اصطفيت لشُدَاة الطلّاب، وعُشّاق الآداب نُخْبة صافية، من أجود الكلام المأثور، من بين منظوم ومنثور، غَير متقيد بعصر من العصور، ولا مؤثر لقائل مشهور، على قائل غير مذكور، إذا كان رائدى استجادةَ المقال ، لا الإشادةَ بمن قال . وتوخّيت فيما اخترته أن يكون مشتملا على أجل الأغراض التى يدور عليها البيان ، وأهم الفنون التى يُعْوِزها التبيان ، وآثرت أن أدرج كل جنس من المعانى فى باب من أبواب الكتاب ، لأؤلّف بين النظائر والأتراب ، وليكون من ذلك عون للقارئ على الموازنة بين الأقوال ، تختلف تراكيبها ومبانيها ، وتتّحد مقاصدها ومعانيها ، وقسّمت ما وقع عليه اختيارى أجزاء متشاكهة الأبواب والنظام متخالفة فى طبقات الكلام ، متفاوتة فى قربها من الأفهام . ولذلك سميته «معراج البيان» كى تُدْرك الغاية من العنوان . والتزمت أن أفسّر غريب الكلمات ، وأوضّح مكنون المعانى ، وأضبط ما يفتقر الى الضبط ، وعرّفت بكثير ممن جاء ذكرهم فى تضاعيف الكتاب .

فان أك قد قاربت السداد ، وسلكت سبيل الرشاد ، فمن الله وحده الإرشاد والإسعاد . وإن تكن الأخرى فالخير أردت . وما توفيقى إلا بالله ؟

علام سلامه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى حسن البيان وبلاغة القول

رُوى عن عبد الله بن عباس رضوانُ الله عليهما قال : وفَد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبْرِقان[1] بن بدر وعمرو بن الأهتم[2] فقال الزبرقان : يارسول الله أنا سيد تَمِيم والمطاع فيهم والمجاب منهم آخذ لهم بحقهم وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك . (يعني عمرا) فقال عمرو : أجَلْ يارسول الله . إنه مانع لحَوْزَته[3] مطاع فى عشيرته شديد العارضة[4] فيهم . فقال الزبرقان : أمَا إنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حَسَدنى شرفى . فقال عمرو : أمَا لئن قال ما قال فوالله ما علمته الاضَيِّقَ العَطَن[5] زَمِنَ[6] المروءة أحمق الأب لئيم الخال حديث الغنى فرأى الكراهة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال : يارسول الله رضيت فقلت أحسن ماعلمت وغضبت

---

(١) الزبرقان : هو حصين بن بدر التيمى ولاه رسول الله صدقات قومه وأقره أبو بكر وعمر على ذلك . وقد وهم صاحب لسان العرب فنسبه الى فزارة . (٢) عمرو بن الأهتم : سيد من سادات تميم وهو القائل :

ذريني فان البخل يا أم مالك ... لصالح أخلاق الرجال سروق

لعمركَ ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

(٣) الحوزة : الناحية . وفلان مانع لحوزته : أى يحمى حماه . (٤) رجل شديد العارضة : ذوجلد وصرامة . (٥) العطن : مبرك الإبل حول الحوض . ورجل رحب العطن : كثير المال واسع القدرة وضيق العطن عكسه . (٦) الزمن : المصاب بعاهة لا يرجى زوالها . ورواية الميدانى : زمر المروءة . والزمر : القليل المروءة .

فقلت أقبح ماعلمت وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لَسِحرا وان من الشعر لحكمة) .

ورواه أبو القاسم الزجاجى : وان من الشعر لَحُكْمًا . قال : ووجهه عندى ان من الشعر ما يلزم المقولَ فيه كلزوم الحُكْم للمحكوم عليـه اصابة للعنى وقصدا للصواب وفى هذا يقول أبو تمـام :

ولولا سبيل سَنَّها الشـعر مادرى بُغـاةُ[1] العلا من أين تؤتى المكارم
يُرَى حكمةً ما فيــه وهو فكاهة ويُرضَى بمـا يَقْضِى به وهو ظالم

وقد وجدنا فى الشعر أبياتا يُجرَى على رسمها ويُمضَى على حكمها :

فقد كان بنو أنف الناقة اذا ذَكَر أحدٌ عنـد أحد منهم أنف الناقة فضلا عن أن ينسُبَهم اليه اشتد غضبهم عليه فما هو إلا أن قال الحُطَيْئة يمدحهم :

قـوم همُ الأنف والأذناب غيرهم ومن يُسوِّى بأنف النـاقة الذَّنبا ؟!

فصار أحدهم اذا سئل عن نسبه لم يبدأ إلا به .

وكان بنو العَجْلان يفخَرون بهذا الاسم ويتشرفون بهذا الوسم اذ كان عبدالله بن كعب جدهم انما سمى العجلان لِتعجيله القِرَى للضيفان حتى قال النجاشىُّ[2] يهجوهم :

اذا الله عادى أهــل لؤم ورقّــة فعادى بنى العجلان رهْط ابن مقبل[3]
قبيلتــه لا يغدُِرون بذمّــة ولا يظلمون الناس حبــة خَرْدل[4]
ولا يردون المـاء إلا عشــية اذا صَدَر الوُرّاد عن كل مَنْهَــل[5]
وما سمى العجلانَ إلا لقولهـــم خذ القعب واحلُب أيها العبد واعجَل

(١) البغاة : جمع باغ وهو الطالب . (٢) النجاشى : لقب شاعر من شعراء صدر الاسلام وكان هجاء رقيق الدين . (٣) ابن مقبل : شاعر مخضرم واسمه تميم . (٤) هذا البيت اذا قرئ مفردا كان ظاهره من أجود المدح ولكن مراد الشاعر أن هؤلاء القوم لضعفهم وذلتهم لا يستطيعون أن يغدروا ولا أن يظلموا . (٥) المنهل : المشرب .

فصار الرجل منهم اذا سئل عن نسبه قال كعبي ويكنى عن العجلان .

وهؤلاء بنو نُمَيْر بن عامر بن صَعْصَعة أشرف بيوت قيس بن عَيلان بن مُضَر وَجَمْرة (١) من جَمَرات العرب وكان الرجل منهم اذا قيل له ممن أنت؟ قال نُمَيرى يملأ بها فاه إدلالا بنسبه وانتخارا بمَنْصِبه حتى قال جرير (٢) بن الخَطَفَى يهجو الراعى (٣) النميرى :

فغضّ الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فصار الرجل منهم اذا قيل له ممن أنت؟ يقول : عامرى ويكني عن نمير .

وكان النَّضْر بن الحارث شديد العداوة لله ولرسوله فلما أُسر يوم بدر أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه صبرا (٤) . فعرضت للنبى أخته قُتَيْلة بنت الحارث فأنشدته :

ياراكبا ان الأُثَيل مَظِنّـة	من صبح خامسة وأنت موفّق (٥)
أبلـغ به مَيْتًا بان تحيـة	ما إن تزال بها النجائب تَخْفِق (٦)
منى اليـه وعَـبرة مسفوحة	جادت بوا كفها (٧) وأخرى تَخْنق
هل يسمعنّ النضران ناديتُه ؟	ان كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بنى أبيه تَنُوشه (٨)	لله أرحامٌ هنـاك تُشـقق
قسْرا يقـاد الى المنيـة متعبًا	رَسْفَ (٩) المقيـد وهو عانٍ مُوثَق

(١) الجمرة : القبيلة تستغنى بقوتها عن محالفة غيرها و جمرات العرب بنو عبس و بنو نمير و بنو الحارث ابن كعب وكان أبو عبيدة يقول : هى أربع ويزيد بنى ضبة . (٢) جرير : أشعر شعراء الدولة الأموية ولا يقاربه من شعرائها الا الفرزدق والأخطل . (٣) الراعى : شاعر هجاه جرير لأنه اتهمه بمظاهرة الفرزدق عليه وخبر ذلك طويل . (٤) الصبر : الحبس . وصبر الانسان على القتل : نصبه ليقتل . (٥) الأثيل : واد بنواحى المدينة قرب بدر . تقول انك ستدرك الأثيل صبح الليلة الخامسة اذا لم يعقك عائق . (٦) خفق السهم : أسرع وناقة خيفق سريعة جدا . (٧) وكف الدمع : سال . (٨) ناشه اذا تناوله . (٩) الرسف والرسيف : مشى المقيد . والعانى : الأسير .

أمجد هأنت ضِنء كريمة ... فى قومها والفحل فَحْل مُعرق (١)
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المَغيظ المُحنق (٢)
فالنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقهم ان كان عتق يُعتَق
لو كنت قابل فدية لفديته ... بأعزّ ما يُغلِي به من يُنفق (٣)

فذُكِر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها ودمعت عيناه وقال لأبى بكر : لو كنت سمعت شعرها ما قتلته !

وقد بنى الشعر لقوم بيوتا شريفة، وهدم لآخرين أبنية مُنيفة .

وما هو إلا القول يَسْرى فتغتدى ... له غُرر فى أوجه ومواسم (٤)

وسمع أبو عمرو بن العلاء رجلا يقول : انما الشعر كالمِيسَم . فقال : وكيف يكون ذلك كذلك والميسم يذهب بذهاب الجلد ويدرُس مع طول العهد والشعر يبْقى على الأبناء بعد الآباء ما بقيت الأرض والسماء . وفى هذا يقول ابن الرومى :

أرى الشعر يُحيي الناس والمجد بالذى ... تُبَقّيه أرواح له عَطِرات
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد ... وما الناس إلا أعظم نَخِرات

ويقول غيره :

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به ... والشعر أفضل ما يُجْنَى من الكرم
لولا مقال زهير فى قصائده ... ما كان يعرف جود كان من هَرِم (٥)

---

(١) رواية اللسان : ولأنت ضنء نجيبة . وهى أقوم لان ها التنبيه اذا دخلت على الضمير وجب أن يتبع باشارة . والضنء : النسل . ورجل معرق أى أصيل . (٢) الحنق : شدة الاغتياظ وأحنقه غيره فهو محنق . (٣) أغلى بالشيء وغالى به : طلب فيه ثمنا غاليا أو اشتراه بثمن غال . (٤) المواسم كالمياسم : جمع ميسم وهو المكواة . (٥) هو هرم بن سنان المرى ثم الذبيانى أحد أجواد العرب فى الجاهلية وقد مدحه زهير بن أبى سلمى بقصائد يبلى الزمان ولا تبلى .

ومـا يشاكل حديث ابن الأهتم والزبرقان، فى البراعة والاحسان، ويدخـل فى باب البيان، ما ذكره بعض الرواة من أنه لمـا استُخْلِف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قدِم عليه وفود أهل كل بلد فتقدم اليه وفد أهل الحجاز فاشرأبّ(1) منهم غلام للكلام فقال عمر : ياغلام لِيتكلمْ من هو أسن منك . فقال الغلام : ياأمير المؤمنين انمـا المرء بأصغريه قلْبِه ولسانِه . فاذا منح الله عبده لسانا لافظا وقلبا حافظا فقـد أجاد له الاختيار . ولو أن الأمور بالسن لكان ها هنا من هو أحقّ بمجلسك منك . فقال عمر : صدقت تكلم فهـذا السحر الحلال . فقال : يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة(2) ولم يُقدمنا اليك رغبـة ولا رهبة لأَنا قد أَمِنَّا فى أيامك ما خِفْنا وأدركنا ما طلبنا . فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين .

وأخذ بعض بنى العباس رجلا طالبيًّا فهم بعقوبته فقال الطالبى : والله لولا أن أفسد دينى بفساد دُنْياك لملكتُ من لسانى أكثرَ ممـا ملكتَ من سوطك والله ان كلامى لفوق الشعر ودون السحر، وان أيسرَه ليثقُب الخردل، ويحُط الجَنْدَل .

وكانت ملوك بنى أمية تكتب الى صاحب العراق : ان امنع أهلَ الكوفة من حضور زيد بن على(3) فان له لسانا أقطع من ظُبَة(4) السيف وأحدّ من شَبا(5) الاسنّة وأبلغ من السحر والكهانة ومن كل نَفْث فى عُقْدة .

(1) اشرأب للشىء واليه : مد عنقه اليه متطلعا .

(2) المرزئة والرزيئة : المصيبة وأما الترزئة كتجربة فتحريف . قال صاحب اللسان : وفى حديث ابن ذى يزن : فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة . وعلى هـذا يكون الغلام قد اقتبسها . وبعد فلولا مكان السجع لكان ترك الفقرة الثانية خيرا من ذكرها .

(3) هو زيد بن على بن الحسين خرج على بنى أمية بالكوفة وقتل سنة ١٢٢ هـ .

(4) ظبة السيف : حده وجمعها ظبات وظبون ولامها واو محذوفة .

(5) شباة كل شىء : حده .

وصـــــف البيان

قال ابن المعتز يصف البيان : البيان تَرْجُمان القلوب وصَيْقل العقول ومُجْلى الشبهة وموجب الحجـة والحاكم عند اختصام الظنون والمفـرق بين الشك واليقين وهو من سلطان الرسل الذى انقاد به المستصعِبُ واستقام الأصيد[1] وبُهِت الكافر وسلم الممتنـع حتى أشِب[2] الحق بأنصاره ، وخلا ربع الباطل من عُمّاره . وخير البيان ما كان مصرحا عن المعنى ليسرع الى الفهم تلقيه ، وموجزا ليخف على اللسان تعاطيه .

وقيل لجعفر بن يحيى : ما البيان؟ فقال : ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويكشف عن مغزاك ويخرجه من الشركة ولا يسـتعان عليه بالفكرة ويكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل .

أقوال جامعة خوالد ، فى نعت البلاغة لغير واحد ، مشفوعة ببعض الشواهد

قال عبد الحميد[3] بن يحيى : البـلاغة تقرير المعنى فى الافهام ، من أقرب وجوه الكلام . وقال على بن عيسى الرُّمّانى[4] : البلاغة إيصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ . وقال أعرابى : البـلاغة التقرّب من البعيد والتباعد من الكُلْفة والدلالة بقليل على كثير . وقال آخر البلاغة إيجاز فى غير عجز وإطناب فى غير خَطَل[5] . وقال آخر : أبلغ الكلام ما حسن إيجـازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجـازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه .

(١) الأصـيد : الذى يرفع رأسه ولا يلتفت كبرا . (٢) أشب الشجر : التف وكثر حتى لا مجاز فيه . (٣) هو إمام الكتاب وقد ابتكر فى الكتابة العربية أمورا كثيرة توفى سنة ١٣٢ هـ . (٤) إمام من أئمة الأدب والكلام أخذ عن ابن دريد توفى سـنة ٣٨٤ هـ . (٥) الخطل : الكلام الفاسد الكثير .

وقال أحمـد بن يوسف : دخلت على المأمون وفى يده كتاب وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ويُصعِّد فيه بصره ويُصَوِّب به فالتفت إلىّ وقد لحظنى أثناء قراءته الكتاب فقال : أراك مُنكِرا منى ما تراه . قلت نعم، وقى الله أمير المؤمنين المخاوف . قال : لا مكروهَ إن شاء الله ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة فإنى سمعته يقول : (البـلاغة التباعد من الاطالة والتقرب من البغيـة والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعـنى) . وما كنت أتوهم أحدا يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مَسْعدة إلينا، فاذا فيه : كتابى الى أمير المؤمنين ومن قبلى من الأجناد والقواد فى الطاعة والانقياد على أحسن ماتكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياتهم (١) واختلت أحوالهم . ألا ترى يا أحمد الى إدماجه المسألة فى الإخبار وإعفائه سلطانه من الإكثار . ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر .

وقيل لبعضهم : ما البلاغة؟ فقال حسن الاقتضاب (٢) عند البداهة والغَزَارة عند الاطالة : فمن احسان الاقتضاب عند البداهة ما يروى أن المأمون دخل بعض الدواوين فرأى غلاما جميـلا على أُذُنه قلم، فقـال : من أنت يا غلام؟ فقال : انا يا أمير المؤمنين الناشئ فى دولتك المتقلب فى نعمتك المؤمل لخدمتـك خادمك وابن خادمك الحسن بن رجاء (٣) . فقـال : أحسنت يا غلام وبالإحسان فى البـديهة تفاضلت العقول ثم أمر برفع مرتبته !

ومن ذلك ما يروى أن يزيد بن أبى مُسلِم كاتب الحجـاج دخل على سليمان بن عبد الملك فازدراه ونبت عنه عينه (٤)، فقال : ما رأت عينى كاليوم قط . لعن الله آمرأ

(١) الأعطيات : جمع أعطيـة . وأعطية : جمع عطاء . (٢) اقتضاب الكلام : ارتجاله، واقتضب الحـديث تكلم به من غير إعداد له . (٣) هو الحسن بن رجاء بن أبى الضحاك كان أبوه على الخراج بدمشق فقتل سنة ٢٢٦ هـ . (٤) نبا بصره عن الشيء : تجافى عنه كراهية له .

أجرّك رسنه[1] وحكّمك فى أمره . فقال يا أمير المؤمنين : لا تقـل ذلك فانك رأيتنى والأمر عنى مدبر وعليك مقبل فلو رأيتنى والأمرُ علىّ مقبل وعنك مدبر لاستعظمت منى ما استصغرت واستكثرت ما استقللت . قال : عزمت عليك يابن أبى مسلم لتخبرنّى عن الحجاج ، أتراه يهوِى فى جهنم أم قد قرّ فيها؟ فقال يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا فى الحجاج وقد بذل لكم النصيحة وأمّن دولتكم وأخاف عدوّكم وكأنى به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك و يسار أخيك فاجعله حيث شئت . فقال سليمان وقد التفت الى جلسائه : قاتله الله ، ما أحسن بديهته وترفيعه لنفسه ولصاحبه ! وقد أحسن المكافأة فى الصنيعة ، خلوا عنه .

وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام .

فمن تصحيح الأقسام قول قتيبة بن مسلم[2] : من كان فى يده شىء من مال عبد الله ابن خازم فلينْبِذه ، أو فى فمه فليلفظْه ، أو فى صدره فليقذفه . وقول جرير بن عبد الله (وقد قال له المنصور : إنى لأُعدّك لأمر كبير) فقال يا أمير المؤمنين : قد أعدّ الله لك منى قلبا معقودا بنصيحتك ، ويدا مبسوطة بطاعتك ، وسيفا مسلولا على أعدائك . وقول اسماعيل بن عمرو بن سعيد — وقد قال له عبد الله بن على بعد قتل من قتل من بنى أميــة — : أساءك ما فعلت بأصحابك؟ فقال : كانوا يدا فقطعتها ، وعضدا ففتتّها ، ومِرّة فنقضتها ، وركنا فهدمته ، وجناحا فهضته .

وخير من هذا وذاك قول رجل يتظلم للمأمون من عامل له : يا أمير المؤمنين ! ما ترك لى فِضّة إلا فَضّها ولا ذهبًا إلا ذهب به ولا غلة إلا غَلّها ولا ضيعة إلا أضاعها

(١) الرسن : الحبل الذى يقاد به البعير . (٢) هو الفاتح العظيم الذى أخضع خراسان وما جاورها ، حتى تخوم الصين قتل سنة ٩٦ هـ .

ولا عَرَضا (١) إلا عرض له ولا ماشية إلا امتشّها (٢) ولا جليلا إلا أجلاه ولا دقيقا إلا أدقه . فعجب المأمون من فصاحته وقضى حاجته . وقول بعض الحكماء : الاخوان ثلاثة : أخ يخلص لك ودّه، ويبلغ لك فى مهمك جُهْده، واخ يقتصر بك على حسن نيته، دون رِفده ومعونته ، وأخ يجاملك بلسانه، ويشتغل عنك بشانه ، ويوسعك من كذبه وبهتانه .

ومما يناسب المقام ويدخل فى تصحيح الأقسام ما يروى من أن البادية قحطت فى أيام هشام بن عبـد الملك فوفد عليه رءوس القبائل فجلس لهم وفيهم غلام سـنه أربع عشرة سنة فاسـتصغره هشام وقال لحاجبه : ما يشاء أحد أن يصـل الينا إلا وصل حتى الصبيان ! فقال الغـلام : يا أمير المؤمنين إن دخولى لم يُخِـلّ بك ولا انتقصك ولكنه شرفنى وان هؤلاء قدموا لأمر فهابوك دونه وان الكلام نشر والسكوت طىّ . فقال له هشام : انشر لا أم لك (٣) ! فقال : إنا أصابتنا سنون ثلاث : فسنة أكلت اللحم، وسنة أذابت الشحم، وسـنة انتقت (٤) العظم . وفى يديكم فضول أموال فان كانت لله عز وجل ففرّقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدّقوا بها عليهم فان الله يجزى المتصدّقين ولا يضيع أجر المحسنين . وان الوالى من الرعية كالروح من الجسد لاحياة له إلا به . فقال هشام : ماترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذرا . وأمر بمال ففرّق فى أهل البـادية وأمر للغلام بمال فقال : اردده فى جائزة العرب فمالى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة الناس .

وقال معمر أبو الأشعث : قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند « ما البـلاغة عند أهل الهند ؟ » فقال بهـلة عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة

---

(١) العرض وبجبل : المتاع أو ما عدا النقدين . (٢) امتش ما فى الضرع : أخذ جميعه .

(٣) لا أم لك ولا أبا لك كلمتان فيهما جفاء وكلتاهما تستعمل للتعجب فى سياق المدح أو الذم .

(٤) نقا العظم : كدعا ورمى وانتقاه : استخرج منه النقى وهو المخ .

ولكننى لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ولطيف معانيها . قال أبو الأشعث : فتلقيت تلك الصحيفة مترجمة فاذا فيها :

أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش (١) ساكن الجوارح قليل اللحظ متخيّر اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة ولا يدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها بغاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليما ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على وجه الاستطراف (٢) والتظرّف (٣) .

ووصف العتّابى رجلا بليغا فقال : كان يظهر ما غمّض من الحجة ويصوّر الباطل فى صورة الحق .

فمن تصوير الباطل فى صورة الحق قول ابن الرومى يمدح الحقد ويحتج له :

لئن كنتَ فى حفظى لما أنا مودَع	من الخير والشر انتحيتَ على عِرضى (٤)
لما عِبتَنى إلا بفضل أمانة	ورب امرئ يَزْرى على خُلق محض (٥)
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها	بل العيب أن تدّان دينا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية	تُوَفّيك ما تُسدى من البغض بالبغض
اذا الأرض أدّت رَيْع ما أنت زارع	من البَذْر فيها فهى ناهيك من أرض (٦)

(١) الجأش : النفس . (٢) الاستطراف : عدّ الشىء طريفا أى طيبا غريبا .
(٣) التظرّف : تكلف الظرف . (٤) انتحى على الشىء وله : قصده . (٥) زرى عليه : عابه ، وأزرى عليه قليلة . (٦) يقال : هو رجل ناهيك من رجل أو نهيك من رجل أو نهاك من رجل : أى حسبك وكافيك .

ولولا الحقودُ المستَكِنَّات لم يكن ... لينقُض وترا آخـــر الدهر ذو نقض

وما الحقـد إلا توءم الشكر فى الفتى ... و بعض السجايا ينتهين الى بعض

فحيث ترى حقـــدا على ذى إساءة ... فثم ترى شكرا على حسن القرض

أوصاف بليغة فى البلاغات على ألسنة قوم من أهل الصناعات

قال من ولَّد عقائل هـذا المنثور ، وألَّف فواصل هذه الشذور : تجمع قوم من أهل الصناعات فوصفوا البلاغة من طريق الصناعة :

(١) فقال الجوهرى : أحسن الكلام نظاما ماثقَبتْه يد الفكرة ونَظَمته الفطنة ووصل جوهر معانيه فى سُمُوط[(١)] ألفاظه فاحتملته نحور الرواة .

(٢) وقال العطار : أطيب الكلام ما عُجِن عنبر ألفاظه بمسك معانيــه ففاح نسيم نَشَقه[(٢)] وسطعت رائحة عَبَقه فتغلفت به الرواة وتعطرت به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بِكير الفكر[(٣)] وسبكته بمشاعل النظر وخلّصته من خَبَث الاطناب فبرز بروز الابريز فى معنى وجيز .

(٤) وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقـدته عين البصيرة وجلّتـه يد الرّوية ووزَنْته بمعيار الفصاحة فلا نظر يُزَيِّفه[(٤)] ولا سماع يُبهرِجه .

(٥) وقال الحداد : أحسن الكلام ما نَصَبتَ عليه مِنفَخَة القريحة وأشعلت عليه نار البصيرة ثم أخرجته من فحم الافحام ورققته بِفطّيس[(٥)] الافهام .

(١) السمط : الخيط الذى ينظم فيــه . (٢) النشق : الاستنشاق . العبق : لصوق الطيب بالشىء . وتغلف الرجل بالطيب : ادهن به . والسراة : الأشراف . (٣) الكير : زق ينفخ فيه الحداد . والمشاعل جمع مشعل وهو القنديل وموضع شعل النار أى الهابها . (٤) زيف الدراهم : ارتأى أنها زائفة أى مغشوشة . وبهرجها ، أبطلها . (٥) الفطيس كسكين : المطرقة العظيمة .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقَدُوم التقدير، ونشرته بمنشار التدبير، فصار بابا لبيت البيان، وعارضة[1] لسقف اللسان .

(٧) وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت لُحمة ألفاظه بسَدَى معانيه فخرج مُفَوَّفاً مُنَيَّراً مُوَشًّى مُحَبَّراً[2] .

(٨) وقال الجمّال : البليغ من أخذ بخطام[3] كلامه فأناخه فى مبرك المعنى ثم جعل الاختصار له عقالا والاجادة له مجالا فلم ينِدَّ عن الآذان ولم يشِذَّ عن الأذهان .

---

(١) العارضة : الخشبة العليا التى يدور فيها الباب . وعوارض البيت خشب سقفه . (٢) المفوف : الرقيق من الثياب أو الذى فيه خطوط بيض . والمنير : المنسوج على نيرين أى المضاعف النسج . والموشى : المنقوش . والمحبر : المحسن . (٣) الخطام : كل ما وضع فى أنف البعير ليقتاد به جمعه خطم ـ وند : هرب .

باب الوصـــف

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبى سُفْيان لصَعْصَعة بن صُوحان : صف لى عمر بن الخطاب فقـال :

كان عالمـا برعيته ، عادلا فى قضيته ، عاريا من الْكِبر، قَبُولا للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحرّيا للصواب، رفيقا بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب .

وصف على بن أبى طـالب

قال معاوية لِضِرَار الصُّدَائى : ياضرار صف لى عليا . قال: أعفنى ياأمير المؤمنين قال : لَتَصِفَنَّه قال : امّا اذ لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى (١) شـديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيــه ؛ يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير العَـبْرة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفســه؛ يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن . وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه وينبئنا اذا استنبأناه ونحن مع تقريبه ايانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته ؛ يعظم أهـل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييئس الضعيف من عدله . وأشهد لقـد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله (٢) وغارت نجومه وقد مثَـل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم (٣) ويبكى بكاء الحزين ويقول يادنيا اليك عنى، غرى

---

(١) المدى : الغاية . (٢) السدول جمع سدل وهو الستر . (٣) السليم : الملدوغ وانما سمى كذلك تفاؤلا له بالسلامة كما سميت البيداء مفازة مع أنها مهلكة .

غيرى . ألِى تعرضت أم الىَّ تشوقت؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثا لارجعة فيها فعمرك قصير، وخَطَرك[١] حقير، وخَطْبُك[٢] يسير . آهِ من قلة الزاد و بعد السفر ووحشة الطريق .

فبكى معاوية حتى أخضلت[٣] دموعه لحيته وقال : رحم الله أبا الحسن فلقد كان كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال حزن من ذُبِحَ واحدها فى حجرها .

وصف الفرزدق للإمام زين العابدين على بن الحسين

حج هشام بن عبد الملك فطاف بالبيت وأراد استلام الحجر[٤] فلم يقدر لشدة الزِّحام فنصب له منبر فجلس عليه فبينا هو كذلك اذ أقبل على بن الحسين بن على بن أبى طالب (وكان أحسن الناس وجها وأعطرهم رائحة وأكثرهم خُشوعا) وطاف بالبيت وأتى ليستلم الحجر فتنحّى له الناس هيبة وإجلالا فغاظ ذلك هشاما فقال رجل من أهــل الشام : من الذى أكرمه الناس هذا الاكرام وأعظموه هذا الاعظام؟ فقال هشام : لا أعرفه « لئلا يعظم فى صدور أهل الشام » فقال الفرزدق وكان حاضرا :

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هــذا التقىّ النقىّ الطاهر العلم

هذا الذى تعرف البطحاء[٥] وطأته ... والبيت يعرفه والحــل والحرمُ

اذا رأته قريش قال قائلها : ... الى مكارم هـــذا ينتهى الـكَرَمُ

يكاد يُمسكه عرفانَ راحتِه ... ركنُ الحطيم اذا ما جاء يستلم

فى كفــه خَيْزُران ريحــه عَبِق ... من كف أَرْوع[٦] فى عِرنينه[٧] شَمَم[٨]

(١) الخطر : القدر والمنزلة . (٢) الخطب : الشأن . (٣) أخضله : بله . (٤) استلام الحجر : لمسه أو تقبيله والمراد الحجر الأسود . (٥) البطحاء والأبطح : مسيل فيه دقاق الحصى ، والمراد بطحاء مكة . (٦) الأروع : من يعجبك بحسنه أو شجاعته . (٧) العرنين : ماتحت مجتمع الحاجب من الأنف . (٨) الشمم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها وقد يراد منه الأنفة .

يغضى حياء ويُغضَى من مهابته — فلا يكلَّم الا حين يبتسم [1]
مشتقة من رسول الله نَبْعتــه [2] — طابت عنـاصره والخِيمُ والشّــيم [3]
يُنْمَى الى ذُروة العز التى قصرت — عن نيلها عرب الاسلام والعجم
ينشق نور الهدى عن نور غرته — كالشمس ينجاب [4] عن اشراقها القتم [5]
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله — بجدّه أنبيـاء الله قــد ختموا
كلتا يديه غِيـاث عم نفعهــما — تُستوكَفان [6] ولا يعـروهما عدم
لا يخلف الوَعْد ميمون نَقيبتــه [7] — رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهمُ — كفر وقربهــم منجى ومعتصم
مقدم بعــد ذكر الله ذكـرهمُ — فى كل بدء ومختــوم به الكلم
لا يستطيع جواد بُعْــد غَايتهم — ولا يُدَانيهم قوم وان كـرموا
من يعرفِ الله يعرف أوّليــةَ ذا — فالدين من بيت هذا ناله الأمم
وليس قولك : من هذا ؟ بضائره — العرب تعرف من أنكرت والعجم

وصف ابن المقفع [8] لبعض اخوانه

قال ابن المقفع : كان لى أخٌ أعظم الناس فى عينى وكان رأسُ ما عظّمه فى عينى صغرَ الدنيا فى عينــه . وكان خارجا من سلطان بطنه فلا يَشْتهى مالا يجد ولا يكثر اذا وجد . وكان لا يأشر [9] عنــد نعمة ولا يستكين [10] عنــد مصيبة . وكان خارجا من

(١) نسب صاحب الأغانى هذا البيت والذى قبله للحزين الكنانى يمدح بهما عبد الله بن عبد الملك بن مروان وخطأ من رواهما للفرزدق مرثيا ان معناهما أحقر من أن يمدح به زين العابدين . (٢) النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام . (٣) الخيم : السجية . (٤) انجاب : انقشع وذهب . (٥) القتم : السواد ليس بشديد كالقتمة . (٦) استوكفه : استقطره . (٧) النقيبة : النفس والعقل والمشورة والطبيعة . (٨) اسمه عبدالله وهو نابغة المترسلين وامام المترجمين وناقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية قتل سنة ١٤٢هـ . (٩) أشر كبطر وزنا ومعنى . (١٠) استكان : ذل وخضع (من السكون) .

سلطان لسانه فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى[1] فيما علم . وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبدا الا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذّ[2] القائلين . وكان ضعيفا مستضعفا فاذا جدّ الجـدّ فهو الليث عاديا . وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشارك فى مِراء ولا يدلى بحجة[3] حتى يرى قاضيا فهما وشهودا عدولا . وكان لا يلوم أحدا فيما يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما عذره . وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ولا يستشير صاحبا إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرّم[4] ولا يتسخّط ولا يتشكّى ولا يتشهّى ولا ينتقم من العدوّ ولا يغفُل عن الولى ولا يخص نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوّته .

فعليك بهذه الأخلاق ان أطقتها ولن تطيق . ولكن أخْذ القليل خير من ترك الجميع .

وصف ملكى الروم والحبشة

قال الجاحظ : حدّثنى الفضلُ بن سهل قال : كانت رسل الملوك اذا جاءت بالهدايا يجعل اختلافهم[5] إلىّ فتكون المؤامرات فيما معهم من ديوانى . فكنت أسأل رجلا رجلا منهم عن سير ملوكهم وأخبار عظمائهم . فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم فقال : بذل عُرْفه وجرّد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لا يُبطِر[6] جنده ولا يُحْرِج رعيته ، سهل النوال ، حزْن النكال[7] ، الرجاء والخوف معقودان فى يده . قلت : فكيف حكمه؟ فقال : يرد الظلم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه فالرعيـة اثنان راض ومغتبِط[8] . قلت فكيف هيبتهم له؟ قال : يُتصوّر فى القلوب فتغضى له العيون .

(١) المراء : الجدال وقد يراد منه مدافعة الحق ورده . (٢) بذه يبذه : علاه وفاقه فى حسن أو عمل كائنا ما كان . وبزه يبزه : غلبه وغصبه . (٣) أدلى بحجته : أبداها وأتى بها على صحة . (٤) تبرم وبرم : ضجر . (٥) اختلف اليه : تردد عليه . (٦) يقال أبطره ذرعه : اذا حمله فوق ما يطيق لحذف المفعول الثانى . (٧) حزن النكال : خشن العقاب . (٨) الاغتباط : الشكر على النعمة .

قال فنظر رسول ملك الحبشـــة الى إصغائى اليه و إقبالى عليه، فسأل التَّرجُمان ما الذى يقوله الرومى؟ قال يذكر ملكهم و يصف سـيرته . فتكلم مع الترجمـان بشيء فقال لى الترجمان : انه يقول : ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سَطوة عند المغالبة وذو عقوبة عند الاجترام قد كسا رعيته جميل نعمته وخَوّفهم عَسْف نقِمته فهم يتراءونه رأى الهلال خيالا، ويخافونه مخافة الموت نَكالا وسعَهم عدله وردعتهم سطوته فلا تمتهنه(١) مُزاحة(٢) ولا تؤمنه غفلة. اذا أعطى أوسع. واذا عاقب أوجع . فالناس اثنـان : راج وخائف، فلا الراجى خائبُ الأمل، ولا الخائف بعيد الأجل . قلت : فكيف هيبتهم له؟ قال : لا ترفع اليه العيون أجفانها، ولا تتبعه الأبصار انسانها، كأن رعيته قطًا رفرفت عليها صقور صوائد .

وصـــف بعض الوعاظ

قال بعض المتكلمين يصف قوما من الزهاد والوعاظ : جلوا بكلامهم الأبصار العليـلة، وشحذوا بمواعظهم الاذهان الكليلة، ونبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عاداتها، فشَفَوْا مـن داء القَسْوة وغباوة الغفلة وداوَوْا من العِيِّ الفاضح، ونهجوا لنا الطريق الواضح.

صـــفة الرجل الكـامل

كتب الحسن بن سهل(٣) الى محمد بن سماعة(٤) القاضى :

أما بعـد فانى احتجت لبعض أمورى الى رجل جامع لخصال الخير ذى عِفّة ونَزاهة طُعْمة(٥)، قد هذبته الآداب واحكمته التجارب ليس بظنين(٦) فى رأيه ولا بمطعون

(١) الامتهان : الابتذال من المهانة وهى الحقارة . (٢) المزاحة والمزاح والمزح واحد .
(٣) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفى سـنة ٢٣٦ هـ . (٤) من أصحاب محمد ابن الحسن صاحب أبى حنيفة توفى سنة ٢٢٣ وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس . (٥) الطعمة بالضم : طريق الكسب و بالكسر هيئة الأكل والسيرة فيه . (٦) الظنين : المتهم .

فى حسـبه . إن أؤتمن على الأسرار قام بها . وان قلّد مُهمّا من الأمور أجزأ(١) فيه له سِن مع أدب ولسان، تقعده الرزانة ويُسكّنه الحلم، قد فُرّ(٢) عن ذكاء(٣) وفطنة وعضّ على قارِحة من الكمال(٤) . تكفية اللحظة وترشده السّكتة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام فى أمورهم فحُمد فيها . له أناة الوزراء، وصَوْلة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وجواب الحكماء . لا يبيع نصيب يومه بحِرْمان غَدِه . يكاد يَسْترق(٥) قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسنِ بيانه . دلائل الفضـل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعا(٦) بما استنهض، مُستقِلّا(٧) بما حُمّل، وقد آثرتك بطلبه، وحَبَوْتك بارتياده(٨) ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتّيك(٩) .

فكتب ابن سماعة اليه :

إنى عازم أن أرغب الى اللهِ عزّ وجلّ حولا كاملا فى ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرّق الرسل الثقاتِ فى الآفاق لالتماسـه . وأرجو أن يَمُنّ الله بالاجابة فأفوز لديك بقضاء حاجتك . والسلام .

وصـــف أفضـــل الملوك

قيل لكسرى : أى الملوك أفضـل؟ فقال : الذى اذا حاورته وجدته عليما، واذا خَبَرْته وجدته حكيما، واذا غضب كان حليما، واذا ظفر كان كريما، واذا استُمْنِح مَنَح جسيما، واذا وعد وفى وان كان الوعد عظيما، واذا شُكِى اليه وُجِد رحيما .

(١) أجزأ : أغنى . (٢) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها . (٣) الذكاء : تمام السن واكتماله أو حدّة الذهن . (٤) الفرس القارح : الذى استكمل القوّة باكتمال العمر ونظيره فى الابل البازل . والسن التى تنبت له عند قروحه تسمى قارحا وقارحة . والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال . (٥) يسترق : يستعبد . (٦) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه اذا كان قديرا عليه . (٧) استقل بالحمل : نهض . (٨) الارتياد : الطلب . (٩) تأتى للامر : ترفق وأتاه من وجهه .

وصف رجل لخصمه، من غير جور فى حكمه

كان أحمد بن يوسف[١] متصرفا عن غَسَّانَ بن عباد وجرت بينهما هَنات[٢] بحضرة المأمون . ثم قال المأمون يوما لخاصـة أصحابه : أخبرونى عن غسّان بن عباد فانى أريده لأمر جسيم وكان قد عزم على تقليده السِّنْدَ، فتكلم كل بمـا عنده فى مدحه فقال أحمـد بن يوسف : هو « يا أمير المؤمنين » رجل محاسنه أكثر من مساويه، لا يتطرق[٣] الى أمر إلا تقدّم فيه . ومهما تُخُوِّف عليه فانه لن يأتى أمرا يُعْتَذَر منه لأنه قسم أيامه بين أفعال الفضـل فجعل لكل خلق نَوبة[٤] . اذا نظرت فى أمره لم تدر أى حالاته أعجب أمَا هداه اليه عقله أم ما اكتسبه بأدبه . فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه قال : لأنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى ثمنا لمـا أسـديتَ أنى ... نصحتك فى الصديق وفى عدائى

وإنى حيـن تنـدُبنى لأمر ... يكون هواك أغلبَ من هوائى[٥]

وصف أبى دُلَف لعبد الله بن طاهر

دخل أبو دُلَف[٦] على المأمون بعد الرضا عنه فسأله عن عبد الله بن طاهر[٧] فقال: خلفته يا أمير المؤمنين أمين غيب نصيح جيب[٨] أسدا عاتيا قائما على براثنه يَسْعَد به

(١) كاتب بليغ من كتّاب المأمون وكان بارعا فى الرسائل و يكنى أبا جعفر . (٢) الهنات : جمع هنة وقد تجمع على هنوات والمراد أمور . (٣) تطارق الى الأمر : ابتغى اليه طريقا . (٤) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها كغرف . (٥) يريد هواى ومدّه للضرورة . (٦) أبو دلف كعمر هو القاسم بن عيسى البكرى من قوّاد المأمون ثم المعتصم وكان جوادا شجاعا وفيه يقول الشاعر :

انمـا الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

توفى سنة ٢٢٦ هـ . (٧) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين من كبار ولاة المأمون ولى مصر مدّة سنتين تقريبا قال صاحب كتاب أدب الخواص : ان البطيخ العبد لاوى الموجود بالديار المصرية منسوب اليه اهـ . (٨) يقال هو ناصح الجيب أى القلب والصدر .

وليّك ويشقى به عدوّك رحب الفِناء لأهل طاعتك ذا بأس شديد لمن زاغ عن قصد مَحَجّتك . قد فَقّهه الحزم وأيقظه العزم فقام فى نَحْر الأمور على ساق التّشمير يُبْرِمها بأَيْده[(١)] وكَيْده ويَفُلّها بحَدّه وجِدّه وما أشَبّهه فى الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أكر على الكتيبــة لا أبالى احتفى كان فيها أم سواها

فقال قائل : ما أفصحه على جَبَايِّته ! فقال المأمون : ان بالجبل[(٢)] قوما أمجادًا[(٣)] ، كراما أنجادا[(٤)] ، وانهم ليُوَفّون السيف حظه يوم النّزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصـــف أعرابى لرجـــل

وصف أعرابى رجلا فقــال :

ان سأل ألحف ، وان سئل سوف ، واذا وعد أخلف ، واذا صنع أتلف ، واذا هم بالفعل الجميل توقف ، ينظر نظر الحسود ، ويُعْرض إعراض الحقود ، بينما هو خِلٌّ وَدُود ، إذ هو خَلٌّ وَدُود ، فناؤه[(٥)] شاســع ، وضيفه جائع ، وشره شائع ، وسره ذائع ، ولونه فاقع[(٦)] ، وجَفْنــه دامع ، ودياره بلاقع . ردىء المَنْظر ، سيئ المَخْبَر ، يبخل اذا أيسر ، ويهلَع[(٧)] اذا أعسر ، ويكذب اذا أخبر ، ان عاهد غدَرَ ، وان خاصم فَجَر ، وان خوطب نَفَر .

---

(١) الأيد : القوّة . (٢) الجبل : بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان و بلاد الديلم . (٣) الأمجاد : جمع ماجد أو مجيد كأشهاد فى شاهد وشهيد والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمح . (٤) الأنجاد : جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها وهو الشديد البأس . ومن كلام على : أما بنو هاشم فأنجــاد أمجاد . (٥) فناء البيت : الساحة أمامه جمعــه أفنية والشاسع : البعيد والجملة كناية عن أنه بخيل لأن من عادة البخيل عندهم أن يبنى خباءه بعيدا عن الحى حتى لا يقصد ، قالت الفارعة :

ولا يحــل اذا ما حل منتبــذا يخشى الرزية بين المــاء والبادى

(٦) الفاقع : الشديد الصفرة و ربما أكد به الأبيض . (٧) الهلع : أفحش الجزع .

وصـــف كلام العـــرب

قال عُتْبة بن أبى سفيان : ان للعرب كلاما هو أرق من الهـواء، وأعذب من المـاء، تَمَرق من أفواههم مُرُوق السهام من قِسِيِّها بكلمات مؤتلفات ، ان فسرت بغيرها عطلت(١) ، وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة اذا سمعت وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة اذا طلبت(٢) .

وصـــف الكـتاب

قال الجاحظ : الكتاب وِعاء مُلئ علما وَظَرْف حشى ظَرْفا وبستان يحمل فى ردن(٣) ، وروضة تُقَلَّب فى حِجْر ينطق عن الموتى ويترجم كلام الأحيـاء . ولا أعلم جارا أبرّ ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية وأقل جناية ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقل خلافا واجراما ، ولا أقل غيبة ولا أبعد من عَضِيهة(٤) ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ، ولا أقل صَلَفا(٥) وتكلفا ، ولا أبعد من مِراء ولا أترك لشَغْب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال « من كتاب » . ولا أعلم قرينـا أحسن مُواتاة(٦) ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمرا ولا أجمع أمرا ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مُجْتَنًى ولا أسرع ادراكا فى كل أوان ، ولا أوجد فى غير أبان ، «من كتاب» . ولا أعلم نِتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ، ورُخْص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير الحسنة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأخبار اللطيفة ومن الحكم الرقيقة ومن المذاهب القديمة ،

(١) التعطيل : ترك الشيء ضياعا . (٢) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع .
(٣) الردن : الكم جمعه أردان . (٤) العضيهة : البهتان والنميمة . (٥) الصلف : تمدح المرء بما ليس عنده . (٦) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفى الحديث : خير النساء المواتية لزوجها .

والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون المـاضية، والبلاد المتراخية، والأمثـال السائرة، والأمم البائرة[(١)]، « ما يجمع الكتّاب » .

وقيل لبعض العلماء : ما بلغ من سرورك بكتبك ؟

فقال : هى ان خلوت لذّتى، وان اهتممت سَلْوتى، وان قلت ان زَهْر البستان، ونَوْر الجنان، يجلوان الابصار ويُمْتِعان بحسنهما الالحاظ فان بستان الكتب يجـلو العقل ويَشْحَذ الذهن ويحيي القلب ويقوى القريحة ويعين الطبيعة ويبعث نتائج العقول ويستثير دفّائن القلوب ويمتع فى الخلوة ويؤنس فى الوحشة ويضحك بنوادره ويسر بغرائبه ويفيد ولا يستفيد ويعطى ولا يأخُذ وتصل لذته الى القلب من غير سآمة تدركك ولا مشقة تَعرِض لك .

وصـــف التـاريخ

قال ابن الأثير يصف التاريخ :

التاريخ مَعَـاد معنوى يُعيد الأعصار وقد سلَفت، وينشُر أهلهـا وقد ذهبت آثارهم وعفت[(٢)] وبه يستفيد عقول التجارب من كان غِرًّا، ويلق من قبله من الأمم وهـلُمَّ جرًّا . فهم لديه أحياء وقد تَضَمَّنَتْهم بطون القبور، وعنه غُيِّب وقد جعلتهم الأخبار فى عِدَاد الحضور . ولولا التاريخ لجُهِلت الانساب، ونُسِيت الاحساب، ولم يعـلم الانسان ان أصله من تراب . وكذلك لولاه لمـاتت الدول بموت زعمائها وعَمِيَ[(٣)] على الأواخر حال قدمائها، ولم يُحَط علما بما تداولته الأرض من حوادث سمائها . ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة، فمنها ما أتى باخباره

---

(١) البائرة : البائدة . (٢) عفا الشيء : هلك . (٣) عمى عليه الأمر : التبس وكذلك عمّى عليه .

الجملة ، ومنهـا ما أتى باخباره المُفَصَّلة . وقد ورد فى التَّوراة مُفْردا فى سِـفْر من أسفارها ، وتضمّن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومُدَد أعمارها .

وقد كانت العرب على جهلها بالقـلم وخطه ، والكتّاب وضبطه ، تصرف الى التواريخ جُمل دواعيها وتجعل لها أوّل حظّ من مساعيها ، فتستغنى بحفظ قلوبها ، عن حفظ مكتوبها ، وتَعْتاض برقم صدورها ، عن رقم سطورها ، كل ذلك عنايةٌ منهـا باخبار أوائلها ، وأيام فضائلها ، وهل الانسان الّا ما أسَّسَه ذكْرُه وبناه . وهل البقاء لصورة لحمه ودمه لولا بَقاء معناه .

وصف العلم وعنـاء تحصيله

كتب بديع الزمان الهمذانى « من رسالة الى القاضى على بن أحمد » :

والعلم (أطال الله بقاء القاضى) شىء كما تعرفه بعيد المرام ، لا يُصَاد بالسهام ، ولا يُقْسَم بالأزْلام[1] ، ولا يُرَى فى المنام ، ولا يُضْبط باللِّجام ، ولا يُورث عن الأعمام ، ولا يُكْتَب للئام ، وزرع لا يزكُو حتى يصادف من الحرص ثرَّى طيّبا ، ومن التوفيق مطرا صَيِّبا[2] ، ومن الطبع جوا صافيا ، ومن الجَهْد رَوْحا[3] دائما ، ومن الصَّبر سَقْيا نافعا . والعلم نَفِيس لا يباع إلا ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد[4] ، وشىء لا يُدْرك إلا بنزع الرُّوح ، وعون الملائكة والرُّوح[5] ، وغَرَض لا يصـاب إلا بافتراش المَدَر ، واستناد الحَجَـر ، ورد الضَّجَر ، وركوب الخَطَر ، وادْمان السَّهر ، واصطحاب السَّفَر ، وكَثْرة النظر ، واعمال الفِكَر ، ثم هو مُعْتَاص[6] على من زكا زرعه ، وخلا ذرعه[7] ، وكرم أصله

(١) الأزلام : قداح الميسر أى القمار واحدها زلم وهى أيضا قداح كانوا يكتبون عليها أمرا ونهيا ويستنطقونها عند الشروع فى أمر . (٢) المطر الصيب : الشديد الانصباب . (٣) الروح : نسيم الريح وتحركها . (٤) الأوغاد : جمع وغد وهو الأحمق الضعيف . (٥) الروح (هنا) : جبريل عليه السلام . (٦) اعتاص الأمر عليه : اشتد وعسر . (٧) يقال : ضاق ذرعه بكذا : أى ضعف ولم يستطع . وخلا ذرعه لكذا : تفرغ له .

وفرعه، ووعى بَصَرُه وسَمْعه، وصَفَا ذِهنه وطَبْعه، فكَيْف يناله من أنفق شبابه على الأحْشَاء[١]، وقطع خَلْوته بالغِنَاء، وأفرغ جِدَّه فى الكيس، وهَزْله فى الكاس. والعلم ثَمَرٌ لا يصلح إلا للغَرْس، ولا يُغْرَس إلا فى النفس، وصـيد لا يقع إلا فى البَذْر، ولا يَنْشَب إلا فى الصـدر، وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ، ولا يعْلِقُه[٢] الاشَرَك الحِفْظ، وبحر لا يخوضه المَلّاح، ولا تُطِيقه الألواح، ولا تَهِيجه الرِّياح، وجبـل لا يُتَسَنَّم[٣] إلا بِخُطَا الفِكْر، وسماء لا يُصْعَد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يُلْمَس إلّا بيد الجِـد.

وصـــف القـــلم

قال أبو تمـام يصف القلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات:

لك القـلم الأعلى الذى بشَبَـاته[٤]	تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصل
لعـاب الأفَاعِى القاتلاتِ لُعَـابه	وأَرْىُ[٥] الجَنَى اشْتارته[٦] أيدٍ عواسـل
له رِيقَـــة طَلّ ولكن وَقْعها	بآثاره فى الشرق والغـرب وابل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب	وأعجم ان خاطبتـه وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت	عليـه شِعَاب الفكر وهى حَوافل
أطاعته أطراف القنا وتَقَوَّضت	لنجواه تقويض الخيـام الجحافل
اذا استغزر الذهن الجـلى وأقبلت	أعاليـه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخِنْصِران[٧] وسـددت	ثلاث نواحيـه الثلاث الأنامل
رأيت جليـلا شأنه وهو مرهف[٨]	ضنى وسمينا خطبـه وهو ناحل

(١) يقول: أنفق شبابه على الأكل والشرب. (٢) يعاقه: يصطاده. (٣) تسنم الجبل: علاه. (٤) الشباة: الحد. (٥) الأرى: عسل النحل. (٦) شار العسل واشتاره واستشاره: استخرجه. (٧) الخنصران: الخنصر والبنصر وهذا تغليب كالقمرين للشمس والقمر. (٨) المرهف: المرقق.

وصـــف المطـــر

قال عمر بن عليّ المطوّعي[١] : رأى الأمير السيد أبو الفضـل عبيد الله بن أحمد (أدام الله عزه) أيام مقامه بجوين[٢] أن يطالع قريةً من قرى ضياعه (تدعى ثجاب) على سبيل التنزه[٣] والتفرج[٤] فكنت فى جملة من استصحبه اليها من أصحابه. واتفق انا وصلنا والسماء مُصْحِية والجو صاف لم يطرّز ثوبه بعَلَم الغمام والأفق فيروزج[٥] لم يعبق به كافور السحاب فوقع الاختيار على ظل شجرة باسقة[٦] الفروع مُتَّسقة[٧] الأوراق والغصون قد سترت ما حواليها من الأرض فنزلنا تحتها مستظلين بسماوة[٨] أفنانها مستترين من وَهَج الشمس بستارة أغصانها وأخذنا نتجاذب أذيالَ المذاكرة ونتسالب أهداب المناشدة والمحاورة فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرعدت وأبرقت، وأظلمت بعد ما أشرقت، ثم جادت بمطـر كأفواه القرب فأجادت، وحكت أناملَ الأجواد ومدامعَ العُشَّاق بل أوفت عليها وزادت، حتى كاد غيثها يعود عيثا[٩] وهَمَّ وَبْلها أن يستحيل وَيْلا فصبَرْنا على أذاها وقلنا (سحابةُ صيف عن قليل تَقَشَّع) فاذا نحن بها قد أمطرتنا بَرَدًا كالثغور

---

(١) من أدباء المشرق فى القرن الرابع خدم الأمير أبا الفضل الميكالى الذى دو عبيد الله بن أحمد ومن شعر المطوعى :

لا تعرضن على الرواة قصـــيدة ✱ مالم تكن بالغت فى تهذيبها

(٢) جوين : كورة بخراسان . (٣) التنزه : التباعد وأرض نزهة ونزيهة : بعيدة عن الريف حيث لايكون ماء ولا جمع ناس . وقد منع صاحبا القاموس واللسان استعمال التنزه فى الخروج الى البساتين والخضر والرياض ولكن الجوهرى يقول : وخرجنا نتنزه فى الرياض وأصله من البعد اه . فهو يبيح هذا الاستعمال على سبيل التجوز . وبقوله نقول . (٤) التفرج : ذهاب الغم ، واستعماله فى نظار الأشياء ترويحا للنفس لا يعرف عن العرب غير أن له وجها من المجاز . (٥) الفيروزج : حجر أجوده الأزرق الصافى اللون ومن خواصه أنه يصفو بصفاء الجو ويكدر بكدرته وزعم صاحب اللسان أنه صبغ . (٦) الباسق : الطويل . (٧) المتسق : المنتظم . (٨) سماوة كل شىء : شخصه . (٩) العيث : الافساد .

لكنها من ثغور العَذاب لا من الثغور العِذاب . فأيقنّا بالبلاء وسلمنا لأسباب القضاء فما مرت إلا ساعة من النهار، حتى سمعنا خريرَ الأنهار، ورأينا السيلَ قد بلغ الزُّبى (١)، والمـاء قد غمرَ القيعان والرُّبا (٢)، فبادرنا الى حصن القرية لائذين من السيل بأفنيتها، وعائذين من القَطْر بأبنيتها، وأثوابنا قد صَنْدل (٣) كافوريَّها (٤) ماءُ الوبْل، وغَلّف طِرازيَّها (٥) طينُ الوَحْل . ونحن نحمد الله على سلامة الأبدان، وان فقدنا بياض الأكمام والأردان، ونشكره على ســلامة الأنفس والأرواح، شكر التاجر على بقيــة رأس المـال اذا فُجع بالأرباح . فبتنا تلك الليلةَ فى سماء تكِف ولا تَكُفُّ (٦) وتبكى علينا الى الصباح بأدمع هوام (٧) وأربعة سِجام (٨) .

فلمـا سُلّ سيفُ الصبح من غِمْد الظلام، وصُرِف بوالى الصحو عاملُ الغمام، رأينا صوابَ الرأى أن نوسع الاقامة بها رَفْضا، ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضا، فما زلنا نطوى الصحارَى أرضا فأرضا، الى أن وافينا المسـتقر ركضا . ولمـا نفضنا غُبارَ ذلك المسير، الذى جمعنا فى رِبْقة (٩) الأسير، وأفضينا الى ساحة التيسير، بعد ما أُصبنا بالأمر العسير، وتذاكرنا ما لَقِينا من التعب والمشقة، فى قطع ذلك الطريق وطى تلك الشِّقة (١٠)، أخذ الأمير السيد (أطال الله بقاءه) القلم فعلق هــذه الأبيات ارتجـالا :

(١) الزبى : جمع زبية، وهى الرابية لا يعلوها ماء وحفرة تحفر للأســـد ليصطاد .

(٢) الربا : جمع ربوة، وهى ما ارتفع مــن الأرض . (٣) الصـندل : خشب أحمر طيب الريح . (٤) الكافورى : المنسوب الى الكافور لبياضه . (٥) الطراز : ضرب من الثياب السلطانية . (٦) وكف الدمع والماء : سال . (٧) همى الدمع : سال . (٨) أى مدامع أربعة جرت مــن نواحى العينين . قال فى اللسان : وفى بعض الحديث فجاءت عيناه بأربعة أى بدموع جرت من نواحى عينيه الأربعة اهـ . وسجم الدمع سجاما : سال فسجام مصدر وصف به . (٩) الربق : حبل فيه عدّة عرى يشدّ به الدواب، كل عروة ربقة . (١٠) الشقة : الناحية يقصدها المسافر والسفر البعيد .

دهتنا السماءُ غَدَاةَ السحاب ... بغيث على أفْقِـه مُسبِل (١)

فجـاء برعــد له رَنَّةٍ ... كرنة ثَكلى ولم تُثْكَلِ (٢)

وثَنَّى بويل عَــدَا طوره ... فعـاد وبالا عـلى المُمْحِل

وأشرف أصحابنا من أذاه ... على خطر هائل مُعْضِـل

فمن لائذ بِفِناء الجدار ... وآوٍ الى نَفَق مُهْمَـل

ومن مستجير ينادي: الغريقَ ... هناك ، ومن صارخ مُعْوِل

وجادت علينا سماء السقوف ... بدمع من الوجد لم يُهْمَـل

كأن حرامًا لهـا أن ترى ... يَبِيساً من الأرض لم يُبْلَل

وأقبـل سـيلٌ له روْعَةٌ ... فأدبر كلٌّ عن المقبـل

يُقَلِّع ما شاء من دَوْحَة ... وما يَلْقَ من صخرة يحمـل

فمن دامر رده غامرا ... ومن مَعْـلَم عاد كالمَجْهَل

كفانا بليَّتَـه ربُّنا ... لقد وجب الشكر للفضل

فقل للسماء: ارْعُدي وابرُقي ... فانا رجعنا الى المنـزل

وصـف الشمس

قال رجل من بني الحارث بن كعب يصف الشمس منذ طلوعها الى غروبها :

مخبأةٌ : أمّا اذا الليـل جَنَّها ... فتخفى وأما بالنهـار فتظهـر

اذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى ... دُجَى الليل وانجاب الحجاب المستَّر

وألبس عُرْضُ الأرض لونا كأنه ... على الأفق الشرقيّ ثوبٌ مُعَصْفَر (٣)

(١) أسبلت السماء : أمطرت . (٢) الثكلى : من فقدت ولدها . يقول كرنة امرأة فقدت ولدها ولم يكن لها عهد بالثكل . (٣) العرض : الناحية . والمعصفر : المصبوغ بالعصفر . وهو نبت أصفر .

تجلّت وفيها (حين يبدو شُعاعُها ولم تَعلُ) للعين البصيرة منظر
عليها كَدِرع الزعفران يَشُبُّه (١) شُعاع تلألا فهو أبيضُ أصفر
فلما علت وابيضّ منها اصفرارها وجالت كما جال المَهيجُ المشهر (٢)
وجلّت الآفاق ضوءاً يُنيرها تَخِرّ لها صدر الضحى يتسعر (٣)
ترى الظلّ يُطوى حين تبدو، وتارة تراه اذا زالت عن الأرض يُنشر
كما بدأت إذ أشرقت فى مغيبها تعود كما عاد الكبيرُ المعمّر
وقد شَفّ (٤) حتى ما يكاد شُعاعها يَبين اذا ولت لمن يتبصر
فأفنت قرونا وهى تلك، ولم تزل تموت وتحيا كلّ يوم وتُنشر

وصف مرآة

قال أبو الفتح كُشاجِم يَصفُ مرآةً أهداها :

اخت شمس الضّحاء فى الحسن والاشـ ـراق غير الاعشاء للاجفان
ذاتُ طوق مُشَرَّف من لُجَين أجريت فيه صُفرة العِقيان (٥)
فهو كالهالة المحيطة بالبد ر لِستٍّ مضين بعد ثمان
وعلى ظهرها فوارس تلهو بِبُزاةٍ تعدو على غِزلان
عدلت عكسها الشُّعاعَ فبدا ه اليها ورجعه نَبيان
وهى شمسٌ وان مثالك يوما لاح فيها فانها شمسان
أينما قابلت مِثالك من أر ض ففيها تقابل النيّران
فالقها منك بالذى ما رآه خائف فانثنى بغير أمان

(١) شبه : حسنه وأظهر بهاءه . (٢) المهيج : اسم مفعول هاجه أى أثاره . والمشهر : المشهور والموصوف محذوف أى الفرس . (٣) تسعر : اتقد . (٤) شف : رق .
(٥) المشرف : ماجعل له شرفة ، واللجين : الفضة ، والعقيان : الذهب الخالص .

وقال ابن المعتز وقد ذكر المرآة :

فَبَيَّنَتْنِي لِي كلما رمتُ نظرة ... وناصحتني من دون كلِ صديق
يقابلني منك الذي لا عدمته ... بلجة ماء وهو غـــير غريق

وصـــف روضـــة

قال صفي الدين بن صالح يصف روضة صَنْعَاءَ :

روضة قد صبا لهـا الصُّغْد شوقا ... قد صـفا ليلها وطاب المقيـــل (١)
جوها سَجْسَـجٌ وفيهـا نسـيم ... كلُّ غصن الى لقاه يميـــل (٢)
صح سـكانها جميعا من الدّا ... ء وجسم النســيم فيها عليـــل
إيهِ يا ماء نهرها العذبَ صَلْصِل ... حبـذا يا زُلال منــك الصليل (٣)
إيه يا وُرْقَهـا المُـرِنَّةَ غَـنِّي ... لحيـاةُ النفوس منــك الهـديل (٤)
روضَ صنعاء فُقْتَ طبعا ووصفا ... فكثير الثناء فيــك قليـــل
تِهْ على الشِّعْبِ شِعب بوّانَ وافخرْ ... فعـلى ما تقولُ قام الدليـــل (٥)
نَهَـــرٌ دافق، وجـــو فَتِيـــق، ... زَهَـــرٌ فائق، وظل ظليـــل (٦)
وثمـار قِـطَافهـا دانيـات ... يجتنيها قَصِـيرنا والطـويل
لست أنسى انتعاش شُحْرُورِ غصن ... طَـرِبا والقضيب منــه يميـل
وعلى رأس دوحةٍ خَاطِبُ الوُرْ ... قِ ودمع الغصون طَلًّا يسـيل
ولسان الرعـود يهتِف بالسُّحْـ ... ـبِ فكان الخفيفَ منها الثقيـل (٧)

(١) الصغد : موضع بسمرقند معدود من جنان الدنيا . (٢) السجسج : الذى لا حر فيه ولا قر (٣) ايه : كلمة استزادة . وصلصل وصل : صوت . (٤) رن وأرن : صاح ، والهديل صوت الحمام (٥) شعب بوان : موضع بفارس معدود من جنان الدنيا . (٦) الفتيق : المشرق . (٧) يهتف : يصيح ، والثقيل هنا صوت من أصوات الغناء العربي .

وفم السحب باسم عن بروق مســتطيرٌ شُــعاعُها مستطيل (١)
وزهـورُ الرُّبا تَعجَّب مِنْ ذَا شاخصا طرفها المليح الجميــل (٢)
فيــه لى رُفقــة رِقاق الحواشى كاد لين الطباع منهم يسيل
نتهــادى من العــلوم كؤوسا طيّبــاتٍ مِزاجهــا زَنْجَبيــل
طاب لى رَأْدها وطاب ضحــاها كيف أسحارها وكيف الأصيل (٣)

وصــــف العصــا

لق الحجاج أعرابيا فقال : من أين أقبلت؟ قال من البادية . قال : مابيدك؟ قال عصــا أرِكزُها (٤) لصلاتى وأُعِدُّها لعُداتى وأسوق بها دابّتِي وأقْوَى بها على سَفَرى وأعتمد عليها فى مَشْيِي ليتسع بها خَطْوى وأعْبُر بها النهر فتؤمِننى وأُلْقِي عليها كسَائى فيستُرنى من الحَرّ ويقيني من القُرّ وتُدْنِي مابَعُــدَ منى . وهى مِحْمَل سُــفْرتى وعَلّاقة إداوتى (٥) ومِشْجب (٦) ثيابى . أعتمد بها عند الضِّراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقى بهــا عَقُور الكلاب . تنوب عن الرُّمْح فى الطعان، وعن الحَرْبةَ عند منازلة الأقران . ورثتها عن أبى وأورثها بعدى ابنى وأهُشُّ (٧) بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى كثيرة لاتحصى .

وصــــف ســـيف

قال البحترى يصف سيفا :

يتنــاول الرُّوحَ البعيــدَ منالُه عَفْوا ويَفْتَح فى القضاء المُقْفَل
يغشى الوَغَى فالتُّرْس ليس يُجِنّه من حده والدرع ليس بمَعِقل (٨)

---

(١) المستطير : الساطع المنتشر . (٢) الزهور : جمع زهر وهو لم يسمع . (٣) الرأد : ارتفاع الضحا ، والأصيل : ما قبل الغروب . (٤) ركز الرمح : غرزه فى الأرض . يريد يغرزها لتكون حائلا بينه و بين المـارة وذلك من آداب الصلاة . (٥) الاداوة : اناء صغيرة من جلد يتخذ للمـاء . (٦) المشجب والشجاب : ماتعلق عليه الثياب . (٧) هش الشجر : خبطة ليتساقط ورقة فترعاه الدواب . (٨) حده : منعه . والمعقل : الملجأ والحصن .

ماض وان لم تُمْضِه يد فارس بَطَلٍ ومصقولٌ وان لم يُصْقَل

مُصْغ الى حكم الرَّدَى فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يَعْدل

متــوقدٌ يَبْرِى بأول ضربـــة ما أدركت ولو آنهـا فى يَذْبُل (١)

فاذا أصاب فكل شى مَقْتَــلٌ واذا أصيب فماله من مقتــل

حملت حمائله القــديمةُ بقــلةً من عهــد عاد غضّة لم تَذْبُل (٢)

وصـــف فـــرس

قال محمد بن الحسين يصف فرسا :

هو حسن القميص، جيــد القُصُوص (٣)، وَثِيق القَصَب (٤)، نقِ العصب (٥)، يُبْصِر بأُذنيه، ويتبوّع (٦) بيــديه، ويداخل برجليه، كأنه موجٌ فى لُجّة أو سيل فى حَدُور (٧). يُناهب المشى قبل أن يبعث، ويلحق الأرانب فى الصَّعُوداء (٨)، ويجاوز جوارى الظباء فى الاستواء، ويسبق فى الحدُور جرى المــاء . إن عُطِفَ جار، وان أرسل طار، وإن كُلِّف السير أمعن وسار، وإن حُبِس صَفَن (٩)، وإن استوقف قَطَن، وإن رُعِي أَبَن (١٠)، فهو كما قال تأبط شرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تَنْتَحِى بِمُنْخَرِقٍ من شَــدّه المتــدارِك (١١)

---

(١) يبرى هنا : يقطع ويذبل جبل . (٢) يقول : ان نصله لبريقه وصفائه يرى أخضر كأنه البقلة الغضة . (٣) فيص الفرس : اهابه . (٤) القص : ملتقى كل عظمين . (٥) القصب : العظام ذات المخ واحده قصبة . (٦) تبوع الفرس : أبعد الخطو فى جريه . (٧) الحدور والحدر والأحدور : المنحدر . (٨) الصعوداء : العقبــة الشاقة .

(٩) صفن الفرس بجلس : قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

(١٠) ابن : ترقب . (١١) منخرق الرياح : مهبها والمتدارك : المتتابع .

ووصف اعرابى فرسا فقال : لمـا أرسلت الخيل جاءوا بشيطان فى أشطان ، فأرسلوه فلمع لمَع البرق ، واستَهَلّ استهلال الوَدْق[١] ، فكان أقربهم اليـه ، الذى تقع عينه من بعد عليه .

ووصف ابن القِرِّية[٢] فرسا أهداه الحجاج الى عبد الملك بن مروان فقال : حسن القد ، أسيل الخد[٣] ، يسبق الطرف ، ويستغرق الوصف .

ووصف اعرابى خيلا لبنى يَربوع فقال : خرجت علينا خيل من مُستَطِير نَقْع كأنّ هَوَادِيَها[٤] أعلام ، وآذانها أقلام ، وفُرْسَانَها أسود آجام .

وصـــف الفرس والســـيف

قال البارودى يصف الفرس والسيف :

وقـد أسـير أمام القوم ضَاحِيةً	والجو بالبـاترات البيض مُشْتعل
بكل أشـقرَ قـد زانت قوائمَه	تُحُـولُه ذيرَ يُمْـنى زَانَهـا العَطَل
كأنّه خاض نهـر الصبح فانْتَبـذَتْ	يُمناه وانبث فى أعطـافِه الطَّفـل[٥]
رزقٌ حوافـره ، سودٌ نواظـره ،	خضر جَحَافِـله[٦] ، فى خَلْقه مَيَـل
كأنّ فى حلقـه ناقـوسَ راهبـة	باتت تُحَـرّكُه أو راعـد زَجِـل[٧]
يمـرّ بالوحش صَرْعَى فى مكامنهـا	فما تَبين لَه شـدًّا فتنخـزل[٨]

(١) الودق : المطر واستهل : اشتد انصبابه .   (٢) اسمه أيوب وهو معـدود من الفصحاء البلغاء وله أخبار كثيرة مع الحجاج قتله الحجاج سنة ٨٤ هـ .   (٣) الأسيل : الأملس المستوى .   (٤) الهوادى : جمع هاد وهو مقدّم الفرس أو عنقه .

(٥) الطفل : احمرار الشمس عند الغروب .   (٦) الجحفلة من ذوات الحافر : بمنزلة الشفة والجحفلتان أيضا : رقتان فى ذراعى الفرس .   (٧) الزجل : رفع الصوت أو تطريبه . وفى البيت ضرورة لا يستقيم معها الكلام الا اذا جعل راعد خبرا لكأن محذوفة أى أو كأن صوته راعد .

(٨) انخزل : انقطع أو ثقل مشيه أو انفرد .

يرى الاشارة فى وَحْى فَيَفْهَمها ويسمع الزجر من بُعد فيمتثل
إن مرَّ بالقوم حَلُّوا عَقْدَ حُبوتهم واستشرفت نحوه الألباب والمُقَل (١)
تقوده بنتُ خمسٍ فهو يتبعها ويستشيط اذا هأهابه الرجل (٢)
أَمضى به الهول مِقْداما ويصحبنى ماضى الغِرَار اذا ما استفحل الوَهَل (٣)
يمُر بالهامِ مرَّ البرق فى عَجَل وقتَ الضِّراب ولم يَعْلَق به بَلَل
ترى الرجال وقوفا بعد فتكته بهم، يُظَنُّون أحياءً وقد قُتِلوا
كأنّه شُعْلَةٌ فى الكف قائمةٌ تَهْفُو بها الريحُ أحيانا وتعتدل
لولا الدماء التى يُسْقَى بها نَهَلًا لكاد من شدّة اللألاء يشتعل
يَفُلّ ما بقيت فى الكف قبضته كلّ الحديد ولم يثأر به فَلَل

وصف أسطول

قال على بن محمد الأيادى يصف أسطول القائم الفاطمى المتوفى سنة ٣٣٤ فأجاد ما أراد :

أَعْجِبْ بأسطُول الامامِ مُحَمَّد وبحسنه وزمانه المُستغرَب
لَبِسَتْ به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مُشْرِفة على ما قابلت إشراف صدر الأَجدل المتَنصِّب (٤)
دَهْماء قد لَبِسَتْ ثياب تَصَنّع تَسْبِى العقول على ثياب تَرَهُّب (٥)
من كل أبيض فى الهواء منشّر منها وأسْحَم فى الخليج مُغَيَّب

(١) الحبوة : جلسة خاصة وهى أن يجمع الجالس بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها .

(٢) هأهأ به : زجره . (٣) الغرار : حد السيف ونحوه . والوهل : الفزع . (٤) الاجدل : الصقر جمعه أجادل . والمتنصب : المنتصب . (٥) يشير الى لون السفن الذى هو السواد الشبيه بلباس الرهبان والى لون أشرعتها الذى هو البياض .

كَمُلاءَةٍ فى البر يقطع ســيرهـا ... فى البحر أنفاس الرياح الشُّذَّبِ (١)

محفوفــة بمجاذف مصفوفــة ... فى الجانبين دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّبِ (٢)

كقوادم النَّسر المُـرفرِف عُرِّيت ... من كاسيات رياشــه المتهــدّب (٣)

وتَحُثُّهـا أيدى الرجال اذا وَنَتْ ... بمصعّد منــه بعيـــد مصوّب (٤)

خرقاء تذهب ان يدٌ لم تهدها ... فى كل أوْب للرياح ومَـــذْهَب (٥)

جَوفاء تحمـــل كوكبا فى جوفهـا ... يومَ الرهان وتستقل بكَوكب

ولهـا جَنَاحٌ يســتعار يُطيرُهـا ... طوعَ الرياح وراحة المُتَطَــرِّب (٦)

يعـلو بهـا حَدَب العُبَاب مطارةً ... فى كل لج زاخر مُغْــلَولب (٧)

تســـمو بأجْرَدَ فى الهــواء متوّج ... عريانَ منسوج الذؤابة شَوْذَب (٨)

يتركـب الملاح منــه ذُبَابَةً ... لو رام يركبها القطا لم يركب (٩)

فكأنَّمـا رام اســتراقة مَقْــعَد ... للســمع إلا أنه لم يُشْــهَب

وكأنمـا جِنّ ابنِ داود هُـــمُ ... ركبوا جوانبهـا بأعنَفِ مركب

سَجَـرُوا جواحم نارها فتقاذفوا ... منهـا بألسن مارج متلهب (١٠)

من كل مسجور الحريق اذا انبرى ... من سجنه انصلت انصلات الكوكب (١١)

عريانَ يقْــدُمُه الدُّخان كأنه ... صبح يكــر على الظلام الغيهب

---

(١) الشذب : جمع شاذب وهو الذى يطرد و يبعد أي الرياح التى تقذف ما على وجه الأرض وهذا كناية عن الشدة . (٢) الصلب : كسكر مبالغة فى الصلب . (٣) الرياش : اللباس الفاخر والمراد هنا ريش الطائر والمتهدب : ذو الاهداب ونسر أهدب : أى سابغ الريش . (٤) صعد الشىء : رفعه وصوبه : خفضه . (٥) الأوب : الجهة والطريق . (٦) المتطرب : الحادى الذى يتغنى فى سوق الابل والمراد هنا الربان . (٧) حدب الماء : تراكبه فى جريه والمغلولب : الكثير ، يقال : اغلولب القوم اذا كثروا . (٨) الشوذب : الطويل والبيت يصف فيه القرية كهدية وهى العود الطويل الذى يشبك فيه القلع . (٩) ذبابة السيف : طرف حده والمراد طرف القرية . (١٠) سجر : ملأ والجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . (١١) انصلت : مضى وسبق .

ولواحــقٍ مثـــل الأَهــلّة جُنّح لَحَــق(١) المطالب فائتـات المهْرَب
يَذْهبْنَ فيـــما بينهن لطافـة ويجئن فعـل الطائر المُتَغَلّب
كنضانض الحيـات رحن لواعبا حتى يقعن ببرك ماء المِـيزَب
شرجوا جوانبها بمجادف أتعبت شادى الرياح لهـا ولمـا تتعب(٢)
تنصاع من كَثَب كما نفر القطا طـــورا وتجتمع اجتماع الربرب(٣)
والبحــر يجمـــع بينهـا فكأنّه ليـلٌ يقرب عقربا من عقرب
وعـــلى جوانبها أسـود خِـلافة تختـال فى عُدد السـلاح المُرْهَب
فكأنمـا البحر استعار بزيّهـم ثوب الجمال من الرّبيع المُذْهَب

وصف القطـار الحديدى

قال حافظ بك ابراهيم يصف القطار الحديدى من قصيدة :

صفحةُ البرق أوْمضت فى الغمام أم شِهاب يَشُق جَوْف الظلام
أم سَلِيلُ(٤) البخار طار الى القَصـ ـد فأعيـا سـوابق الأوهام
مَرّ كاللمح لم تكد تقف العيـ ـن على ظـــل جِرْمه المُـترامى(٥)
أو كَشَرْخ(٦) الشباب لم يدرِ كاسيـ ـه تولّى فى يقظـة أو منـام
لا يبـالى السُّرى(٧) اذا اعْتكر الليـ ـل وخانت مواقـع الأقـدام
يقطع البيـدَ(٨) والفَيَافِى وحيـدا لم تضعضعه وحشة الإظلام

(١) اللحق : جمع لاحق ، نخدم : جمع خادم . (٢) شرج العيبة : أدخل بعض عراها فى بعض . والمراد هنا شبكوا فى جوانبها المجاذيف . والشادى : السائق . (٣) انصاع القوم : ذهبوا سراعا أو اقتتلوا راجعين . والربرب : القطيع من بقر الوحش . (٤) السليل : الولد . (٥) المترامى : المتتابع . (٦) شرخ الشباب : أوّله . (٧) السرى : سير عامة الليل واعتكر الليل : اشتد سواده . (٨) البيد : جمع بيداء وهى الصحراء . والفيافى : جمع فيفاء وهى المفازة لاماء فيها .

ليس يَثْنِيهِ ما يُذِيبُ دِمَاغ الضَّـ ـبّ يومَ الهَجِير بين المَوَامى (١)
لا ولا يعـتريه مايُخْرِس النَّا بِحَ فى الزمهرير بين الخيـام
هائمـا كالظَّليم (٢) أزعجـه الصيـ ـدُ ورَاعتْـه طائشات السهام
فهو يَشْـتَد فى النَّجاء (٣) ويهوِى حيث ترمى بجـانبيه المَـرَامى
ياحديدا ينساب فوق حـديد كانسياب الرقطاء (٤) فوق الرَّغام
قد مسحتَ البلاد شرقا وغربا بذراعَىْ مُشَـــمِّرٍ مِقْـــدام

وصـــف قنـاة السويس

مقالة لحامل لواءِ البيان فى هذا الزمان، البالغ فى شِقِّ البلاغة ذُروة الإحسان، «أحمد بك شوقى» صاغها مخاطبا ابنَيه حينما عبرَقنَاة السويس مُيَمِّـما الأَنْدَلُس، وقد نفته الأحكام العرفيّة، إبَّانَ الحربِ العالمّية، ووصف فيها القناةَ والبَرِّيّة التى تَشُقها وصفا تاريخيّا جامعاً، استوعب فيه ما لابَس هـذه البَرِّيّة من الحوادث الجِسام، وحشد به من جازها من الرسل الكرام، ومن اخترقها من الفاتحين العظام، ووَشَّاه بالعظات الرائعة، وطرّزه بالحكم الجامعة، ونَمْنَمه (٥) بالتشابيه البارعة، حتى جاء فى سابغ تصويره، وبالغ تعبيره، كَسَبِيبَة الخَيَالة (٦): تؤلف بين الشتائت، وكضوءِ الغزالة (٧): سواء فيه الحاضر والفائت .

---

(١) الموامى: جمع موماة وهى الفلاة، والضب: حيوان من أخص صفاته احتمال الحر الشديد .

(٢) الظليم: ذكر النعام . (٣) النجاء: السرعة .

(٤) الرقطاء: الحية . والرغام: التراب . (٥) نمنم الشىء: زخرفه ورقشه .

(٦) الخيالة والخيال: ما تشبه لك فى اليقظة أو الحلم من صورة، وقد اختيرت للدلالة على معرض الصور المتحركة . والسبيبة: شقة من النسج رقيقة ضيقة طويلة، وقد اخترتها للدلالة على ما تطبع عليه الصور المتحركة (الفلم) ورغبت عن كلمة شريط لأن معناها اللغوى لا يمت الى المعنى الجديد .

(٧) الغزالة: الشمس .

قال : تلك يا ابنيّ القناة، لقومكما فيها حياة، ذِكْرَى اسمـاعيل وريّاه (١)، وعليها مفاخر دُنْياه . دولة الشرق المُرَجّاة، وسلطانه الواسع الجاه . طريق التجارة، والوسيلة والمنارة، ومَشْرع (٢) الحضارة . تعبُرانها اليوم على مُزْجاة (٣)، كأنها فُلْك النجاة . خرجت بنا بين طوفان الحوادث، وطغيان الكوارث، تفارق برًّا مُغْتصبه مُضَرِيُّ (٤) الغضبة، قد أخذ الأُهبة، واستجمع كالأسد للوثبـة، وتلاقي بحرًا جُنَّت جواريه، ونزت (٥) بالشر نوازيه، وتمثلت بكل سـبيل عواديه . مملوء ببغتات المـاء، مترع بفجاءات السماء : من نون (٦) ينسف الدوارع، أو طير (٧) يقذف البيض مَصَارِعَ . فقلت : سيري؛ عَوّذتك بوديعـة التابوت (٨)، وبصاحب الحوت (٩)، وبالحيّ الذي لا يموت . واسْرِي يا ابنة اليمّ، زمامك الرّوح (١٠)، ورُبّانك (١١) نوح، فكم عليك من منكوب ومجروح .

إنَّ للنّفي لَرَوْعةً، وإن للنأي للَوْعة، وقد جرت أحكامُ القضاء، بأن نعبر هـذا المـاء، حين الشرُّ مضطرِم، والبأس مُحتدِم، والعدوُّ منتقم، والخصم محتكِم، وحين الشامتُ جذلان مبتسم، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم (١٢) ... ...

ماذا تَهِمسان ؟ كأنّي أسمعكما تقولان : أيّ شيء بدا له، على هذه الضاحية (١٣) ؟ وماذا شجا خيالهَ، من هذه الناحية؟ وأيّ حسن أو طيب، لملح يتصبّب في كَثيب؟

(١) الريا : الرائحة الطيبة . (٢) المشرع : المورد . (٣) زجاه وأزجاه : ساقه وسيره .
(٤) مضر : جذم ضخم من أجذام العرب المستعربة . وهذا التعبير مأخوذ من قول بشار :

اذا ما غضبنا غضـبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

(٥) النزو : الوثب . والنازية : حدة الرجل الوثاب الى الشر . وجمعها : نواز .
(٦) النون : الحوت والمراد النسافة . (٧) يريد بالطير الطيارات، وبالبيض ما يلق منها من مهلكات القذائف . (٨) هو موسى كليم الله . (٩) هو نبي الله يونس . (١٠) جبريل .
(١١) الربان : رئيس الملاحين . وجمعه ربابين . (١٢) انسجم الدمع : سال . (١٣) الضاحية : البادية وكل أرض بارزة للشمس .

ماء عكِر(١)، في رمل كَدِر . قناة حَمِئَـة(١)، كأنّها قناة صَـدِئة؛ بل كأنها وعِبريها(٢) رمال، بعضها مُتماسك وبعضها مُنهال. وكأن راكبَ البحر مُصحِر(٣) وكأن صاحبَ البر مُبحِر.

رُوَيدَكما(٤)، ليس الكتاب بزينة جلده، وليس السيف بحلية غِمده. تلك التنائف(٤)، من تاريخكم صحائف . وهذه القفار، كتب منه وأسفار . وهــذا المجاز هو حقيقة السيادة، ووثيقة الشقاء أو السـعادة . خيط الرقبة، من اغتصبه، اختص بالغَلَبة، ووقف للأعقاب عَقَبة . ولو سكتُّ لنطقت العِبر؛ وأين العِيان وأين الخبر!

انظُرا تريا على العَبرين عِبرةَ الأيام، حصونَ وخيام، وجنود قعود وقيام . جيش غيرنا فُرسانُه وقُوّاده، ونحن بُعرانه(٥) وعلينا أزواده(٦). ديك على غير جِداره، خَلا له الجو فصاح، وكلب في غير داره : انفرد وراء الدار بالنُّباح .

القناة وما أدراكما ما القناة ؟ حظ البلاد الأغبر، من التقاء الأبيض والأحمر . بَيْدَ أنّها أحلامُ الأُوَل، وأمانيّ الممالك والدول : الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها(٧)، والقياصرة تناولوها ، والعـرب لأمرٍ مّا تجاهلوها(٨)؛ الى أن جرى القدَر لغايته، وأتى إسماعيل بآيته، فانفتح البرزخ بعنايته، والتقى البحران تحت رايته؛ في جمع من التيجان، لم يشهده إكليله(٩). قد كان يتوّج لو شَهِدتْه جيوشـه وأساطيله . وما إسماعيل إلا قيصر، لو أنه وُفِّق، والإسكندر، لو لم يُخْفِق . ترك لكم عِزَّ الغـد، وكنز الأبد، والمَنجم الأحد، والوقف الذي ان فات الوالد فلن يفوت الولد .

---

(١) الحمئة : التي فيها الحمأة أي الطين الأسود المنتن . (٢) عبر النهر : شاطئه . (٣) أصحر : سار في الصحراء . (٤) التنائف : جمع تنوفة وهي المفازة . (٥) البعران : جمع بعير كالأبعرة . (٦) الأزواد والأزودة : جمع زاد وهو الطعام . (٧) زاول الشيء : حاوله . (٨) يروى أن هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة وانه استشار يحيى بن خالد البرمكي في ذلك فقال له : يا أمير المؤمنين «إن خرق السويس خرق في الاسلام» فعدل عن رأيه . (٩) الاكليل : التاج .

ماذا على الرمال، من لمحات جلال وجمال؟ ارجعا القهقرى بالخيال، إلى العصر الخال، واعرضا فى حداثتها الأجيال، تريا على هذا المكان وجوها تمثّل، وركابا تنتقّل، وتريا النُّبُوَّة تتهلّل، والآيات تتنزّل، وتريا الملك يترجّل، حتى كأنكما بالزمان الأوّل. فهاهنا وضع للنبوّة المهد، وابتدأ بها العهد، فاقبل صاحبُ المقام [1]، ومحطّم الأصنام، وبنّاء البيت الحرام، خليل ذى الجلال والإكرام. هاجر إلى مصر أكرم من هاجر، ثم انقلب منها بأم العرب هاجر [2].

ومن هذه الثنيّات طلع يوسُف يرسف فى القيد، وهو للسيارة صيد، يسير من كيد الى كيد. قلب جرّحته الإخوة، وجنب قرّحته النسوة. فيالك «يوسف» من أسوة [3]! عز بعد هون، ودولة بعد المنزل الدون، وشئون أقدار وشجون، وسهول حياة وحزون، وسجوف القصور بعد السجون، الى سجود الشمس لك والقمر، والكواكب الأُخَر.

والى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَوِيلُه [4]، وطلبه قتيله [5]، وزيّن له الفرار خليله، فحوته هذه الرمال. فاذا الأمن سبيله، واليُمن دليله، والسلامه زاملته [6] والسلم زميله. ولو أطلعه الله على غيبه، للمس النبوّة بين يده وجيبه؛ الى أن رفع له المنار، واكتحل

(١) هو خليل الله ابراهيم. (٢) هى جارية مصرية أهداها فرعون الى السيدة سارة زوج سيدنا ابراهيم فوهبتها له فاستولدها اسماعيل جد العرب المستعربة. (٣) الأسوة: القدوة وما يتأسى به الحزين أى يتعزى. (٤) زال زويله: فزع وحذر. (٥) يشير الى ما كان من أمر موسى حين وجد قبطيا واسرائيليا يقتتلان فاستنصره الاسرائيلى على القبطى فوكزه وكزة كانت القاضية فلما أصبح وجد الاسرائيلى نفسه يقاتل قبطيا آخر فاستغاثه فقال له موسى انك لغوى مبين. ثم هم بنصرته على القبطى فظن أنه يريده بالأذى فصاح الاسرائيلى يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس، فذاع أمره ولم يلبث أن جاءه رجل وقال له: ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين. فخرج الى بلاد مدين. (٦) الزاملة: ما يحمل عليه من الإبل وغيرها.

بالنور واقتبس من النار، وقيل له: كن من الأحرار الأحبار، وارجع فسلّط الحق على فرعون الجبار. فكان عليــه السلام أوّل من اقتحم على الفرد جبروته، وهتك على المســتبدّ طاغوته [1]، وخطّم [2] المتألّه [3] وحطّم عظموته، ماء الحق على لطفه، ظفر بنار الباطل على عنفه، ظهر العدل على الحيف، وكسرت العصا السيف.

وعلى هذه الأرض مشت السماء الطاهرة [4]، والنيّرة الزاهرة، والآية المتظاهرة، أم الكلمة [5]، وطريدة الظلمة. سرحوا فى عرضها، فأخرجوها من أرضها، فضربت فى طول الأرض وعرضها؛ يوسف حاديها، وجبريل هاديها، والقُـدْس ناديها، والطهارة أرجاء واديها، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة، وجناح الرحمة، والإصباح من الظلمة، حتى هبطت به أكرم الأديم [6]، فنشأ بين الحكيم والعليم، وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم. فيالك من دار، لعبت على عرصاتها الأقدار! ناويت [7] موسى القريب، وآويت عيسى الغريب. نبوت [8] بالنبىّ، وحبوت الأمن عيسى وهو صبىّ. عذرك لا تنضى [9] اليه المطىّ، فانما غضبت لابنك القبطىّ.

ثم انظرا ترَيا إبلا صعابا، وخيلا عِرابا [10]، وتريا الرعاة [11] انقضّوا على الوادى ذئابا، فأخافوا القُرى الآمنة، وأخرجوا من مصر الفراعنة، واستبدّوا بالملك فيها آونة؛ وتريا الوحوش الضارية والجوارح الكاسرة، يقودها شرّ الأكاسرة [12]، ملأت هذه الفجاج [13]، وكأنها حرجات الساج [14]، أو حركات الأمواج؛ ثم تدفّقت تكتسح الديار، باغية السيف

(١) الطاغوت: الشيطان وكل رأس ضلال. (٢) خطمه: قهره أو ضرب أنفه. (٣) أراد بالمتأله المتكبر غير أن معناها اللغوى المتنسك المتعبد. (٤) يريد السيدة مريم. (٥) الكلمة سيدنا عيسى. (٦) الأديم: وجه الأرض. (٧) ناوأه وناواه: عاداه. (٨) نبا به المكان: لم يوافقه. (٩) أنضى المطية: هزلها. (١٠) العراب من الخيل والابل: العربية. (١١) هم العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر. (١٢) قمبيز. (١٣) الفجاج: الطرق الواسعة. (١٤) الحرجة: الشجر الملتف. والساج: شجر يعظم جدا ويذهب طولا وعرضا وله ورق عريض جدا.

طاغيةَ النار ، تدك الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل . وتَرَيا الإسكندر الكريم ، قد لمع كالصارم من هذا الصَّرِيم(١) ، يحمل الحَمَلات النّجائب ، ويفتح بالكُتُب والكتائب .

وتَرَيا ابن العاص والصَّحابة ، مرُّوا من هـذه الأرجاء مَرّ السحابة ؛ يفتحون للحق ، ويفتكون بالرّق ، حتّى أخلَوا القصور من القياصرة ، وأراحوا مصر الصابرة ، من صَلَف الجَبابرة . وتَرَيا صلاح الدين يخفى كالبدر ويبدو ، ويروح كالغَيث ويغْدو ، يُعوث بلا عَدَد ، ومَدد إثر مدد ، وذخائر وعُدَد ، وبُشْرى كل يوم بفتوح جدد .

وتَرَيا نابليون قد ركب طيشه ، وأركب الغَرَر(٢) جيشه . وتَرَيا ابراهيم بن علىّ مشهور الجُراز(٣) ، موفور الجهاز ، ملك سُورِيَةَ وضبط الحجاز . وتَرَيا اسماعيل بعث الحاشرين ، وحشد الحافرين ، وقرّب المسافة للسافرين . غَيّر وجه السفر ، فقيـل : بلغ غاية الظفر ، وقيل : وقع الحافر فيما حفر .

ثم انظرا اليوم ، تريا القناة(٤) فى يد القوم ؛ إن أَمِنُوا ركزوها ، وان خافوا هزّوها .

وصف البحـــر والسفينة

ثم الهلال ثم النجوم ثم منظر أوربا للقادم عليها ثم القطار الحديدى ثم مدينة القسطنطينية وخليجها ثم مسجد أياصوفيا ثم متنزه البندلر ثم سيدين من سادات القسطنطينية (للسيد توفيق البكرى) .

قال : نَهَضْتُ من القاهرة المِعِزّية ، قاصدا القسطنطينية ، وهى بلدُ الامام ، ومدينـة السلام ، ودار خلافة الاسلام ؛ فركبت سفينة عَدَوْلِية(٥) ، الى الثغور الفرنجية

(١) الصريم : الرمل . (٢) الغرر : الخطر . (٣) الجراز : السيف البتار . (٤) فى القناة تورية بارعة . (٥) العدولية : المنسوبة الى عدولى وهى بلدة بالبحرين ، قال طرفة يصف السفينة :

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى

تجرى بنا الفلك فى خضم عجّاج(١)، ملتطم الأمواج، أخضر الجلد، كأنه إفرند(٢)، بحر عُباب(٣)، لا يقطعه الخليل بأوتاد وأسباب(٤)، تصطخب فيه النينان(٥)، وتضطرب الدعاميص والحيتان؛ وأخذت السفينة تشق اليم، شق الجلم(٦)، فى ريح رخاء، أو زعزع ونكباء(٧). فهى تارة فى طريق معبّد، وميّث مطّرد؛ وطوراً فوق حزن وقردد(٨)، وصرح ممرد. فبينما هى تنساب كالحُباب، اذا هى تلحق بالرّباب(٩)، وتحلّق كالعقاب. فتحسبها تارة تحت القتام(١٠)، جبلا تقشع عنه الغمام. وتخالها مرة عائما على شفى(١١)، قد غاب الاهامة أو كتفا. والبحر آونة كالزجاج النّدىّ أو السيف الصّدىّ؛ يلوح كالصفيحة المدحوّة(١٢)، أو المرآة المجلوّة. وحينا يضرب زخّاره(١٣)، و يموج موّاره. فكأنما سيّرت الجبال وكأنما ترى قبابا فوق أفيال، وكأن قبورا فى اليم تحفر، وألوية(١٤) عليه تنشر. وكأن العِدّ(١٥)، يُمخض عن زبد. وكأن الدّوىّ(١٦)، من جرجرة الآذىّ، زئير الأسد، وهزيم الرعد.

يكب الخليسة ذات القلا ع وقد كاد جؤجؤها يحطم

---

(١) العجاج: المصوت. (٢) الافرند: السيف. (٣) العباب: ما تدفق من الماء.

(٤) الخليل هو الخليل بن أحمد امام النحو واللغة ومستنبط علم العروض الذى به تعرف أوزان الشعر العربى. والوتد ثلاثة أحرف آخرها ساكن مثل على أو وسطها ساكن مثل منذ والسبب حرفان ثانيهما ساكن مثل قد أو كلاهما متحرك مثل بم ومن الأسباب والأوتاد تتركب أوزان الشعر. (٥) الاصطخاب: اختلاط الأصوات. والنينان: جمع نون وهو الحوت. والدعاميص: جمع دعموص وهو دويبة من دواب الماء. (٦) الجلم: ما تجز به الغنم. (٧) الرخاء من الريح: اللينة. والزعزع: الشديدة والنكباء: التى تجئ من غير الجهات الأصلية. (٨) المعبد: الممهد والميث: اللين والمطرد: الممتد والحزن: الأرض الغليظة. والقردد: الأرض المرتفعة والمرد: الملس. (٩) الحباب: الثعبان والرباب: السحاب. (١٠) القتام: الغبار. (١١) شفى كل شىء: حرفه يقول: على شفى الغرق أو نحو ذلك فحذف المضاف اليه وأو بمعنى الواو أى وكتفا. (١٢) المدحوة: المبسوطة.

(١٣) الزاخر والزخار: الطامى. (١٤) الألوية: جمع لواء وهو العلم. (١٥) العد: الماء الذى له مادة لا تنقطع. مخض اللبن: حركه شديدا لاستخراج زبده. (١٦) الدوى: حفيف الريح ونحوه وفعله دوى بالتشديد. أصل الجرجرة: الصوت يردده البعير فى حلقه. والآذى: الموج. وهزيم الرعد: صوته.

فاذا كانَ الأصيل ، وسرى النسيم العليل ، رأيت البحر كأنه مِبرَد ، أو درع مسرّد ، أو أنّهُ مَاوِيّةٌ (١) ، تنظر السماء فيها وجهها بكرة وعشية . وكأنما كُسِّر فيه الحُلِيّ أو مُزِج بالرَّحيق القُطْرُبُلِّيّ (٢) . وكأنما هو قلائد العِقْيان (٣) ، أو زجاجة المصوِّر يؤلف عليها الأصباغ والألوان . حتى اذا أخْضَل (٤) الليـل ، وأرخى الذيل ، بدا الهلال كأنه خَنْجَر من ضِياء ، يشُقّ الظلماء ، أو قِلادة ، أو سِوار غَادَة ، أو سِنان لواه الضِّرَاب ، أو الليل فِيل وهو ناب ، أو عُرجون (٥) قديم ، أو نون من خط ابن العديم (٦) ، أو بُرْثُن ضيغم ، أو مِخْلَب قَشْعَم ، أو ماء خرج من أنْبُوبٍ في روض ، أو ثَمَدٌ (٧) في أسفل حوض ، أو وَشْيٌ مرقوم ، أو دُمْلَج (٨) من فضة مَفْصُوم ، أو قُلَامة ظُفْر ، أو صِنَار (٩) في شبك في بحر .

أيا ضوء الهلال لطُفْتَ جدا كأنّك في فم الدنيـا ابتسام

ثم اذا غاب الهلال ، وتوارى في الحِجَال ، ألفيت الكون من السواد ، في لَبُوس حديد ، أو لباس حِداد (١٠) . وكأنما المـاءُ سَماء ، وكأن السماء ماء . وكأن النجوم دُر ، يموج في بحر ، أو ثقوب في قُبّـة الدَّيجُور (١١) ، يلوح منها النور ، أو سِـكَاك (١٢) دِلاص ، أو فِلَق رَصَاص ، أو عيون جَراد ، أو جَمْر في رَماد ، أو المـاء صفائح فضة بيضاء ، سُمِّرت بمسامير صغار ، من نُضار . فلا تفتأ السفينة تكابد الويل ، من البحر والليل ؛

(١) كبه : قلبه كأكبه والخلية : السفينة العظيمة . والجؤجؤ : الصدر والمسرد من الدروع : ما تداخل حلقه بعضــه فى بعض والمـاوية : المرآة . (٢) قطربل : موضع بالعراق ينسب اليه الشراب . (٣) العقيان : الذهب . (٤) أخضل : أظلم . (٥) العرجون : أصل كباسة ثمر النخل . (٦) ابن العديم هو كمال الدين بن أحمد توفى سنة ٦٦٦ وهو امام من أئمة الخط . (٧) الثمد : الماء القليل . (٨) الدملج : حلية تلبس فى العضد . (٩) الصنار و بالهاء : الحديدة المعقفة التى فى رأس المغزل ثم استعيرت للحديدة المعقفة التى يصاد بها السمك . (١٠) الحجال : جمع حجلة وهى ستر نحو ما نسميه الناموسية . واللبُوس كاللباس . (١١) الديجور : الظلام . (١٢) السكاك : جمع سك وهو المسمار . والدلاص : الدرع الملساء اللينة . والفلق : جمع فلقة وهى القطعة .

حتى يلوحَ من الأُفُق الضيــاء، كابتسام الشفة اللَّمياء (١) . فاذا السفينةُ كأنها سر كتمه الظلام، وكشفه الضِّرام (٢) .

وبعــد ثلاثة أيام وكسر، قضيناها فى البحر، وصــلنا الى أوربا . فاذا أرضٌ أرِيضة (٣)، وبلاد عريضة، وجنة وحرير، وملك كبير .

كَبُرتْ حول ديارهم لما بَدَت منها الشموسُ وليس فيها المشرق

ولا والله ما الفرخ نُقِل من الغِرْقِئ الى اللُّوح، ولا من كان فى غَبَش فبدت له يُوح، ولا بدوىٌّ طرق احدى الليالى، قرية بكر بن عاصم الهلالى، بأحيَرَ منى نظرا، وأدهش مما رأيت فِكرا (٤) .

ثم بعد بُرهة من الزمن، نهضنا للظَّعَن، ورحلنا الى القسطنطينيّة، فركبنا اليها (وابور البر) فى ليلة عَرِيَّة (٥)، فَسَرَى بنا وكأنه ثعبان، له عينان تَقِدَان، ينساب فى القِيعان، ويلتوى على الرِّعان (٦)، أو أنه مبتدأٌ متعددُ الأخبار، أو كَلِمٌ مجرورة بحرف جار، أو أنه بيت ذو تقطيــع، من البحر السريع، فتارة وعْل على الجبال، وأخرى جدول بين الأدْغال (٧) . وآونة ينطلق كالجواد، ومرة يَثِب كالجَراد . وقد يدور فى الصعيد، كخُذْروف الوليد (٨) . ان ارتقى فدعوة المظلوم، أو انحط فروح الظلوم .

(١) اللمياء : السمراء . (٢) الضرام : اشتعال النار فى نحو الحلفاء والمراد به النور .

(٣) الأريضة : الزكية المعجبة للعين الخليقة للخير . (٤) الغرقئ كزبرج : القشرة الملتصقة ببياض البيض . واللوح : الهواء، والغبش : ظلمة آخر الليلة . ويوح : الشمس . أما البدوى فخبره طويل تجده فى الجزء الثانى من العقد الفريد فى كلام الأعراب . وخلاصته أنه شاهد فى تلك القرية أشياء لم يكن رآها فدهش منها . (٥) العرية : الباردة وهى من صفات الريح وصف بها الليلة توسعا .

(٦) القيعان : جمع قاع وهو ما انخفض من الأرض . والرعان : جمع رعن وهو مقدم الجبل .

(٧) الوعل : تيس الجبل والأدغال : جمع دغل وهو الشجر الكثير الملتف . (٨) الصعيد : التراب . والخذروف : هنة يدورها الصبى بخيط فى يده فيسمع لها دوى .

هَزِج يحـــك ذِراعه بذراعـه (فعل) المكب على الزناد الاجذم (١)

أسرى فى الليال، من طيف الخيال، وأمضى فى الذهاب، من العُقَاب (وترى الجبال تحسَبها جامدةَ وهى تمر مر السحاب) (٢) كأنه غُراب البَيْن، ان نَعَب ففُرْقة بين اثنين . راحلة لا ترعى الشِّيح والسَّعدان، ولا تسير الذَّميل والوَخَدَان، ولا ترد عين أُثَال، ولا تعقرها الرِّحال (٣) . فما زال يطوى المنازل طَىّ السّجل، بين ارتحال وحل، الى ان وصلنا دار السعادة، وألقينا بها عصا الوفادة .

فما تَبَالَة مُخْصِبًا أهضَامُها، ولا بَابل معلَّقةً آجامها (٤)، ولا دِمَشْق فى ملك الوليد، ولا بغداد فى زمن الرشيد، بأضخم رُفَهْنِيَةً وحضارة، وأَرْوَع زِبْرِجا (٥) وشَارة . بُرٌّ حُوٌّ تِلَاعه، خُضْر آكامه وأجراعه (٦)، مُعْشِب مَحَاجِره (٧)، منبثق بالمياه مَفَاجِره . يشقه خليج كأنه سيف مسلول، أو سَجَنْجَلٍ (٨) مصقول . وعلى شاطئيه قُرًى ودَسَاكِر (٩)، ورَسَاتيق (١٠) ملاحٍ ومَقَاصر، وقصور بيض على الخضراء، كالنجوم فى السماء، أو أشرعة فُلْك فى ماء .

فى قباب حول دَسْكَرة حولها الزيتون قد ينع (١١)

---

(١) البيت لعنترة يقوله فى وصف الذباب، والهزج : المتراكب الصوت والاجذم : المقطوع اليدين .

(٢) اقتباس الآية القرآنية هنا ناب عن موضعه فان راكب القطار يرى الجبال سائرة مع أنها ثابتة .

(٣) الشيح والسعدان نبتان ترعاهما الابل . والذميل والوخدان ضربان من سيرها . وعين أثال ماء ببلاد العرب وتعقرها : تجرحها . (٤) تبالة : بلد خصيب باليمن والاهضام : بطون الاودية جمع هضم . والآجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف . وبابل : مدينة قديمة كانت بالعراق ويقال انه كان بها بساتين معلقة فوق أبنية . (٥) الرفهنية : الرفاهية والزبرج : الزينة . والشارة : الهيئة .

(٦) الحو : جمع أحوى وهو الشديد الخضرة والتلعة : ما انخفض من الارض . والجرعة : الرملة الطيبة وجمعه أجراع . (٧) المحجر كمجلس ومنبر : الحديقة . (٨) السجنجل : المرآة .

(٩) الدسكرة : بناء على هيئة القصر فيـه منازل و بيوت للخدم والحشم . (١٠) الرستاق : بيوت مجتمعة . والمقاصر : جمع مقصورة وهى الدار الواسعة المحصنة . (١١) ينع الثمر : حان قطافه .

وكان كُل شاطئ منهما قد انتهت المحاسن اليه ، فلا يُفَضَّــل أحدهما على الآخر إلا لكونه يُظِلُّ عليه . فاذا رأيت ثَمّ رأيت حين دُلُوك[1] الشمس ، وقد شَعْشَع[2] نورُها كل بناءٍ وغَرْس ، وقد عُكِس فى المـاء ، صورُ ما يُحيط به من الأشـياء ، أبصرت فى المـاء قبابًا من ذهب ، وأهِلّةً من لهب ، وكُثبانا من زُمُرُّد ، ووديانا من زَبَرْجَد ، وجبالا وأيْفاعا[3] ، وحُصُونا وقِلاعا ، وسِدْرا ودُلّاعا[4] ، وسُقُوفا من جوهر ، وعَمَدا من مرمر ، وصَرْحًا من قوارِير ، وتماثيل وتصاوير ، ودورا وحُورا ، ونارا ونورا ، وحُلَلا تُطْوي وتُنْشر ، وسيوفا تُغْمد وتُشْهر ، واقمارا تصاغ وتكسر . فكأنمــا تقرأ فى البر ، قصيدة من شعر ، وتنظر فى البحر فانُوسا[5] من سحر .

أما المدينة العتيقة ، فتلوح كأنها جبل ذو طول وعرض ، أو غمام مُطبِق على الأرض . وكأن مآذنها أجَمَة[6] من القَصَب والأسل ، بأعلى الجبل . فان دخلتها وجدتها واسـعة الرُّقْعة ، جيدة البُقعة ، ورأيت اختـلافا فى البقاع ، وتباينا فى الأوضاع . اذ ترى القصر ذا الشُّرفات من سِنْداد[7] ، والجَوْسق كأنه إرَمُ ذات العماد[8] ، بينهما دور كخافقاء اليَرْبوع ، أو الاطلال البالية فى الربوع . ويتخلل المدينة طرق بعضها كأفاريز[9] البساتين ، والبعض كرءوس الشياطين[10] . وفيها أسواق كل سوق أضيق من مِحَاظ[11] ،

(١) الدلوك : ميل الشمس للغروب . (٢) شعشع : أضاء . (٣) الايفاع : جمع يفع وهو التل . (٤) الدلاع : ضرب من محار البحر .

(٥) أصل الفانوس : النمام ثم استعمل فيما توضع فيه الشمعة من زجاج ثم توسع فيه . (٦) الأجمة : الشجر الكثير الملتف . والأسل : شجر . (٧) هو قصر بالعذيب بالقرب من الكوفة . (٨) الجوسق : القصر وأما قوله كانه إرم ذات العماد فقد جرى فيه على ما يذهب اليه القصاصون من أن إرم مدينــة عجيبة مبنية بالذهب والأحجار الكريمة وما هذا الا حديث خرافة وما إرم ذات العماد إلا قبيلة عاد .

(٩) الأفاريز : جمع افريز وهو طنف الحائط الذى هو نتوء ينشأ فيه أو شوك ليمنع تسلقه . يريد أن بعض هذه الطرق يشبه الطرق فى البساتين لوعورة مسالكه . (١٠) هذا التشبيه مثل قول امرئ القيس : كانياب أغوال فى أنه تشبيه بالمتوهم . (١١) المحاظ : ما دار بالعين من العظم .

وأحْفَل من عُكَاظ، لا تزال تَفْهَق بطُرَف الهند، ومُلَح فارس والسِّند، وتُحَف فرنجة والتُّرْكان (١). وافلاذ البحرين وعمان.

وقد يخال من يَجُوز فيها، ويتقلَّب فى نواحيها، أنه فى دنيا صغيرة، لا فى بلدة كبيرة، فثَمَّ عربى وعَجَمىّ، وروى وكُرْدى، وطماطمة (٢) صُفْر، وصقالبة حمر، والعمامة والسرْبُوش، والقُبَّعَة والكنبوش (٣)، ولسان التُّرْكان، وفصاحة قَحْطَان (٤)، ورِطَانة (٥) الزُّط والسودان، وسنّة وشيعة، ونَصْرَانَةٌ ويهودية، وجنـد مشاة وركبان، كأنهم فى يوم المهرجان.

رجال يعـد الفرد منهـم بجَحْفَلٍ	كما صرف الدينار كُثْر الدارهم
فما تَصِف المرآة يوما وجوههم	ولكن صفاح المُرْهَفَاتِ الصوارم (٦)

ومشيخةٌ حلَبُوا الزمان شَطْرًا عن شَطْر (٧)، كأن الشيب عليهم غُبَار وقائع الدهر. وشباب فى أَوَاق (٨) الصِّبا والتصاب، ورقة الحضر وفِطْنـة الاعراب. وبينما ترى المدينة من هؤلاء كقرية من قُرى النَّمل، بين الضحى والطِّفْل (٩)، اذا هى فى الليـل خالية، على عُروشها (١٠) خاوِية، لا جَرْس (١١)، ولا ترجيع حسّ، الأقرع الحارس بالقضيب، ونُبَاح الكَليب (١٢).

(١) الأفلاذ : الذهب والفضة وافلاذ الأرض كنوزها . (٢) الطماطمة : جمع طمطم وهو الأعجمى . (٣) القبعة كقبرة : خرقة كالبرنس والكنبوش والسربوش كلمتان تركيتان . (٤) قحطان جد العرب المتعربة وهم أهل اليمن . (٥) الرطانة : الكلام بالأعجمية والزط : جيل من الهند . (٦) البيتان للسيد توفيق . والمرهفات : السيوف . (٧) الشطر : النصف ولكل ضرع شطران، وعن بمعنى بعد والمعنى حنكتهم التجارب . (٨) الأواق : الجنون ونحوه من الترف والمرح . (٩) الطفل كبثر : الليل، وبحبل : ماقبيل الغروب . (١٠) العروش : السقوف والخاوية على عروشها : المتهدمة الساقطة على سقوفها وهو غير المراد بل المراد أنها لسكونها كأنه ليس بها أحد، فلو زاد قبل على عروشها (كأنها) لكان خيرا له . (١١) الجرس : الصوت . (١٢) الكليب : جماعة الكلاب.

وفى القسطنطينية اليوم محال، تشدّ اليها الرحال، وتضرب بها الأمثال .

فمن ذلك ايا صُوفيَه[١]، وما أدراك ماهيه، مسجد كانه هَيْكَل لجبـل قد طرح تُرْبه ورِضَامُه[٢]، ورُكِّبَت أحجاره وعظامه . قبة جَوْفاء، كانها قبة السماء، فان أُوقدتْ رأيت بهـا الكواكب غير سائرة، والافلاك غير دائرة . ودعائم كل دِعامة، كالحق استقامة . وأرض من مرمر أَلَّاق[٣]، وحجر بَرَّاق، يصف ما يحيط به من الأشـياء، فكأنه وجه مرآة وَضَّاء[٤] . وكأنمـا تلتمع السيوف، فى تلك السقوف . ويكاد يُرَى القمر، فى ماء ذلك الحجـر . الى محاريب[٥] وحنايا، وخبايا وزوايا، كأنها ممـا صنع الجن لسليمان، بالصُّفَّاح والصُّفْوان[٦] . فان دخلتها فى العِشاء الآخرة، أبصرت الشموع صِنْوانًا وغير صِنوان[٧]، كأنها رماح وفى كل رمح سِنان . وكأن أقْبَاسها نَضْنَضَة[٨] الحيات، أو إشارة السَّبَّابة فى التحيات . ورأيت الناس بين رُكَّع وسُجَّد، وايقاظ وهُجَّـد[٩] . شِيبٌ ما زالوا يَغْسِلون بالوضوء السواد، حتى مُحِي مَحْو المِداد، وشَبَاب، قيامٌ للصلاة كَسَطْر فى كتاب، والكل يجأرون بدعوة الاسلام، تحت أستار الظلام .

وكم على سِيف[١٠] الخليج، من روض وَثِيج[١١]، ومرأًى بهيج، ورَسَاتيق ورِعان، وخُلُج وغُدْران . فكأنما هذا المكان، شِعْب بَوَّان، أو روض من رياض الجِنان .

---

(١) هذا المسجد كان كنيسة شادها قسطنطين سنة ٣٢٥ م ثم احترقت سنة ٥٣٢ م فجددها أحد القياصرة وأضافها الى القديسة صوفيا ثم جعلها السلطان محمد الفاتح مسجدا . (٢) الرضام : الصخور العظيمة . (٣) الألاق : اللـاع . (٤) الوضاء : الحسن النظيف . (٥) المحاريب : جمع محراب وهو الغرفة وصدر البيت وأكرم مواضعه ومقام الامام من المسجد والموضع ينفرد به الملك من الناس، والحنايا : جمع حنيـة وهى القوس . (٦) الصفاح : الحجارة العريضة الرقيقة كالصفائح . والصفوان واحده صفوانة وهى الحجر الصلد الضخم . (٧) الصنوان : القرينتان فأكثر من الشجر وقد استعارة للشموع المجتمعة . (٨) النضنضة : تحريك الحية لسانها (٩) الهجد : النائمون . (١٠) السيف : ساحل البحر أو الوادى . (١١) الوثيج : ذو الشجر الكثير الملتف .

ومن أبهر ما يُجْلَى للنظر، مُتَـنَزَّه «البَنْدِلَر»[(١)] . وهو رياض فى رياض، وبساتين فى حياض . ووهاد وانجاد، ونِجاف[(٢)] واسْـناد، وأطيار تَصْـدح، وأمواه تَنْضَح، وأعطار تَنْفَح[(٣)]، وكأنما فى كل ناحية لوح مُصوَّر، أو برد مُحـبَّر[(٤)]، أو طِرْز على خَزّ، أو وَشْي على قَـزّ[(٥)]، أو فُسَيْفِساء[(٦)] مفروشة، أو دنانير منقوشة .

بنفسى تلك الأرضُ ما أطيب الرُّبَا وما أحسن المُصْطَاف والمُتَربَّعا[(٧)]

وقد حَفَّ الشجر الدَّوَّاح[(٨)]، بتلك البِطاح، فمن شُوع ودَرْماء[(٩)]، وخِلاف وطَحْياء[(١٠)]، وريحـان نَضْر، وعَيْـدانة مُرْجَحِنَّة[(١١)] من سِدر . وقد تلاحقت غصونها، وتعرَّشت خِيطانها[(١٢)] وفنونها، وخَضَب بينها العَرْفَج[(١٣)]، وأزهر الياسمين والبَنَفْسَج . فكأن تحت كل عرش إيوانا[(١٤)]، وفوق كل فَرش ديوانا . وفى كل تُرْب جُونَةُ عَطَّار، أو مِسْك بين افهار[(١٥)] . وقد علقت الطير بهذا الشجر، كأنها ثمر: من فَواخت وقُطَامِىّ، وحبارى وقَمَارِىّ[(١٦)]، وكأن كل وَرْقاء على عود، حسناء فى يدها عود، تُرَجِّع من كتاب الأغانى،

(١) البندلر: كلمة تركية معناها السدود وذلك المتنزه بجوار سدود . (٢) النجاف: جمع نجف وهو مكان منقاد فى بطن الوادى لا يعلوه ماء . والاسناد: جمع سند وهو ماقابل الانسان من الجبل وعلا .

(٣) صدح: رفع صوته بغناء ونضح: سال . ونفح: ناح . (٤) المحبر: المزين المحسن .

(٥) الطرز: الشكل والخز: ثياب من الصوف والحرير، والوشى: نقش الثوب، والقز: الحرير .

(٦) الفسيفساء: ألوان من الخرز تركب فى حيطان البيوت من الداخل . (٧) المصطاف: مكان الاصطياف والمتربع: مكان التربع أى قضاء وقت الربيع . (٨) الدواح: العظيم الشديد العلو .

(٩) الشوع: البان والدرماء: نبات أحمر الورق . (١٠) الخلاف: الصفصاف أو ضرب منه والطحياء: نبت قيل إنه النجيل . (١١) العيدانة: أطول ما يكون من الشجر والمرجحنة: المائلة المهتزة . (١٢) عرش: أنشأ عريشا وهو مايستظل به ولم نعثر على تعرش المطاوع له فالأولى أن يقال وعرشت . والخيطان: جمع خوط وهو الغصن الناعم . (١٣) العرفج: شجر سهلى .

(١٤) الايوان: الصفة العظيمة . (١٥) الجونة: وعاء العطار يحفظ فيه الطيب . والافهار: جمع فهر وهو الحجر يدق به . (١٦) الفواخت: جمع فاختة وهى ضرب من الحمام المطوق . والقطامى: الصقر والحبارى: طائر (للذكر والأنثى والواحد والجمع) .

ضروب الخفيف الأول والثقيل الثانى[١]، وتفوق فى الغناء، أصوات مَعْبَد والمَيْلاء، وألحان عِنان والزَّلْفاء[٢]. وقد شُهر روض (البَنْدِلر) بمائه، فى عذوبته وصفائه؛ فلا يفتأ يتحدَّر، كما تكسر المرمر، ويلتوى على الأشجار، كالسِّوار، وينبثق من غُدُر، وأفواه أُسُود ونُمُر، ويذهب فى الهواء كلسان السراج، ويعود كقبة من زجاج؛ كأنه فى الصَّفاء دمع جَرَى، أو بَرْق سَرَى، أو بِلَّوْر مُذَاب، أو نَصْل قِرْضَاب[٣]، أو سَبيكة فضة، أو مِعْصَم بَضَّة[٤]. وكأن الحَصْبَاء، تحت المـاء، عِقْد منثور، أو جوهر منشور.

لعب السيول به فاصبح ماؤه غَلَلاً[٥] يُقَطِّع فى أصول الخِرْوع

وكثيرا ما يَهْطِل المطر، على هـذا المـاء والشجر، فاذا معركة شَعْواء[٦]، بين الخضراء والزرقاء، فالوَبْل نَبْل، والقنا أَسَل، والبروق ظُبِى وأَسِنَّة، وفى كل غدير جُنَّة[٧].

وفى هذه البلدة اليوم نَفَر من الأعلام، وأسَاطين الاسلام. فمنهم (السيد فلان) وهو رجل رَفيع العِماد، كثير الرَّماد، رَحْب الصـدر رَحْب الفؤاد، قد صُرِفَت اليه وجوه الأمَل، فكأن بيته قبة أطْنَابها[٨] السُّبُل، مِعْطاء غِطْريف[٩]، يرى أن شِقًّا فى باطن البُرَّة قَسْمٌ بينه وبين الضعيف. أيادٍ قتلن دَفْرًا والدُّهَيْم بالفواضل، فأم دَفر وأم الدُّهيم[١٠] ثاكل. غِيَاث المُرْمِل المُمْتَاح، وعصمة فى الزمن الكَلَاح[١١]. عربى فى سجايا مضر وزيد مناة، أجود بالجـاه من المـال وبالمـال من الجاه. كَعْب فى الكَرَم،

---

(١) الخفيف الأول والثقيل الثانى: صوتان من الغناء العربى. (٢) معبد من أشهر المغنين فى أيام بنى أمية. والميلاء والزلفاء من أشهر المغنيات لعهد بنى أمية وعنان مغنية محسنة فى عهد الرشيد وكلهن جوار.

(٣) القرضاب: السيف القاطع. (٤) البضة: الرخصة الجسد الرقيقة الجلد. (٥) الغلل: المـاء الذى يجرى بين الأشجار. (٦) الشعواء: المنتشرة. (٧) الأسل: الرماح، والجنة: الوقاية ويريد الدرع. (٨) الأطناب: جمع طنب وهو حبل يشد به الخباء والسرادق.

(٩) الغطريف: السيد الشريف والسخى السرى. (١٠) أم دفر وأم الدهيم: اسمان من أسماء الداهية. (١١) المرمل: المحتاج. والممتاح: السائل. والكلاح: الشديد.

والسموءل فى الذِّمَم، وعمرو بن العاص فى الرأى، والمُغيرة فى الدَّهْى، والشّعْبىُّ فى العلم، وابن أبى دُوَاد فى الحُكْم[1]؛ فى فصاحة لا تبلغها مَقَاوِل هُذَيلٍ فى أكْلائها، وقَرَاضِبَة نجد فى بطحائها[2]، وقريض كاللآل، كل بيت شعر خيرٌ من بيت مال .

فكأن أبياتَه رماح والقوافى أسِنّة .وكأن شطرى كل بيت منه مِصْرَاعَا بابِ قصر من قصور الجنة . حَمَاسة وسَمَاح، كالمـاء والرَّاح . وبأس فى جُود، كالنار فى العُود .

ودعاك حُسَّدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا
خلفت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مَسْمَعَى من أبصرا[3]

ومن هؤلاء (فلان) وهو عقل لُقْمان، وحكمة يُونَان، فى جُبَّة وقَبَاء، وعمـامة عَجْراء[4] . عالم قَلْبُهُ كتابه، وعينُه إسْطِرْلابه[5]؛ كأن بين فكيه حسامَ علىّ، وصَمْصَامة[6] عمـرو بن معد يكرب الزَّبيدى . قد بَذَّ الأوائل والأواخر، شاعر إلا أنه فيلسوف وفيلسوف إلا أنه شاعر . فكره عالم الحقيقة والمثال، لأن الفلسفة شـعر إلا أنَّها حقيقة والشعر فلسفة إلا أنه خيال .

من مبلغ الأعراب انى بعدهـا شاهدت رَسْطَاليس والاسكندرا
ولقيت كل الفاضـلين كأنمـا رَدَّ الإله نفوسهـــم والأعصرا

(١) مضر وزيد مناة : أصلان من أصول العرب وكعب هو ابن مامة الأيادى الذى آثر على نفســه حتى مات عطشا والمغيرة هو المغيرة بن شعبة وكان شديد الدهاء والشعبي من أكبر علماء الدولة الأموية ، وابن أبى دواد هو القاضى فى عهد المعتصم واسمه أحمد وكان زينة القضاة . (٢) المقاول : جمع مقول وهو اللسن الحســن البيان والأكلاء يريد به جمع كلأ ولم أعثر على الجمع ، والقراضـبة : الصعاليك ، جمع قرضاب وقرضوب ، وقد كان منهم كثير من الشعراء المحسنين كعروة بن الورد والشنفرى .

(٣) البيتان : من قصيدة للتنبي يمدح بها ابن العميد ، ومعنى البيت الثانى أن محاسنك الناطقة بعلو منزلتك نابت مناب قول الله تعـالى : أنت الرئيس الأكبر ، كما أن الخط مع كونه من المبصرات يفيــد فائدة المسموعات . (٤) العجراء : الغليظة الضخمة . (٥) الاسطرلاب : آلة تستعمل فى معرفة أحوال الكواكب . (٦) هى سيف مشهور .

ضرّار نفّـاع، شرّاب بأنقاع، [١] أمضى من نَصْـل ، وأشجـع من ليث جُؤجُؤه [٢] عَبْل ؛ الى زهد ابن أدهم، والربيع بن خُثَيْم [٣] . يقول الحق ولو أغصّه الحق بريقه، ولم يترك له أحدا من صديقه .

القائل الصدقَ فيه مايُضَرّ به والواحد الحالتين السّر والعلَن

ولا تَثْنيه الصّعاب، عن بلوغ الأسباب .

لولا المشقة ساد الناس كلهـم الجود يُفْقِـر والاقدام قتّـال

لذته فى تَعَبه، وراحته فى نَصَبه .

سبحانَ خالق نفسى ! كيف لَذَّتُها فيما النفـوس تـراه غايةَ الألم [٤]

وصف الشـــمعة

قال أبو بكر الأرّجانى [٥] يصف الشَّمَعة :

نَمَّت بأسرار ليل كان يُخْفيهـا وأطلعت قَلْبها للناس من فيها

غريقةٌ فى دموع وهى تُحْرِقها أنفاسُهـا بدوام من تَلَظِّيها

تنفست نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط فبات الوجد يُذْكيها [٦]

يُخشَى عليها الرَّدَى مهما ألمّ بها نسـيمُ ريح اذا وافى يحيّيهـا

---

(١) من أمثال العرب انه لشراب بأنقع . يضرب لمن جرب الأمور لأن الأنقع : جمع نقع وهو الماء المستنقع فالذى يكثر الشرب منها انما هو الخبير بمواضعها فى الصحارى . وقد غير السيد توفيق المثل بجمع نقعا على انقاع مع أن الأمثال لا تتغير وزد على ذلك أن النقع لا يجمع على انقاع وانما يجمع على أنقع ونقاع ولو غيره الى نقاع لتم له السجع وهان الخطأ . (٢) الجؤجؤ : الصدر . (٣) ابن أدهم : هو أبو اسحاق البلخى من أئمة الصوفية والربيع بن خيثم : إمام الزهاد توفى سنة ٦٧ هـ . (٤) هذا البيت والأبيات الأربعة قبله من كلام المتنبى . (٥) هو ناصح الدين أحمد بن محمد توفى سنة ٥٢٤ بمدينة تستر التى كان قاضيا وأرجان من كور الاهواز . (٦) أذكى النار : أوقدها .

قد أثمرت وردةً حمراء طالعة — تجني على الكف ان أهويت تجنيها (١)
وردٌ تُشاك به الأيدى إذا قُطفت — وما على غصنها شَـوكٌ يُوَقِّيها
صـفرٌ غلائلها، حمر عمائمها، — سود ذوائبها، بيض لياليهـا

وصف قصـــر

قال ابن حَمْديس (٢) الصِّقلي يصف قصرا شَيَّده المنصور بن أعلى الناس بِبِجَاية (٣) وجعل فيه بِركة عليها أشجار من ذهب وفضة وعلى حَافَاتها أسود تَقْذِف بالمـاء :

قصر لوَ انَّك قد كَحَلْت بنوره — أعمى لعاد من الضياء بصيرا
أَذْكَرْتَنَا الفِرْدوس حين أريتنا — غُرَفا رَفَعت بناءها وقصورا
فَلَك من الافلاك إلا أنه — حَقَر البدور فأطلع المنصورا
واذا الوَلائد فتحت أبوابه — جعلت تُرحِّب بالعُفَاة صَريرا (٤)
عضّت على حَلَقاتهن ضَرَاغِمٌ — فَغَـرت بهـا أفواهها تكبيرا (٥)
فكأنها لَبَدت لِتَهْصِر عندها — من لم يكن بدخولهـا مأمورا (٦)
ومُصَفَّح الأبواب تِبراً نَظَّروا — بالنقش فوق شكوله تنظيرا (٧)
خلعت عليـه غلائلا مَوْشِيّةً — شمسٌ تَرُد الطرف عنه حَسيرا (٨)
واذا نظرتَ الى غرائب سقفه — أبصرت روضا فى السماء نضيرا

(١) تجنى الأولى بمعنى تعتدى والثانية بمعنى تقطف . (٢) هو عبد الجبار بن أبى بكر توفى سنة ٥٢٧ ﻫ وهو من أبرع الشعراء ان لم يكن أبرعهم فى وصف البرك والأنهار والقصور والتماثيل فلقد كان اذا وصف شيئا من ذلك مثله كالحسناء وخيالها فى المرآة . (٣) بجاية كحكاية : بلد بالمغرب .
(٤) العفاة : جمع عاف وهو طالب الحاجة . والصرير : صوت الباب . (٥) فغرفاه : فتحه .
(٦) لبد تنصر : أقام والهصر : الدفع . (٧) نظر : مثل . والشكول : جمع شكل .
(٨) الغـلائل : جمع غلالة وهى شبه القميص يلبس على الجسد والمراد هنا الطلاء . والموشـية = المنقوشـــة .

وعجبتَ من أطيار عَسْجده التى حامت لتبنىَ فى ذُرَاه وُكُورا
وضعت به صُنَّاعها أقلامَها فأرَتْك كل طَرِيدَة تصـــويرا (١)
وكأنمـا للشمس فيــه لِيقَة مَشَقوا بها التَّزْويق والتَّشجيرا (٢)
وضراغم سكنت عرين رِياسة تركت خَرِير المـاء فيـه زئيرا
فكأنما غَشَّى النُّضار جُسومها وأَذَاب فى أفواهها البَـــلُّورا
أُسْـــد كأن سكونهـا متحرّك فى النفس لو وَجَدَتْ هناك مُثيرا
وتذكرت فَتَكَاتِهـا فكأنَّمـا أقْعَت على أدْبَارهـا لِتثورا (٣)
وتخَالهـا والشمس تجلُو لونهـا نارا وألسنَهـا اللَّواحِس نورا
فكأنَّمـا سَلّت سيوف جداول ذابت بلا نار فعُـــدْن غديرا
وكأنمـا نســج النسـيم لمـائه دِرعا فَقَــدَّرَ سَرْدها تقديرا (٤)
وبديعــةِ الثَّمرات تعـبر نحوها عيناىَ بحـر عجائب مَسْجورا (٥)
شجـرية ذهبيــة نَزَعتْ الى سِحْـــر يؤثر فى النُّهَى تأثيرا (٦)
قد سُرِّجت أغصانُها فكأنَّمـا قَبَضَت بهن من الفَضَاء طيورا (٧)
وكأنمـا تأبى أُوقَّـــع طَيْرِها ان تَسْـتَقل بِنَهْضها وتطـيرا (٨)
من كل واقعــة ترى مِنْقارها ماءً كسَلْسَال اللُّجَـــين نَمِـــيرا (٩)

---

(١) الطريدة : ما يطارده الصياد ويتبعه . (٢) الليقة : ما يكون فى الدواة من مداد لاصقا بصوفة أو نحوها ، والفعل منها كباع . ومشق الكتابة مد حروفها . والتشجير : أن تشكل على هيئة الشجر.
(٣) أقعى الكلب والسبع : جلس على مؤخره ناصبا يديه . (٤) السرد : نسج الدرع ، وتقديره : أن تكون ثقوب الدرع على قدر مساميرها . (٥) المسجور : المملوء . (٦) نزع اليه : أشبهه . يقال : فلان ينزع الى أبيه أو ينزع أباه أى يشبهه . (٧) سرجه : حسنه وزينه .
(٨) الوقع كركع : جمع واقع . (٩) السلسلة : اتصال الشىء بالشىء ، ومن ذلك المـاء السلسال أى السهل الجريان فى الحلق ، واللجين : الفضة . والنمير : الناجع من المـاء .

خُرْسٌ تُعَدّ من الفِصاح فان شَدَت ... جعلت تُغَرِّد بالميـاه صـــفيرا (١)

وكأنمـا فى كل غصْن فضة ... لانت فأُرسِل خيطها مجرورا

وتريك فى الصِّهريج موقع قطرها ... فوق الزَّبَرْجَد لؤلؤا منثــورا

ضحكت محاســنه اليك كأنمـا ... جُعِلَت لها زُهر النجوم ثغورا

وصـــــف زلزال

قال حافظ بك ابراهيم يصف زلزال صقلية فى سنة ١٩٠٩ م

نَبِّئـانى ان كـنتما تعلمـان ... مادَهَى الكونَ أيهـا الفَـــرْقَدان. (٢)

غَضِبَ الله أم تَمَـــرَّدت الأر ... ض فأنْحَت عــلى بنى الانسـان (٣)

ليس هـــذا سبحانَ ربى ولا ذا ... ك ولكن طبيعـــة الأكـوان.

غَلَيان فى الأرض نَفَّس عنــــه ... ثَوَرَانٌ فى البَحْــر والبُرْكان. (٤)

ربِّ أين المَفَـــرّ والبحــر والبـ ... ـر على الكَيْد للورى عاملان !

كنتُ أخشى البحار والموت فيها ... راصــد غفـــلة من الرُّبَّان (٥)

سـابح تحتنـا مُطِـــلٌّ علينـا ... حائم حولنـا مناء مـــدانى (٦)

فاذا الأرض والبــحار ســـواء ... فى خَــلاَق، كلاهما غادران (٧)

ما (لِمَسِّينَ) عوجلت فى صـباها ... ودعاهـا من الرَّدَى داعيـان (٨)

---

(١) شدأ : ترنم . (٢) الفرقدان : نجمان فى السماء لا يفريان وهذا هو السر فى قول المعرى :

فاسأل الفرقدين عمن أحسا ... من قبيــل وآنسا من بلاد

وفى أثره جرى شاعرنا . (٣) أنحى عليه ضربا : أقبل . (٤) نفس عنه : فرج .

(٥) الربان كرمان رئيس الملاحين . (٦) مناء مدان : مباعد مقارب . (٧) الخلاق : الحظ أو الدين وانما يكون ذلك فى الخير ولكن الشاعر توسع فى استعمال الكلمة . (٨) مسين : مدينة من مدن صقلية خربها هذا الزلزال وتعرف عند العرب بمسينى ومن شعر ابن قلاقس (يا من يسينى على مسينى) وداعيا الردى : الاغراق والاحراق .

وَمَحت تلكم المحاسن منها ... حين تَمَّت آياتها آيتان
خُسِفَتْ ثم أُغرِقَتْ ثم بادت ... قُضِى الأمر كله فى ثوانى
وأتى أمرُها فأضحت كأن لم ... تَكُ بالأمس زينة البُلْدان
ليتها أمهلت فتقضى حقوقا ... من وداع اللِّدَات والجيران (١)
لمحة يسعد الصديقان فيها ... باجتماع ويلتقى العاشقان
بَغَت الأرض والجبال عليها ... وطَغَى البحر أيَّما طغيان
تلك تغلى حِقْدا عليها فتنشقّ انشقاقا من كثرة الغَلَيان
فتجيب الجبال رَجْمًا وقذفا ... بِشُواظ من مَارِج ودخان (٢)
وتسوق البحار رَدًّا عليها ... جيشَ موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسود اللون جَوْن ... وهنا الموت أحمر اللون قانى (٣)
جَنَّد الماء والثرى لهلاك الـ ... خلق ثُمّ استعان بالنيران
ودعا السحب عَاتِيًا فأمَدَّتْه ... ه بجيش من الصواعق ثانى (٤)
فاستحال النَّجاء واستحكم اليأ ... س وخارت عزائم الشُّجعان
وشَفَى الموتُ غِلَّه من نفوس ... لا تباليه فى مَجَال الطِّعان
أين (رِجْيُو) وأين ما كان فيها ... من مَغَانٍ مأهولة وغوانى (٥)
عوجلتْ مثل أختها ودهاها ... مادهاها من ذلك الثَّوَران
ربّ طفلٍ قد ساخ فى باطن الأر ... ض ينادى أمى ! أبى ! أدركانى (٦)
وفتاةٍ هيفاء تُشْوَى على الجمـ ... ـر تعانى من حره ما تعانى

(١) اللدات : جمع لدة وهو الترب أى النظير فى السن . (٢) الشواظ : لهب لا دخان فيه ، والمارج : النار بلا دخان . (٣) الجون الأسود : فهو تأكيد والقانئ (بالهمز) : الشديد الحمرة وقد يسهل . (٤) العاتى : المجاوز للحد . (٥) رجيو : مدينة بإيطاليا أمام مسينى وتعرف عند العرب بريو، المغانى : جمع مغنى وهو المقام . (٦) ساخ فى الأرض : دخل فيها وغاب .

وأب ذاهـــل الى النـار يمشى | مُسْتَمِيتًا تمتـــدّ منـه اليـــدان
باحثـا عن بنـاته و بنيـــه | مُسْرِع الخطو مُسْـــتطير الجَنَان (١)
تأكل النـار منـــه لا هو ناج | من لظاها ولا اللظى عنـه وانى (٢)
غَصَّت الأرض أُتْخِم البحر ممـا | طوياه من هـذه الأبدان (٣)
وشـــكا الحوت للنسور شَـــكاة | رَدَّدَتها النســور للحيتان
أسرفا فى الجسوم نَقْـــرًا ونَهْشا | ثم باتا من كِظَّة يشكوان (٤)
لا رعى الله ساكن القِمَم الشُّمّ | ولا حاط ساكن القِيعان (٥)
قـــد أغارا على أكفّ بَرَاهَا | بارئ الكائنـات للإتقان
كيف لم يَرْحَمَـا أناملها الغُرّ | ولم يَرْفُقـا بتـــلك البَنَان
لَهْفَ نفسى وألف لهف عليهـا | من أكُفّ كانت صَنَاع الزمان (٦)
مُولَعاتٍ بصَـــيد كل جميـــل | ناصباتٍ حبـائل الألوان
حافـرات فى الصخر أو ناقشات | شائدات روائـــع البنيان
مُنْطِقات لسان كل جمـاد | مُفْجِحاتٍ ســواجع الأفنان (٧)
مُلْهِمات من دقة الصنـــع مالا | يُلْهَم الشعر من دقيـق المعانى
من تماثيلَ كالنجوم الدَّرارى | يُهْـــدَم الدهر وهى فى عُنفُـوان
عَجَبٌ صُنْعُها وأعجب منـــه | صَمْتُها ؛ تلك قـــدرة الرحمن

---

(١) المستطير : المتفرق المشتت . (٢) اللظى : اللهب . و نى : تراخى .
(٣) غص كفرح : اعترض فى حلقه شىء . والمراد هنا امتلأت وأتخمه الطعام : أحدث له تخمة وأصل تائه واو فهو من الوخامة . (٤) الكظة : ما يعترى من امتلاء الطعام . (٥) القيعان : جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة انفرجت عنها الجبال ومراد الشاعر بها البحر أو قراره .
(٦) يالهفى على كذا : عبارة يتحسر بها على فائت وضمير عليها للاكف ومن أكف بيان للضمير ، وصناع : حاذقة ماهرة فى العمل اليدوى . (٧) سواجع الأفنان : الحمام يسجع على الغصون .

إيه (مسينُ) آنِسِي اليــوم بُمْبـا ى فقــد أوْحَشَتْ بذاك المكان

آنِسِي الدُّرة التى كانت الحِلْ ية فى تاج دولة الرومان

غَالَهَا قبـلك الزَّمان اغتيالا وهى تلهو فى غِبْطة وأمان

جاءها الأمر والسُّراة عُكُوف في الملاهى على غِناء القِيَان (١)

بين صب مُدَلّه وطَـرُوب وخَليـع فى اللهـو مُرْخَى العنان (٢)

فانْطَوَوْا كانطواء أهــلك بالأمـ ـس وزالت بشاشة العُمْران

انتِ (مسينُ) لم تزولى كما زَا لت ولكن أمسيت رَهْن الأوان

ان ايطاليَا بنــوها بُنَـاة فاطمئنى مادام فى الحى بانى

فســلام عليــك يــوم تولّيـ ـت بما فيك من مَغَانٍ حسان

وســلام عليك يوم تعــودين كما كنتِ جَنَّــة الطليان

وسـلام من كل حى على الأر ض على كلّ هالك فيك فانى

وسـلام على الأُلى أكل الذئـ ـب ونَاشَتْ جــوارح العِقْبان (٣)

وســلام على امرئ جاد بالدمـ ـع وثَــنَّى بالأصــفر الرَّنَّان

ذاك حق الانسان عنـد بنى الأنـ ـسان لم أَدْعُــكم الى إحسان

فاكتبوا فى سماء (رِجْيو) و (مَسِّـ ـين) و (كَالَبْرِيا) بكل لسان

هاهنـا مصرع الصناعة والتصـ ـوير والحِـذْق والحِجَا والأغانى

وصــــف الأســـــد

قال أبو الطيّب المتنبّى يصف الأسد :

وَرْد اذا ورد البحيرة شاربا وَرَد الفرات زئيره والنيلا (٤)

---

(١) السراة : الأشراف . والقيان : جمع قينة ، وهى الجارية المغنية . (٢) الخليع : المستهتر بالشراب واللهو . (٣) النوش والتناوش والانتياش : التناول . (٤) الورد : الجرىء. والبحيرة : يريد بها بحيرة طبرية .

متخضّب بدم الفوارس لابس ... فى عيله من لبدتيه غيلا (١)

ماقوبلت عيناه إلا ظُنّتا ... تحت الدّجى نار الفريق حُلولا (٢)

فى وحـدة الرّهبان إلا أنّه ... لا يعرف التّحريم والتّحليلا

يطأ الثّرى مترفّقا من تيهه ... فكأنّه آس يجُس عليلا (٣)

ويردّ عُفْرته الى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا (٤)

وتظنه مما يزمجر نفسُه ... عنها بشدّة غيظه مشغولا

قصَرت مخافته الخُطى فكأنّما ... ركب الكَمِىّ جَواده مشكولا (٥)

وصف شعب بوان (٦)

قال أبو العباس المُبَرّد :

كنت مع الحسن بن رجاء بفارس فخرجت الى شِعْب بَوّان فنظرت الى تُرْبة كأنها الكافور ورياض كأنها الثوب المُوَشّى وماء يَتَحَدّر كأنّه سلاسل الفضة على حصباء كأنها حصى الدُّر فجعلت أطوف فى جَنَبَاتها فاذا فى بعض جُدْرانها مكتوب :

اذا أشرف المكروب من رأس تَلْعة (٧) ... على شِعب بَوّان أفاق من الكرب

وألهاه مرج كالحرير لطافة ... ومطّرد يَجْرِى من البارد العذب

وطيب رياض فى بلاد مَرِيعة (٨) ... وأغصان أشجار جَنَاها على قرب

(١) الغيل : الاجمة . ولبدتا الأسد : ما على كتفيه من الشعر .
(٢) الفريق : الجماعة . وحلولا حال من الفريق . (٣) الآسى : الطبيب . (٤) عفرة الأسد : الشعر المجتمع على قفاه . (٥) الكمى : الشجاع المستتر فى سلاحه . والمشكول : المقيد . (٦) هو أحد جنان الدنيا الأربع عند أدباء العرب وقد تقدم ذكرها . (٧) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها والمراد الأول . (٨) المريعة : الخصيبة . والميم أصلية يقال : مرعت الأرض وأمرعت .

وفى شِعْب بَوّان يقول المتنبى :

مَغَانى الشِّعب طيبا فى المغانى (١)	بمــنزلة الربيع من الزمان
طَبت فُرْسَاننا والخيــل حتى	خَشيت وان كَرُمْن من الحِران (٢)
غَدوْنَا تَنْفُض الأغصان فيــه	على أعْرافها مثــل الجُمَان
فَسِرْت وقد حجبن الشمس عَنّى	وجئن من الضياء بمــا كفانى
وألقى الشرق منهــا فى ثيــابى	دنانيرا تَفِـــر من البنان (٣)
وأمواه يَصِــلّ بها حصــاها	صَليل الحَلْى فى أيدى الغوانى
يقول بشعب بوان حِصَانى :	أعن هــذا يُسَار الى الطِّعان؟
أبوكم آدمٌ سَنّ المعاصى	وعلمكم مفارقة الجنــان

وصـــف طيــارة

قال حافظ بك ابراهيم يصف طيارة :

يجــرى بسابحة تَشُـ	ـقُّ سبيلها شَــقّ الإزار
وتكاد تقدح فى الأثيـ	ـر فيستحِيل الى شِرار (٤)
مثل الشِّهاب انقَضّ فى	اثار عِفْـريت وطار
فاذا علت فَكَدَعْوة الْـ	ـمُضْطَرّ تخترق السِّتار
واذا هَوَتْ فكما هوَت	أنثى العُقَاب على الهِزَار (٥)

(١) المغانى : جمع مغنى وهو اسم مكان من غنى أى أقام . (٢) طباه واطباه : استهواه واستماله .
(٣) يقول : ان اشتباك الأغصان يجعل ما يسقط من ضوء الشمس دوائر صغيرة كالدنانير إلا أنها لا يمكن تناولها . (٤) الشرار والشرر : ما يتطاير من النار واحدتهما شرارة وشررة . (٥) العقاب : طائر جارح . وجمعه عقبان . ولفظه مؤنث ، والأنثى منه تسمى اللقوة ، والذكر يسمى الغرن وهو ضعيف موائما القوة للأنثى . ومن هذا يتبين السر فى قول شاعرنا : أنثى العقاب .

وتُسِــفُّ آونة وآ ... وِنَةً يَجِيدُ بهـا ازْوِرَار (١)
فيخالهـا الراءون قــد ... قَرَّت وليس بها قَرار
لَعِبَ الجواد أقـلَّ ليـ ... ـثا من قُضَاعة أو نزَار (٢)
أو كالقَلُوب من الحما ... ئم فَوْقَ ملعبه استطار (٣)
وكأنَّهـا فى الأفْق حيـ ... ـن يميل ميزان النهار
والشمس تلقى فوقهاَ ... حُلَل اصفرار واحمرار
مَلَك تمثـله لنـا السّـ ... ـيما فيأخــذنا انبهار

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض فى طيرانه . والازورار : الانحراف . (٢) يقول : أنها فى تقلبها فى الجو تشبه فرسا عربيا امتطاه فارس إما من قضاعة و إما من نزار . وقضاعة ونزار شعبان كبيران من شعوب العرب . (٣) القلوب : الكثير التقلب .

باب النصائح والوصايا والخطب

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك

خَرَجَ الزُّهرى يوما من عند هشام بن عبد الملك، فقال: ما رأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام. دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين احْفَظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك. قال: ما هن؟ قال: لا تعِد عِدة لا تثق من نفسك بإنجازها؛ ولا يَغُرَّنَّك المُرْتَقَى وان كان سهلا اذا كان المُنْحَدَر وَعْرا؛ واعلم أن للأعمال جزاءً فاتّق العواقب، وأن للأمور بَغَتَاتٍ (١) فكن على حذر. قال عيسى بن دأب: فحدثتُ بهذا الحديث المهدىَّ وفى يده لُقمة قد رفعها الى فيه فأمسكها وقال ويحك! أعد علىّ فقلت يا أمير المؤمنين أسِغْ (٢) لقمتك، فقال: حديثك أعْجب الىّ.

نصيحة أعرابى لسليمان بن عبد الملك

قال أعرابى لسليمان بن عبد الملك: انى أكلمك ياأمير المؤمنين بكلام فاحتمله فان وراءه إن قبلته ماتحبه، قال: هَاتِه ياأعرابى فنحن نجود بسَعَةِ الاحتمال على من لانأمن غَيْبَتَه ولا نَرجو نصيحته وأنت المأمون غيبا الناصح جيبا (٣). قال: فإنى سأطلق لسانى بما خَرِست عنه الألسن تأديةً لحق الله تعالى؛ إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا (٤) دنياك بدينهم ورضاك بسُخْط ربهم وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك؛ فهم حَرْب للآخرة وسِلْم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائْتمنك الله عليه فإنهم

(١) البغتات: جمع بغتة وهى الفجأة. (٢) أساغ اللقمة: ابتلعها. (٣) فلان ناصح الجيب: يراد به قلبه وصدره أى أمين، قال الشاعر: * وخشنت صدرا جيبه لك ناصح *
(٤) ابتاع: اشترى.

لم يألوا[1] الأمانة تضييعا والأمة كَسْفا وخَسْفا وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت، فلا تُصْلِح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس عند الله غَبْنا من باع آخرته بدنيا غيره . فقال سليمان : أمَّا أنت ياأعرابى فقد سَلَلْتَ لسانك وهو سيفك . قال : أجل يا أمير المؤمنين لك لاعليك .

نصيحة فتـاة لأبيها

قالت أعرابية تنصح أباها بمُجَانَبَة السَّرف : حبس المـال، أنفع للعيال، من بَذْل الوجه فى السؤال ، فقد قَلَّ النوال ، وكثر النِّجال[2] . وقد أتلفت الطَّارف والتِّلاد[3] ، وبقيت تطلب ما فى أيدى العباد . ومن لم يَحفَظ ما ينفعه ، أوْشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمذانى لوارث مال

كتب البديع الى بعض اخوانه يعزيه وينصح له :

وَصَلَتْ رُقْعتك (ياسيدى) والمصاب لعمر الله كبير، وأنْت بالجزع جَدير، ولكنك بالصبر أجدر . والعَزَاء عن الأحبة رُشْد كأنه الغَىّ، وقد مات الميت فَليَحْىَ الحىّ، فاشدد على مالك بالخمس[4]، فأنت اليوم غيرك بالأمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وَكِيلك ، تضحك ويبكى لك . وقد مَوَّلك[5] مما أَلَّف بين سُراه[6] وسيره ، وخلَّفك فقيرا الى الله غنيا عن غيره . وسيعجُم[7] الشيطان عودك فان استلانك رماك بقوم يقولون : خير

---

(١) الا يألو ألوا : قصر . يقال : إنى لا آلوك نصحا أى لا أقصر ، وقال تعالى : "لا يألونكم خبالا" أى لا يقصرون فى خبالكم وفسادكم . (٢) النجال : جمع نجل وهو الولد . (٣) الطارف : المستحدث من المـال وغيره . والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف . (٤) يريد بالخمس الأصابع وهى مؤنثة فى الأكثر . (٥) موله : اتخذ له مالا . (٦) السرى : سير الليل . (٧) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته .

المـال ما تُتْلفه بين الشراب والشَّباب، وتُنْفقه بين الحَبَاب(١) والأحباب، والعيشُ بين القِدَاح(٢) والأقداح. ولولا الاستعمال، لمـا أريد المـال، فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب، وغدا فى الخراب، واليوم واطَرَبا للكاس، وغدا واحَرَبا(٣) من الافلاس. يامولاى ذلك الخارج من العُودِ يسميه الجاهل نَقْرا، والعاقل فقرا، وذلك المسموع من النای(٤) هو فى الآذان زَمْر، وفى الأبواب سَمْر. وإن لم يجد الشيطان مَغْمَزًا فى عودك منْ هذا الوجه رماك بآخرين يُمَثِّلون الفقر حِذاء عينيك، فتجاهد قلبـك، وتحاسب بطنك، وتناقش عِرْسك(٥)، وتمنع نفسك، وتبوء فى دنياك بوِزْرِك، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك. لا؛ ولكن قصدا بين الطريقين، وميلا عن الفريقين. لامنع ولا إسراف والبخل فقر حاضر وضَيْر عاجل وانما يبخل المرء خيفة ماهو فيه.

ومن يُنْفِق الساعاتِ فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعـل الفقـر

فليكن لله فى مالك قِسْم، وللمُرُوءة قسم، فصل الرحم ما استطعت، وقدِّر(٦) اذا قطعت؛ فلأن تكون فى جانب التقدير، خير من أن تكون فى جانب التبذير.

نصيحة أبى أُذينة للأسود(٧) بن المنذر

قال أبو أذينة ينصح للأسود بن المنذر:

ما كلّ يوم ينال المرء ما طلبا ولا يُسَوِّغُه(٨) المقـدار ما وهبا
وأحزم الناس من أن فُرصة عرضت لم يجعل السبب(٩) الموصول منقضبا

(١) حباب المـاء والشراب: فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير. (٢) القداح: سهام الميسر واحدها قدح كقرد. والأقداح: جمع قدح بكجبل وهو وعاء الشراب. (٣) الحرب: أن يسلب الرجل ماله وقد حرب ماله أى سلب ومن هذا قولهم: واحربا. (٤) النای: آلة للزمر (فارسى معرب) وقد تهمز ياؤه، وقد جمعوه على نايات. (٥) العرس: الزوجة. (٦) التقدير: التروية والتفكير فى تسوية أمر. (٧) الأسود بن المنذر من ملوك الحيرة فى الجاهلية وأبو أذينة أحد أقربائه. (٨) سوّغه الأمر: أعطاه إياه. (٩) السبب: الحبل. والمنقضب: المنقطع.

وأنْصَف الناس فى كل المواطن من ... سَقى المعادين بالكأس التى شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم ... بحد سيف به مِنْ قبلهـم ضُربا
والعـفو إلا عن الأكفاء مَكْرُمة ... من قال غير الذى قد قلتـه كذبا
قتلت عمـرًا وتستبقى يزيد ! لقد ... رأيت رأيا يجـــر الويل والحَرَبَا
لا تقطعَنْ ذنب الأفعى وتُرْسِـلَها ... ان كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا
هم جرَّدوا السيف فاجعلهم له جَزَرًا[1] ... وأوقدوا النار فاجعلهم لهـا حطبا
إن تَعْفُ عنهم يقول الناس كلهم: ... لم يَعْفُ حلما ولكن عفوه رَهَبـا[2]
همُ أهِـلَّة غَسَّان ومجدهمُ ... عالٍ فإن حاولوا ملكا فلا عجبـا
وعَرَّضُوا بِفِـداء واصفين لنـا ... خَيْلا وإبْلا تروق العُجْم والعربا
أيحلبُون دمًا منـا ونَحْلُبُهـم ... رِسْلا[3] لقد شرّفونا فى الورى حلَبا
عَلامَ تقبـل منهـم فدية وهُمُ ... لا فِضَّـة قبلوا منـا ولا ذهبا

وصـــية أعرابيـــة لابنهـا

قال أبَان بن تَغْلِب[4] : شَهِدت أعرابية تُوصى ولدا لها أراد سفرا وهى تقول : أىْ بُنَىَّ اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقـك . أى بنى إياك والنميمة فانهـا تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين . وإياك والتعرّض للعيوب فتُتَّخَذَ غرضا وخليـق أن لا يثبت الغرض على كثرة السهام . وقلما اعتورت[5] السهام غَرَضا إلا كَلَمَتْه[6] حتى يَهِى[7] ما اشتدّ من قوته . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . واذا هَزَزْت[8] فاهزز

(١) الجزر: القطع : يقال تركتهم جزرا للسباع والطير أى قطعا . (٢) عفوه رهبا محذوف منه إما خبر عفوه وإما فعله على أنه مبتدأ أو فاعل ورهبا مفعول لأجله بدليل ماقبله . (٣) الرسل : اللبن . والحلب كطلب : الحلب . (٤) أبان بن تغلب : عابد من عباد أهل البصرة يروى عنه الأصمعى كثيرا من أخبار الأعراب . (٥) اعتوروا الشىء وتعاوروه وتعوروه : تداولوه فيما بينهم . (٦) كلمه : جرحه . (٧) وهى كوعى : ضعف . (٨) هزه : سأله وأصله من هز الشجرة ليسقط ثمرها .

كريما يلن لهزتك ولا تهـزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودّته بِشْرَهُ وخالف ذلك منه فعلُه كان صديقه منه على مِثْل الريح فى تصرفها . قال أبان : ثم أَمْسكتْ فدنوت منها فقلت : بالله يا أعرابية إلّا زِدْتِه فى الوصية . قالت : أَوَقد أعجبك كلام العرب ياعِراقى؟ قلت : نعم ! قالت : والغَدْر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلة رَيْطَتَها (١) وسِرْبَالها .

وصـــية الرياحى لقومه

قال الرِّياحى فى خطبته بالمِرْبَد (٢) :

يا بنى رياح لا تُحَقِّروا صغيرا تأخذون عنه فانى أخذت من اللّيث بَسَالته ومن الحمار صبره ومن الخنزير حرصه ومن الغُراب بُكُورَه ومن الثعلب رَوَغَانه (٣) ومن السِّنور ضَرَعَه (٤) ومن القرد حكايته ومن الكلب نصرتَه ومن ابن آوى حِذْره . ولقد تعلمت من القمر سير الليل ومن الشمس ظهور الحِين بعد الحين .

وصـــية ذى (٥) الأصبع لابنـــه

لما احْتُضِرَ ذُو الأصبع العَدْوانى دعا ابنه أُسيدًا فقال له :

يا بُنى إن أباك قد فنى وهو حىّ وعاش حتى سئم العيش . وانى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته : أَلِن جانبك لقومك يحبوك . وتواضع لهم يرفعوك .

(١) الريطة : الملاءة ليست ذات لفقين . والسربال : القميص . والحلة : ما يلبس الانسان ، ثوبان فأكثر (البدلة) . (٢) المربد : الجرين ثم صارعلما على موضع بالبصرة . (٣) الروغان : الميل عن الشيء لتجنب الضرر . (٤) الضرع : الخضوع . (٥) هو حرثان بن الحارث خطيب حكيم شاعر فارس وهو أحد المعمرين فى الجاهلية .

وابسُط لهم وجهك يطيعوك . ولا تَستأثِر عليهم بشيء يُسَوّدوك . وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبَر على مودّتك صغارهم . واسمح بمالك وأعزِز جارك (١) وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصَّريخ (٢) فان لك أجلا لايعدوك . وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سُودَدُك .

وصية عبد الله بن شداد (٣) لابنه

قال الكلبي : لما حضرت عبد الله بن شدّاد الوفاة دعا ابنا له يقال له محمد فقال :

يا بُنى إنى أرى داعى الموت لا يُقلِع ، وأرَى من مضى لا يرجع ، ومن بقى فاليه يَنزِعُ (٤) . وإنى موصيك بوصية فاحفَظها :

عليك بتقوى الله العظيم وليكن أولى الأمور بك شكرُ الله وحُسْنُ النِّية فى السِّر والعَلانيَة ، فان الشَّكور يزداد ، والتقوى خير زاد . وكن كما قال الحطيئة :

ولست أرَى السّعادة جمع مال ... ولكن التّقِىّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مَزيد
وما لا بُدّ أن يأتِى قريبٌ ... ولكنّ الّذى يمضى بعيد

أىْ بنى : لا تَزهَدَنَّ فى معروف ، فان الدهر ذو صُرُوف ، والأيام ذاتُ نَوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه . واعلم أنّ الزّمان ذو ألوان . ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان . وكن أىْ بُنَىّ كما قال أبو الأسود الدؤلى :

(١) الجار : المجاور والذى اجرته من أن يظلم . (٢) الصريخ : صوت المستغيث وهو أيضا المغيث واحدا أو أكثر . (٣) هو عبد الله بن شداد بن الهادى الليثى كان من رجالات العراق. ومن ذوى المكانة عند الحجاج ثم خرج عليه مع ابن الأشعث ويقال إنه قتل سنة ٨٣ هـ . (٤) نزع اليه. بكلس : اشتاق .

وعدّ من الرحمن فضــلا ونعــمة عليك اذا ما جاء للعُرف(١) طالب
وان امرأ لا يُرتجَى الخير عنــده يكن هيّنا ثِقلًا على من يصاحب
فلا تمنعنْ ذا حاجة جاء طالبــا فانك لا تدرى متى أنت راغب
رأيت التوا(٢) هـــذا الزمان بأهله وبينهـــم فيــه تكون النوائب

أى بنى : كن جَوادا بالمــال فى موضع الحق، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجه البِرّ، وإن أحمد بخل الحر الضَّنّ بمكتوم السِّر. وكن كما قال قيس بن الخَطيم(٣) الأنصارى :

أجُودُ بمكنون التِّــلاد وانى بسِرك عمن سَالَنِى لضَنينِ(٤)
اذا جاوز الإثنين(٥) سر فإنه بنَثّ وتكثير الحــديث قمين
وعندى له يوما اذا ما ائتمنتنى مكان بسَــوْدَاءِ الفُؤاد(٦) مكين

أىْ بنىّ : وإن غُلِبت يوما على المــال، فلا تدع الحيلة على حال، فان الكريم يحتال، والدنِىّ عيال. وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا، أقلّ ما تكون فى الباطن مالا ؛ فان الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الانْفادِ(٧) نعمته . وكن كما قال ابن خَذَّاق(٨) العَبْدى :

وجدت أبى قَــدَ اوْرثه أبوه(٩) خِلَالا قد تُعَــدّ من المعالى
فأكرم ما تــكون علىّ نفسى اذا ما قــلّ فى الأزَمات مالى

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا مصدر التوى وقصره للضرورة ، والتوى به الزمان : اعوج ، وألوى به : أهلكه . (٣) شاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة .
(٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن . (٥) قطع همزة اثنين للضرورة . ونث الحديث : أفشاه .
(٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسويداؤه وسواده وأسوده : حبته . (٧) الانفاد : الفقر .
(٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم . (٩) نقلت حركة الهمزة من أورث الى الدال وحذفت هى للوزن . والخلال : جمع خلة وهى الخصلة .

فتحسُن سِيرتى وأصون عِرْضى ... ويجمُل عند أهـل الرأى حالى
وان نلتُ الغـنى لم أغْلُ فيـــه ... ولم أخصُص بجَفْوتِىَ الموالى (١)

أى بنىّ : وان سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنّك لستَ بالشاهد، فانك ان أمضيتها حِيالَها (٢) رجع العيب على من قالها . وكان يقال: الأريب العاقل، هو الفطن المتغافل (٣) . وكن كما قال حاتم الطائى :

وما من شِيمتى شَتْم ٱبن عمى ... وما أنا مُخْلِف من يرتجينى
وكلمـــةِ حاسد فى غـــير جُرم ... سمعت فقلت مُرّى فانفُذِينى (٤)
فعـابوها علىّ ولم تســؤْنى ... ولم يَعْـرق لهـا يومًا جبينى
وذو اللّونيــن يلقانى طَليقًا ... وليس اذا تغيب يأْتَلِيـنى (٥)
سمعت بعيبه فصفحت عنـه ... مُحافَظـةً على حَسَـبى ودينى

أى بنىّ : لا تُؤاخِ ٱمرأً حتى تعاشره، وتتفقّد موارده ومصادره، فاذا استطعت العشرة، ورضيت الخُبْرة (٦)، فوَاخه على إقالة العثْرة، والمُوَاساة فى العُسْرة . وكن كما قال المُقَنَّع الكِندى (٧) :

ٱبْلُ الرجال اذا أردت إخاءهم ... وتوسَّمنّ فعالهم وتفقّـــد
فاذا ظفرت بذى اللَّبابة والتُّقَى ... فَبِـه اليَدَين قرير عينٍ فاشْدُد (٨)
واذا رأيت ولا مَحَالة زَلَّة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

(١) غلا فى الأمر غلوا : جاوز الحدّ . والموالى : الأقارب . يقول إن كثر مالى لم أجف أقاربى .
(٢) حيال ظرف فى معنى أزاء أى ان تركتها تذهب فى طريقها الخ . (٣) فى معنى هذا قول الشاعر :
ليس الغبي بسيد فى قومه ... لكن سيد قومه المتغابى
(٤) نفذه : جازه . (٥) ائتلى كألا أى قصر . يقول : اذا غاب عنى فان يقصر فى نكايتى .
(٦) الخبرة و بغير هاء : العلم بالشىء كالاختبار . (٧) هو محمد بن عميرة والمقنع لقبه شاعر رصين المبانى حكيم المعانى من شعراء الدولة الأموية . (٨) اللبابة مصدر لب أى صار ذا لب وهو العقل، وكل ما قيل فاشدد من الشطر الثانى معمول له وتكررت الفاء تأكيدا للربط وكذا فى البيت التالى .

أىْ بنىّ : اذا أحببت فلا تُفْرِط ، واذا أبغضت فلا تُشْطِطْ (١) ، فانه قد كان يقالَ : أحْبِبْ حبيبك هَوْناً مَا (٢) عَسى أن يكون بغيضك يومًا ما ، وأبْغِض بَغيضك هَوْنا مَا عسى أن يكون حبيبك يوما ما . وكن كما قال هُدْبَةُ (٣) بن الخَشْرَم العُذْرِى :

وكن مَعْقِلا للحلم واصْفح عن الخَنَا فإنك راء ما حَيِيت وسامــع

وأحْبب اذا أحببت حبا مقاربا فانك لا تدرى متى أنت نَازِع (٤)

وأبْغِض اذا أبغضت بغضا مقاربا فانك لا تدرى متى أنت راجـــع

خطبـــة زياد البـــتراء

قَدِم زياد (٥) البَصرة واليا لمعاوية ، وإليه خُرَاسان وسِجِسْتَان ، والفِسق بالبصرة ظاهر فاش فخطب أهلها خطبة بتراء (لم يَحمد الله فيها) قال :

أما بعد فان الجَهالة الجهْلاء (٦) ، والضَّلالة العَمْياء ، والغَىَّ المُوفِىَ بأهله على النار ما فيه سُفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العِظام يَنْبُتُ فيها الصغير ، ولا يَتَحَاشَى عنها الكبير . كأنكم لم تقرءُوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّه من الثواب

---

(١) شط وأشط : جاوز الحدّ . (٢) الهون : الرفق ، وما إما زائدة وإما صفة لهونا مثلها فى قوله تعالى : " إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما " . (٣) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة . وهو القائل :

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٤) نزع عن الأمر نزوعا : انصرف وانتهى عنه . (٥) هو زياد ابن أبيه نابغة من نوابغ العرب فى السياسة وبعد النظر وخطيب يعد فى الخطباء المصاقع من الطراز الأول . قال الشعبى : ما سمعت متكلما قط تكلم فأحسن الا أحببت أن يسكت مخافة أن يسىء إلا زيادا فانه كان كلما أكثر كان أجود كلاما . ولذلك ضرب به المثل فى الخطابة . قال ابن عمار :

السيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب ان كانت يمينك منبرا

توفى زياد سنة ٥٣ هـ . (٦) هذا كقولهم ليلة ليلاء وصوم صائم يراد به التوكيد .

الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمَدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طَرَفَت عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعَه الشهوات واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحَدث الذى لم تُسْبقوا اليه من ترككم الضعيفَ يُقْهَرُ ويؤخذ مالُه . ماهذه المَواخير(١) المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المُبْصِر والعدد غيرُ قليل؟ ألم يكن منكم نُهَاةٌ(٢) تمنع الغُواةَ عن دَلَجِ(٣) الليل وغارة النهار؟ قَرَّبْتُم القَرابة وباعدتم الدِّين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضُون على المختلس . كلُّ امرئ منكم يَذُبُّ عن سفيهه ، صَنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معادا . ما أنتُم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يَزَل بكم ما تَرَوْن من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا(٤) فى مكانس الرِّيَب . حرام علىَّ الطعامُ والشراب حتى أسوِّيَها بالأرض هَدما وإحراقا . انى رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صَلَح به أوَّله : لين فى غير ضعف ، وشدّة فى غير عُنف . وانى أُقسِم بالله لآخذنَّ الْوَلِىَّ بالمولَى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انجُ سَعد فقد هلك سُعَيْد(٥) أو تستقيمَ لى قناتُكم . ان كِذْبَة المنبر بَلْقَاء مشهورة فاذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلت لكم مَعْصيتى . واذا سمعتموها منى فاغْتَمِزُوها(٦) فىَّ واعلموا أن عندى أمثالَها . من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فاياىَ ودَلَجَ الليل فإنى لا أُوتَى بمُدْلِج إلا سفكت دمه . وقد أجَّلْتُكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبرُ الكوفة ويرجِع اليكم . وإياى ودَعْوَى الجاهلية(٧) فأنى

---

(١) المواخير : جمع ماخور وهو بيت الريبة (معرب) . (٢) النهاة : جمع ناه . والغواة : جمع غاو . (٣) الدلج : السير من أوّل الليل . (٤) الكنوس : جمع كانس كالكنّس والكانس الظبي يدخل فى كناسه وهو ما يأوى اليه . (٥) هذه العبارة مأخوذة من مثل أصله أن أخوين خرجا فى طلب إبل لهما وكان اسم أحدهما سعدا والآخر سعيدا كقريش فرجع سعد ولم يرجع أخوه . (٦) اغتمزه فيه : عدّه من عيوبه . (٧) دعوى الجاهلية : قولهم يالفلان والغرض منها مناصرة العصبية لا إعلاء كلمة الحق .

لا أجد أحدا دعا بهـا إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ؛ فمن غَرَّق قوما غَرَّقناه . ومن أحرق قوما أحرقْناه . ومن نَقَب بيتا نَقَبْنَا عن قلبه . ومن نَبَش قبرا دفناه فيه حيا . فَكُفّوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكْفُفْ عنكم يدى ولسانى . ولا يظهرَنّ من أحد منكم رِيبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَن[1] فجعلت ذلك دُبر أذنى[2] وتحت قدمى . فمن كان محسنا فليزدد فى إحسانه ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّل من بغضى لم أكشف له قِناعا ولم أهْتِك له سِترا حتى يُبْدِى لى صَفْحته[3]، فان فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس إنا أصبحنا لكم سَاسَة وعنكم ذادَة[4]؛ نَسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفَىْء[5] الله الذى خَوَّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما وُلِّينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتانى طارقا بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبَّانه ولا مُجَمِّرا[6] لكم بَعْثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدِّبون، وكهفكم الذى اليه تأوُون . ومتى يَصْلُحُوا تَصْلُحوا . ولا تُشْرِبُوا قلوبَكم بغضَهم فيشتدَّ لذلك غيظُكم ويطول له حُزْنكم ولا تُدركوا

(١) الأحن : جمع أحنة وهى الحقد . (٢) جعل كلامه دبر أذنه : اطرحه .
(٣) صفحة الرجل : عرض وجهه . يقول حتى يجاهرنى بالعداوة . (٤) ذادة : جمع ذائد كما أن ساسة جمع سائس . والذائد : المدافع . (٥) الفىء : الظل يحدث بعد الزوال والخراج . وخوله مالا أو نعمة : ملكه . يقول ندفع عنكم بظل الله ونعمته التى منحنا أو ندفع عنكم بما صار فى يدنا من أموال الخراج لأن المال قوة، والأول أوجه . (٦) تجمير الجند أو البعث : ابقاؤهم فى عملهم وحبسهم فى أرض العدوّ .

حاجتكم؛ مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كُلا على كُل . واذا رأيتمونى أُنفِذُ فيكم أمرا فأنْفِذوه على أذلاله[١] وايْمُ الله ان لى فيكم لَصَرْعَى كثيرة فليحذر كلُّ امرئ منكم أن يكون من صرعاى .

خطبة قَطَرِىّ[٢] بن الفُجاءة فى ذم الدنيا

صعد قطرى بن الفجاءة مِنْبر الأزارقة[٣] فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنى أحذّركم الدنيا فإنها حُلوة خَضِرة حُفَّت بالشهوات وراقت بالقليل وتَحَبَّبَت بالعاجلة وعُمِرت بالآمال وتحلَّت بالأمانىّ وازَّينت بالغُرور ؛ لاتدوم حَبْرتها[٤] ولا تؤمن فجعتها ؛ غدارة ضرارة ، وحائلة زائلة ، ونافدة بائدة ، أكَّالة غوَّالة ، بدَّالة نقَّالة . لا تعدو اذا هى تناهت الى أمْنِيَّة أهـل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تَذْرُوه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا ﴾ مع أن امرأ لم يكن منها فى حَبْرة ، إلا أعقبته بعدها عَبْرة ، ولم يَلْقَ من سَرَّائها بطنا ؛ إلا منحته من ضَرَّائها ظهرا . ولم تَطُلَّه[٥] فيها دِيمَةُ رخاء ، إلا هَطلت عليه مُزْنَة بلاء . وحَرِىّ اذا أصبحت له منتصرة ، أن تُمسى له خاذلة مُتَنكِّرة . وانْ جانب منها اعْذَوْذَبَ واحْلَوْلى أمَرَّ عليه جانب وأوْبَى ، وان

(١) يقال : أجر الأمور على أذلالها أى على أحوالها وطرقها التى تصلح لها . قيـل وواحد الأذلال ذل وهو ما مهد من الطريق . (٢) هو أبو نعامة قطـرى بن الفجاءة التميمى كان رئيس الخوارج مدّة طويلة . ولذلك يقول الحريرى فى المقامة السادسة : فقلدوه فى هذا الأمر الزعامة ، تقليد الخوارج أبا نعامة . وكان مقداما قوى النفس من الخطباء المشهورين وهو القائل :

وما للمـــرء خير فى حياة * اذا ماعد من سقط المتـاع

قتل سـنة ٧٨ هـ . (٣) الأزارقة : طائفة من الخوارج ينسبون الى صاحب مذهبهم (عبد الله بن الأزرق) . (٤) الحبرة : النعمة . (٥) طل المطر الأرض : نزل عليها . والديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . والمزنة : المطرة أو السحابة ذات الماء .

لبس آمرؤ من غضارتها(١) ورفاهيتها(٢) نعما، أرهقته من نوائبها نقما . ولم يُمس امرؤ منها فى جناح أمن، إلا أصبح منها على قوادم خوف ، غَرَّارة غُرور ما فيها، فانٍ ما عليها . لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى . من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه(٣) . كم واثق بها قد فجعته وذى طمأنينة اليها قد صرعته وذى احتيال فيها قد خدعته، وكم ذى أبّهة فيها قدصيرته حقيرا، وذى نخوة فيها قد ردّته ذليلا، وذى تاج قد كبّته لليدين وللفم . سلطانها دُوَل، وعيشها رَنِق(٤)، وعذبها أُجاج ، وحُلوها مرّ ، وغِذاؤها سِمام(٥)، وأسبابها رِمام، وقطافها سَلَع(٦) . حيّها بعَرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب(٧) . مع أن من وراء ذلك سكرات الموت وهول المَطْلع والوقوف بين يدى الحكم العدل ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ . ألستم فى مساكن من كان أطول منكم أعمارا ، وأوضح آثارا ، وأعدّ عديدا، وأكثف جنودا، وأعتد عتادا(٨)، وأطول عمادا؟ تعبّدوا(٩) للدنيا أىّ تعبد وآثروها أىّ إيثار، وظعنوا عنها بالكُره والصَّغار . فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية وأغنت عنهم فيما قد أصلتهم بحيلة ؟ بل قد أرهقتهم(١٠) بالفوادح ، وضعضعتهم بالنوائب ، وعقرتهم بالمصائب . وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها وأخلد(١١) اليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، الى آخر الأمد . هل زودتهم إلا الشقاء وأحلتهم إلا الضنك أو نوّرت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة؟

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب . (٢) الرفاهة والرفاهية : لين العيش .
(٣) أوبقه : أهلكه . (٤) الرنق : الكدر . (٥) السمام : جمع سم . والرمام : البالى من الحبال . (٦) السلع : بقلة خبيثة الطعم أو شجر مر أو سم . (٧) المحروب : المسلوب المال .
(٨) العتاد : العدة وعتد : صار عتادا حاضرا . (٩) يريد : خضعوا . (١٠) أرهقه : حمله مالا يطيق . (١١) أخلد اليه : مال .

أفهذه تؤثرون أم على هـذه تحرصون أم اليها تطمئنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ . فبئست الدار لمن أقام فيها ولم يكن على وجل منها . اعلموا وأنتم تعلمون انكم تاركوها لا بد ، فانما هى كما نعت الله عز وجل ﴿لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد﴾ فاتعظوا فيها بالذين كانوا يبنون بكل ريع (١) آية يعبثون ويتخذون مصانع (٢) لعلهم يخلدون ، وبالذين قالوا : من أشدّ منا قوة؟ واتعظوا بمن رأيتم من اخوانكم كيف حملوا الى قبـورهم فلا يدعون ركبانا ، وأنزلوا فلا يدعون ضيفانا . وجعل لهم من الضريح أكنان ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات جيران ؛ فهم جيرة لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما . ان أخصبوا لم يفرحوا وان قحطوا لم يقنطوا . جمع وهم آحاد ، جيرة وهم أبعاد . وهم يزارون ولا يستزيرون . حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دفعهم ، وهم كمن لم يكن . قال الله تعالى : ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾ . استبدلوا بظهر الأرض بطنا ، وبالسعة ضيقا ، وبالآل غربة ، وبالنور ظلمة ؛ ففارقوها كما جاءوها حفاة عراة فرادى ؛ غير أن ظعنوا بأعمالهم الى الحياة الدائمة والى خلود الأبد . يقول الله تعالى : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينـا إنا كنا فاعلين﴾ . فاحذروا ما حذركم الله وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبـله . عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه .

---

(١) الريع : المرتفع من الأرض أو كل فج أو كل طريق . (٢) المصانع : المبانى من القصور والحصون .

باب التأبين[1] والمراثى[2] والتعازى

تأبين أبى بكر الصديق للنبي صـــلى الله عليه وســـلم

دخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسجى[3] بثوب فكشف عنه الثوب وقال : بأبى أنت وأمى! طِبت حيا وطبت ميتا وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النُّبُوّة، فعظمت عن الصفة وجلّت عن البكاء وخَصَصْت حتى صرت مَسْلاة وعَمَمت حتى صرنا فيك سواء . ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لموتك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون[4] . فأمّا مالا نستطيع نفيه عنا فكَمَدٌ[5] وإدْنافٌ يتحالفان ولا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا السلام . اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك؛ فلولا ماخلفت من السَّكينة لم نَقُم لما خَلّفْت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا .

تأبين السيدة عائشة لأبيها

لما تُوُفِّى أبو بكر رضى الله عنه وقفت السيدة عائشة على قبره وقالت : نَضَّر الله وجهك يا أبتِ وشكر لك صالح سعيك؛ فلقد كنت للدنيا مُذِلّا بادبارك عنها وللآخرة مُعِزّا بإقبالك عليها . ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، ان كتاب الله لَيَعِد بحسن الصبر عنك حسن العِوَض منك . وأنا أستنجز مَوْعود الله تعالى بالصبر فيك وأَسْتَقْضِيه بالاستغفار لك . أمَا

(١) التأبين : ذكر محاسن الميت والثناء عليه . (٢) المراثى : جمع مرثاة أو مرثية. من رثيت الميت بكيته وعددت محاسنه ، وأكثر ما يكون شعرا . (٣) مسجى الميت : غطاه .

(٤) الشئون : جمع شأن وهو مجرى الدمع الى العين . (٥) الكمد : الحزن الشديد ، والأدناف = ثقل المرض .

لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا لقد قمت بأمر الدين لمـا وَهَى[1] شَعْبه وتفاقم[2] صَدْعه ورَجَفت[3] جوانبه . فعليك سلام الله توديعَ غير قالية[4] لحياتك ولا زَارِية[5] على القضاء فيك .

تأبين الأحنف بن قيس[6]

مات الأحنف بن قيس بالكوفة فمشى مُصْعَبُ بن الزبير فى جنازته بغير رداء[7]. وقال قوم : مات سر العرب . فلمـا دفن قامت امرأة على قبره فقالت : لله درك[8] من مُجِنٍّ[9] فى جَنَن ، ومُدْرَج فى كَفَن ، فنسأل الذى فَجَعنـا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرُّشد دليلك ، وأن يُوسِع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك ، فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا ، وعلى الأرامل عَطُوفا . ولقد كنت فى الحىّ مسوَّدا ، والى الخليفة موَفَّدا . ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين . «ثم أقبلت على الناس فقالت» : ألا إن أولياء الله فى بلاده ، شهود عباده . وإنى لقائلة حقا ، ومثنية صدقا ، وهو أهل لحسن الثناء ، وطيب البقاء . أما والذى كنتَ من أجَلِه فى عِدَّة ، ومن الحياة الى مُدَّة ، ومن المقدار الى غاية ، ومن الآثار الى نهاية ، الذى رفع عملك ، لمـا قضى أجلك ، لقد عشت حميدا مودودا[10] ، ومت سعيدا مفقودا .

ثم انصرفت وهى تقول :

---

(١) وهى : ضعف . والشعب : الاتصال والالتئام . (٢) تفاقم : عظم . والصدع : الشق فى شىء صلب . (٣) رجف : اضطرب شديدا . (٤) قلاه قلى : أبغضه وكذا قليه . (٥) زرى عليه : عابه . (٦) اسمه الضحاك وكان سيد تميم فى عهده معروفا بالعقل والدهاء والعلم والحلم الى ثبات جنان وحسن بيان ، وحياته مملوءة بجلائل الأعمال وكريم الفعال توفى سنة ٦٧ هـ . (٧) تلك كانت عاداتهم فى جنائز العظماء . (٨) الدر : اللبن والعمل ، ولله درك : كلمة تعجب . (٩) أجنه : ستره . والجنن : القبر ، ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن نْ) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين . (١٠) يقولون : مات فلان غير حميد ولا فقيد أى غير مكترث لفقدانه نقولها : مفقودا ، تريد يحزن الناس فقدك .

لله دَرُّك يا أبا بحـــر ماذا تغيب منـــك فى القبر
لله درك أىَّ حشو ثَرًى أصبحت من عُرْف ومن نُكْر
ان كان دهر فيك جَدَّ لنَا حَدَثَانُه[1] ووهت قوى الصبر
فلكم يد أســـديتها ويد كانت تَرُد جرائر الدهر

ثم انصرفت فسئل عنها فاذا هى آمرأته وابنـة عمه[2] فقال الناس : ماسمعنا كلام امرأة قط أصدق ولا أبلغ منه .

تأبين الإسكندر

لما جعل الإسكندر فى تابوت من ذهب تقدّم اليه أحد الحكماء فقال :

كان الملك يَخْبَأ الذهب وقد صار الآن الذهبُ يخبؤه .

وتقدّم اليه آخر والناس يبكون ويجزعون فقال : حَرّكَنَا بسكونه .

وتقدّم اليه آخر فقال : كان الملك يعظنا فى حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس[3] .

وتقدّم اليه آخر فقال : قد طاف الأرضين وتملكها ثم جعل منها فى أربع أذرع .

ووقف عليه آخر فقال : انظر الى حُلُم النائم كيف انقضى والى ظل الغمام وقد انجلى .

ووقف عليه آخر فقال : مالك لاتُقِلُّ عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل ملك العباد ؟

وقال آخر : مالك لاترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها عن رَحْب البلاد ؟

---

(١) حدثان الدهر : نوائبه . (٢) ذكر صاحب بلاغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقرية . (٣) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال آخر : أمات هذا الميت كثيرا من الناس لئلا يموت وقد مات الآن .

وقال آخر : ما كان أقبح افراطك فى التَجَبُّر أمس مع شدّة خضوعك اليوم !

وقالت بنت دارا (١) : ما علمت أن غالب أبى يُغْلَب .

وقال رئيس الطباخين : قد نُضِدت النضائد (٢) وألقيت الوسائد ونصبت الموائد. ولست أرى عميد المجلس .

تأبين القاضى أحمد (٣) بن أبى دواد

قال أبو بكر بن دريد : كان ابن أبى دُوَاد مؤالفا لأهـل الأدب من أى بلد كانوا وكان قد ضم منهم جماعة يَعُولهم ويَمُونهم . فلما مات حضر ببابه جماعة منهم . ولمـا طلع سريره تقدّم اليه أحدهم فقال :

اليــوم مات نظام الملك واللَّسَن ومات من كان يُسْتَعْدَى على الزمن
وأظلمت سُبُل الآداب اذ حجبت شمس المكارم فى غيم من الكفن

وتقدّم آخر فقال :

ترك المنـابر والسرير تواضـعا وله منـابر لو يَشَـا وســرير
ولغـــيره يُجْـبَى الخــراج وانمـا يُجْبَى اليــه محامد وأجــور

وتقدّم ثالث فقال :

وليس فَتِيقَ المسْك ريحُ حَنُوطه ولكنّه ذاك الثناء المخلَّف
وليس صَرِيرَ النَّعش ماتسـمعونه ولكنه أصــلاب قوم تَقَصَّفُ

(١) هى زوجة الاسكندر . (٢) النضائد : جمع نضيدة وهى ما يحشى من المتاع والوسادة ، ونضد ونضد : وضع . (٣) كان القاضى أحمد بن أبى دواد غزير الأدب جم المروءات بذولا للعروف معوانا للهوف وكانت منزلته من المعتصم والواثق مكينة بحيث كان يزاحم الوزراء وربما تقدّم عليهم توفى سنة ٢٤٠ ه

رثاء الحسين[1] بن مطير لمعن[2] بن زائدة

وقال الحُسَين بن مُطَير يرثى معن بن زائدة :

أَلِمّا على معنٍ وقولا لقبره ... سَقَتْكَ الغوادى مَرْبَعًا ثم مَرْبعا[3]

فياقبر معنٍ أنت أوّل حُفْرة ... من الأرض خُطَّت للسماحة مَضْجَعا

ويا قبر معن كيف وَارَيْت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مُتْرعا[4]

بلى قد وسعت الجود والجود ميِّت ... ولو كان حيا ضِقْت حتى تَصدَّعا

فتى عِيش فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعا

ولما مضى معن مضى الجود وانقضى ... وأصبح عِرْنِينُ[5] المكارم أجدعا

قال محمــود سامى باشا البارودى يرثى زوجه وقد ورد اليه نعيها وهو بسَرَنْديبَ

أَيَدَ المنون قدحت أىَّ زِنَاد ... وأطرتِ أيَّة شُعْلة بفؤادى

أوهنتِ عَزْمى وهو حَمْلَة فيلق ... وحَطَمْت عودى وهو رمح طِراد[6]

لم أدرِ هل خطب ألمَّ بساحتى ... فأناخ أم سهم أصاب سوادى[7]

أَقْذَى العيون فأسبلت بمدامع ... تجرى على الخدَّين كالفِرْصاد[8]

ما كنتُ أحسبُنِى أُراع لحادث ... حتى منيت به فأوهن آدى[9]

(١) شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وكان مذهبه فى شعره شبيها بمذهب أهل البادية .

(٢) هو معن بن زائدة الشيبانى أحد عظماء العرب وأجوادهم المشهورين قتل سنة ١٥١ هـ .

(٣) الغيث المربع : العام المغنى عن الارتياد ، وضبطه التبريزى فى شرح الحماسة بفتح الميم وتكلف فى شرحه على ذلك . والغوادى : جمع غادية وهى السحابة تمطر غدوة . (٤) المترع : المفعم .

(٥) العرنين : الأنف . (٦) الفيلق : الجيش . والطراد : مطاردة الفرسان بعضهم بعضا .

(٧) سواد القلب : كسويدائه . (٨) أسبلت السماء : أمطرت . والفرصاد : صبغ أحمر، والتوت . (٩) الآد والأيد : القوّة .

يا دهر فيم فجعتني بحليلة — كانت خلاصة عُدّتي وعتادي
ان كنت لم ترحم ضَنَاى لبعدها — أفلا رحمت من الأسى أولادي (١)
أفردتهن فلم ينمن توجعا — قرحى العيون رواجف الأكباد
ألقين دُرّ عقودهن وصُغن من — دُرّ الدموع قلائد الأجياد (٢)
يبكين من ولَه فراق حَفيّة — كانت لهن كثيرة الإسعاد (٣)
فخدودهن من الدموع نديّة — وقلوبهن من الهموم صَوَادي (٤)
أسليلة القمرين أيّ فجيعة — جلت لفقدك بين هذا النادي
أعزز على بأن أراك رَهِينَةً — في جوف أغبر قاتم الأسداد
أو أن تبيني عن قرارة منزل — كنت الضياء له بكل سواد
لو كان هذا الدهر يقبل فِدْية — بالنفس عنك لكنت أوّل فادي
أو كان يَرْهَب صَوْلة من فاتك — لفعلت فعل الحارث بن عُباد (٥)
لكنها الأقدار ليس بناجع — فيها سوى التسليم والإخلاد (٦)
هيهات بعدك أن تَقِرّ جوانحي — أسفا لبعدك أو يلين مِهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي — والدمع فيك ملازم لوِسادي
فاذا انتبهت فأنت أوّل فكرتي — واذا أويت فأنت آخر زادي
ورد البريد بغير ما أمّلته — تَعِس البريدُ وشاه وجه الحادي (٧)

---

(١) الضنى : السقم . (٢) الأجياد : جمع جيد وهو موضع القلادة من العنق .

(٣) حفى به كرضى حفاوة فهو حاف وحفىّ واحتفى وتحفى : بالغ فى اكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله . (٤) الصوادى : جمع صاد أو صادية من الصدى وهو العطش .

(٥) الحارث بن عباد من عظماء بكر بن وائل وفرسانها وشجعانها وبه يضرب المثل فى البأس والوفاء وهو الذى أسر مهلهلا فى حرب البسوس وخبر ذلك طويل . (٦) الاخلاد : السكون .

(٧) شاه شوها : قبح . والحادى : السائق .

وَيْلُمِّــهِ رُزْءًا أطار نَعِيُّــه | بالقلب شُــعْلة مارج وَقّاد (١)
لاموا على جزعى ولَمَّا يعلمــوا | أن المــلامة لا تَرُدُّ قِيَادى
سر يا نسـيم فبلغ القـبر الذى | بِحَى الإمام تحيــتى ووِدادى (٢)
تالله ما جفت دموعى بعــد ما | ذهب الرَّدى بك يا ابنةَ الأمجاد
فعليك من قلــبي التَّحيَّةُ كلما | ناحت مُطَوَّقَــةٌ على الأعواد

نخبة مما قال المتنبي يرثى أم سيف الدولة ويعزيه

نُعِــدّ المَشْرَفِيّــة والعــوالى | وتقتلُنا المنون بلا قتــال (٣)
ونَرْتَبِــط السوابق مُقْــرَبات | وما يُنْجِين من خَبَبِ الليــالى (٤)
ومن لم يعشــق الدنيا قديمـا ؟ | ولكن لا ســبيل الى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب | نصيبــك فى منامك من خيــال
رمانى الدهر بالارْزَاء حــتى | فــؤادى فى غِشَاء من نبــال
فصرت اذا أصابتنى سهــام | تكسرت النصال على النصــال
صــلاة الله خالِقنــا حَنُوطٌ | على الوجه المكــفَّن بالجمــال (٥)
أطاب النفس أنــكِ مت موتا | تمنتــه البــواقى والخــوالى
يَمُرّ بقــبرك العَــافى فيبــكى | ويَشْغَله البكاء عن الســؤال (٦)
ولو كان النساء كمن فقدنا | لَفُضِّلتِ النســاء على الرجال

---

(١) ويلمه أصــله : ويل لأمه . والويل : العذاب . ثم ركبت الكلمتان واستعمالتا للتعجب وفى الحديث ويلمه مسعرحرب . والنعى : الناعى . (٢) يريد الأمام الشافعى .
(٣) المشرفية : السيوف . والنسبة الى مشارف الشام وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف وبها كانت تصنع السيوف الجيدة . والعوالى جمع عالية وهى أعلى الرمح . والمراد : الرماح . (٤) المقربات : جمع مقرب أو مقربة وهو المكرم من الخيل . (٥) الحنوط والحناط : كل طيب يخلط للميت .
(٦) العافى : طالب العطاء .

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

وأفجع من فقدنا من وجدنا   قُبَيْل الفقد مفقود المِثال

يدفّن بعضنا بعضا ويمشي   أواخرنا على هام الأوالى (١)

* * *

أسيفَ الدولة استنجد بصبر   وكيف بمثل صبرك للجبال

وأنت تعلم الناس التعزّى   وخوض الموت فى الحرب السِّجال (٢)

وحالات الزمان عليك شتى   وحالك واحد فى كل حال .

رأيتك فى الذين أرى ملوكا   كأنك مستقيم فى محال (٣)

فان تفق الأنام وأنت منهم   فان المسك بعض دم الغزال

رثاء توءمين

قال أبو تمام يرثى ولدين توءمين لعبد الله بن طاهر ماتا فى يوم واحد ويعزيه :

نجمان شاء الله أن لا يَطْلُعا   إلا ارتداد الطرف حتى يأفِلا

ان الفجيعة بالرياض نواضرا   لأجل منها بالرياض ذوابلا

لو يُنْسَأان لكان هذا غاربا   لِلْمَكْرُمات وكان هذا كاهلا (٤)

لَهْفِى على تلك المخايل فيهما   لو أمهلت حتى تكون شمائلا (٥)

لَغَدا سكونهما حِجًا وصِباهما   حِلْما وتلك الأريحيّة نائلا (٦)

---

(١) الأوالى : الأوائل دخلها القلب المكانى ثم الاعلال بالقلب ، ودفن مشددا لم يسمع والقياس يأباه .

(٢) الحرب السجال : التى يكون الغلب فيها متداولا ، وهو من الوصف بالجمع فان السجال : جمع سجل وهو الدلو . (٣) المحال : المغير عن وجهه ، ومراد الشاعر به المعوج وقد عيب على الشاعر هذه المقابلة لأن المستقيم يقابله المعوج . (٤) نسأه : أخره . وثارب البعير : ما بين سنامه وعنقه .

(٥) المخايل : المظان وهى جمع مخيلة . (٦) الحجا : العقل جمعه أحجاء . والأريحية : الارتياح للعروف .

إن الهلال اذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصيرُ بدرا كاملا
قـل للأمير وإن لقيت مُوَقَّرا ... منه يُرِيب الحادثات حُلاحلا[1] :
ان تُرْزَ فى طرفى نهـار واحد ... رُزْأين هاجا لوعة وبَلَابلا[2]
فالثِّقل ليس مضاعفا لمطيّـــة ... إلا اذا ما كانـــ وَهْمًا بازلا[3]

وقال أبو تمــام يرثى محمد بن حميد الطُّوسى[4]

كذا فليجِلَّ الخطب وليَفْدَح الأمر ... فليس لعين لم يفِضْ ماؤها عذر
تُوُفِّيَتِ الآمال بعـــد محمـد ... وأصبح فى شُغل عن السَّفَر السفْر[5]
وما كان إلا مالَ منـــ قل ماله ... وذُخْرا لمن أمسى وليس له ذُخْر
وما كان يدرى مُجْتَدِى جود كفه ... اذا ما استَهَلَّت أنه خُلِق العُسر[6]
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دمًا ضحكت عنه الأحاديث والذِّكر
فتى دهره شَطْرانـــ فيما ينوبه ... ففى بأسه شَطْر وفى جُوده شَطْر
فتى مات بين الضرب والطعن مِيتَةً ... تقوم مقـام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مَضْرِب سيفه ... من الضرب واعتَلَّت عليه القنا السُّمْر[7]
وقد كان فَوت الموت سهلا فردّه ... اليـــه الحِفَاظ المُر والخلق الوَعْر[8]
غدا غَدْوة والحمـد نَسـجُ ردائه ... فـلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

(١) الحلاحل : السيد الشجاع أو الرزين . (٢) البلابل : جمع بلبلة وهى شدّة الهم .
(٣) الوهم : الجمل الذلول فى ضخم وقوة وضمير كان يعود للطية لأنها تقع على الذكر والأنثى كالدابة .
(٤) هذه المرثاة من أحاسن المراثى يروى أن أبا دلف قال لأبى تمام وددت أنى مرثى بهذه القصيدة فقال من رثى بمثلها لم يمت . (٥) السفر جماعة المسافرين . (٦) المجتدى : طالب الجدوى . واستهل المطر : اشتدّ انصبابه . (٧) يقول : انه لم يقتل إلا بعد أن دافع دفاع الأبطال وفل سيفه من كثرة الضرب وتكسرت رماحه من متابعة الطعن . (٨) الحفاظ : الدفاع عن المحارم .

تردّى ثياب الموت حُمرا فما دَجَا لها الليل إلا وهى من سُنْدسٍ خضر (١)

كأنّ بنى نَبْهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر (٢)

يُعَزّونَ عن ثاو تُعَزّى به العلا ويَبكى عليه البأس والجود والشعر

فتى كانَ عذبَ الرُّوح لا من غضاضة ولكنَّ كِبْرا أن يقال به كِبْر (٣)

فتى سَلَبته الخيل وهو حِمًى لها وبَزَّته نار الحرب وهو لها جَمْر

لئن أُبْغِض الدهر الخَئونُ لفَقْده لَعَهْدى به ممن يُحَب له الدهر

مضى طاهر الأثواب لم تبق رَوْضة غَداةَ ثَوَى إلا اشتهت أنها قبر

ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويَغْمُر صَرْفَ الدهر نائلُه الغَمْر (٤)

عليك سلام الله وَقْفا فاننى رأيت الكريم الحر ليس له عُمْر

وقال حافظ بك ابراهيم يرثى البارودى

رُدّوا على بيانى بعد محمود إنى عَيِيت وأعيا الشعرُ مَجْهودى

ما للبلاغة غَضْبى لا تطاوعنى ؟ وما لحبل القوافى غيرَ ممدود ؟

ظنت سُكوتىَ صفحا عن مودّته فأسْلَمَتْنى الى همّ وتسهيد (٥)

ولو درت أن هذا الخطب أفحمنى لأطلقت من لسانى كل معقود

لبّيك يامُؤْنِسَ المَوْتَى وموحِشَنا يا فارس الشعر والهيجاء والجود

مُلْك القلوب وأنت المستقل به أبْقى على الدهر من ملك ابن داود (٦)

لبيك يا شاعرا ضن الزمان به على النُّهى والقوافى والأناشيد

(١) يقول : تسربل بدمائه الحمراء ولم يأت الليل إلا وقد تبدّلت ثيابا سندسية خضراء لأنه مات شهيدا . والسندس : ضرب من رقيق الديباج . (٢) بنو نبهان : رهط محمد بن حميد وهم بطن من طيّ . (٣) الغضاضة : المذلة . (٤) النائل : العطاء . والغمر : الكثير . (٥) سهده : أرقه أى لم يدعه ينام . (٦) ابن داود : سيدنا سليمان .

تجزى السّلاسَة فى أثناء منطقـــه تحت الفصاحة جرى المـاء فى العود

لو حَنّطوك بشـعر أنتَ قائـــله غُنّيت عن نَفَحات المسك والعود

لبّيـك ياخير من هَزَّ اليراع ومن هز الحُسَام ومن لَبّى ومن نُودى (١)

إن هُدَّ رُكنُك منكوبا فقد رفعت لك الفضـيلة ركنا غير مهـــدود

إن المناصب فى عزل وتوليـــة غير المواهب فى ذكر وتخليـــد

كم وقفـــة لك والأبطال طائرة والحرب تضرب صِنْديدا بصنديد (٢)

نسخت يوم كَريدٍ كلَّ ما نقــلوا فى يوم ذى قار عن هانى بن مسعود (٣)

نظمت أعداك فى سلك القَنَاة به على رَوِىٍّ ولكن غير معهـــود (٤)

كأنهـــم كلهـــم والموت قافية يرمى به عربى غـــير رعديد (٥)

أقول للـــلأ الغـادى بموكبِـــه والناس ما بين مَكبود ومفئود: (٦)

غضوا العيون فان الروح يصحبكم مـــع الملائـك تكريمـا لمحمـود

ياويحَهُ حل فيـه ذو قريحتِـــه لهـا بخـدر المعانى ألف مولود (٧)

محمود! إنى لا ستحييك فى كلمى حيا وميتا وان أبدعت تقصيدى

فاعذِر قريضى واعذر فيـك قائله كلاهمـا بين مضعوف ومحدود (٨)

---

(١) لبى : قال لبيك أى أجاب . (٢) الصنديد : السيد الشجاع .

(٣) يريد بيوم كريد ثورة أهل كريد على الدولة العثمانية ، وللبارودى فى قتال أهل كريد اذ ذاك مواقف وصفها فى احدى قصائده . و يوم ذى قار يوم كان بين العرب والفرس بعيد البعثة ، وقد كان رئيس العرب هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيبانى و يعرف بهانئ بن مسعود وقد كان النصر للعرب على الفرس وقد أبلى هانئ بلاء حسنا فى هذه الحرب . (٤) الروى : الحرف الاخير فى أبيات القصيدة كالدال فى هذه القصيدة . (٥) الرعديد والرعديدة : الجبان والتاء فى الثانى للمبالغة . (٦) المكبود : المصاب الكبد . والمفئود : المصاب الفؤاد . (٧) ذو بمعنى الذى : وهى لغة طيئ .

(٨) المحدود : ضدّ المجدود أى السيء الحظ .

وقال أبو الحسن التِّهامى (١) يرثى ولده

حـــكم المنيـــة فى الـــبرية جارى ... ما هـــذه الدنيـا بدار قـــرار

بينـا يُرَى الانسان فيهـا مخـــبرا ... حتى يُرَى خَـــبَرًا من الأخبـار

طبعت على كدر وأنت تريدهـا ... صفوا من الأحزان والأكدار

ومكلّف الأيام ضِـــدَّ طباعهـا ... مُتَطَلِّب فى المـاء جُـــذْوة نار (٢)

واذا رجوت المستحيل فانمـا ... تبنى الرجاء على شـــفير هارى (٣)

فالعيش نوم والمنيـــة يقظـــة ... والمـــرء بينهما خيـال سـارى

فاقضـــوا مآربكم عجـالا، انمـا ... أعمـاركم سـفر من الأسـفار

وَتَراكَضُوا خيل الشباب وبادروا ... أن تسـترد فانهن عـــوارى (٤)

فالدهر يخدع بالمنى ويُغص إن ... هنّـا ويهـــدم ما بنى ببَـــوار

ليس الزمان وان حرصت مسالمـا ... خُـــلُق الزمان عداوة الأحرار

إنى وُتِرت بصارم ذى رَوْنق ... أعـــددته لطِـــلَابة الأوتار (٥)

والنفس إن رضيت بذلك أو أبت ... منقـــادة بأزمّـــة المِقْـــدار (٦)

أثنى عليـــه بِأَثْـــره ولوَ انّه ... لم يُعْتَبَـــط أثنيت بالآثار (٧)

يا كوكبا ما كان أقصرَ عُمْـرَه ... وكذاك عمـر كواكب الأسحـار (٨)

---

(١) هو على بن محمد شاعر محسن اثنى عليه ابن بسام فى الذخيرة، دخل مصر وقتل فى القاهرة سنة ٤١٦هـ

(٢) الجذوة مثلثة : القطعة من النار . (٣) الشفير : جانب الشىء . وهار البناء والجرف : انصدع يريد أن ينقض فاذا انقض فقد انهار واسم الفاعل من هار هائر فاذا دخله القلب المكانى فهـو هار كما فى البيت . (٤) تراكض الخيل : التسابق بها، وقوله بادروا أن تسترد أى خشية أن تسترد أو بادروا استردادها . وخيل الشباب : ما فيه من قوة وعنفوان . (٥) الطلابة : يريد بها الطلب ولم أعثر على هذه الكلمة فى اللسان والقاموس وليست مما يجاء به قياسا وليس التهامى ممن يحتج بشعره . والأوتار : جمع وتر وهو الثأر . (٦) المقدار : القدر . (٧) أثر السيف : فرنده وورنقة واعتبط : مات شابا صحيحا . (٨) فى البيت معنى دقيق وذلك أنه جاء بابنـه فى كبره وشيخوخته فهو شبيه بكواكب آخر الليل التى لا تظهر إلا قليلا .

وهلالَ أيامٍ مضى لم يســـتدِر | بدرا ولم يُمْهَــل لوقت سِرَار (١)
عَجِل الخسوف عليــه قبل أوانه | فمحاه قبلَ مَظِنَّـــة الإبْـــدار (٢)
واسْـــتُلّ من أترابه ولداته | كالمقلة اسْتُلَّت من الأشفار (٣)
فكأنّ قلبى قبره وكأنه | فى طيــه سِرٌّ من الأسرار
إن يُعْتَبَط صغرا فرُبَّ مُقَمَّم | يَبْــدو ضئيــل الشخص للنُّظَّار (٤)
إن الكواكب فى علو محلها | لتُرَى صِــغارا وهى غير صــغار
ولد المُعَــزَّى بعضــه فاذا مضى | بعض الفــتى فالكل فى الآثار
أبكيــه ثم أقول معتَــذِرا له | وُفِّقْتَ حين تركت أَلْأَمَ دار
جاورتُ أعدائى وجاور ربه | شتان بين جواره وجوارى
أشكو بِعَادك لى وأنت بموضع | لولا الرَّدَى لسمعت فيه مزارى
والشرق نحو الغرب أقرب شُــقّة | من بعد تلك الخمسة الأشبار (٥)
هيهات قد عَلِقَتك أسباب الرَّدى | واغتــال عمــرك قاطع الأعمــار
ولقــد جريتَ كما جريتُ لغاية | فبلغتـــها وأبوك فى المِضْـــمار (٦)
فاذا نطقتُ فأنت أول منطــقى | واذا سَــكَتُّ فأنت فى إضمــارى
أخفى من البُرَحاء نارا مثل ما | يخفى من النــار الزِّنادُ الوارى (٧)
وأُخَفِّضُ الزَّفَرَات وهى صواعد | وأُكَفْكِفُ العبراتِ وهى جوارى
وشهــاب نار الحزن إن طاوعتــه | أورى وإن عاصــيتَه متوارى (٨)

(١) السرار : آخر ليلة من الشهر . (٢) الابدار : صيرورة القمر بدرا .
(٣) الأتراب : جمع ترب . واللدات : جمع لدة كعدة ، وكلاهما بمعنى النظير فى السن . والأشفار : جمع شفر وهو أصل منبت الشعر فى الجفن . (٤) قمم الكوكب : بلغ كبد السماء فصار على قمة الرأس .
(٥) الشقة : المسافة . (٦) المضمار : الموضع تضمر فيه الخيل . (٧) برحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى . (٨) قوله متوار، على تقدير مبتدأ محذوف مع فاء الربط أى فهو متوار .

وَأَكُفُّ نيران الأسى ولربما ... غلب التَّصــبر فارتمت بِشَرارِ (١)

ثوب الرياء يَشِف عما تحتــه ... فاذا التحفت به فانــك عارى

قَصُرت جفونى أم تباعد بينها ... أم صُــوِّرت عينى بلا أشــفار

جَفَت الكرى حتى كأن غِراره ... عند اغتماض العين وخز غِرار (٢)

ولو اسْــتَزارتْ رَقْــدة لَطَحَا بها ... مابين أجفــانى من التَّيــار (٣)

أحيي الليــالى الــتِّم وهى تُمِيتُنِي ... و يميتهن تبَــلُّج الأسحــار

حتى رأيت الصــبح تَهْتِك كفه ... بالضوءِ رَفْــرَف خيمــة كالقار (٤)

والصــبح قــد غمر النجوم كأنه ... ســيل طغى فَطَفــا على النُّوّار (٥)

وقال لبيد بن ربيعة يرثى اخاه لامه اربد

بَلينا وما تَبْــلَى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبــال بعــدنا والمصانع

وقد كنت فى أكناف دار مُظِلَّة ... ففــارقنى جار بأربد نافــع (٦)

فلا جَزَعٌ ان فرَّق الدهر بيننــا ... وكل امرئ يوما به الدهر فاجع

وما الناس إلا كالديار وأهلُهــا ... بهــا يومَ حَلُّوها وغَدْوًا بلاقــع (٧)

وما المــرء إلا كالشِّهاب وضوئه ... يَحُور رَمَادا بعــد اذ هو ساطع (٨)

وما البِرُّ إلا مُضْمَرات من التقى ... وما المــال إلا عَارِيَات ودائع

أليس ورائى إن تَرَاخَتْ مَنِيتى ... لُزُومُ العصا تُحْنَى عليهــا الأصابع

---

(١) الشرار ككتّاب والشرر : ما تطاير من النار واحدتهما بهاء . (٢) الغرار : القليل من النوم . والغرر أيضا : حد الرمح والسهم والسيف . (٣) طحابه : ذهب به . والتيار : موج البحر . (٤) الرفرف . طرف الخيمة . (٥) النوار كرمان : الزهر أو الأبيض منه فقط . (٦) الباء فى قوله بأربد بمعنى من على نحو قولهم : لى منك صديق حميم . (٧) الغدو والغد واحد حذفت من الثانى لامه كما حذفت من يد ودم . والبلاقع : جمع بلقع وهو الخالى القفر وقد يوصف المفرد بالجمع و بالعكس فيقال : دار بلاقع وديار بلقع . (٨) يحور : يصير .

فلا تَبْعَــدَن إن المنية موعد — علينا فَدانٍ للطلوع وطالع
أَتجْزَع مما أحدث الدهر بالفتى؟ — وأىُّ كريم لم تصبــه القوارع؟
لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى[1] — ولا زاجرات الطير ما الله صانع

نخبة مما قال محمد[2] بن كعب الغنوى يرثى أخاه

تقول ٱبنة العبسى قد شِبْت بعدنا — وكل ٱمرئ بعد الشباب يشيب
وما الشيب إلا غائب كان جائيا — وما القول إلا مخطئ ومُصيب
تقول سليمى ما لجسمك شَاحِبًا[3] — كأنك يحميك الشرابَ طبيب
فقلت ولم أَعْىَ[4] الجواب لقولها — وللدهر فى الصُّمِّ الصِّلاب نصيب
تَتَابُعَ أحداث تَخَــرَّ من اخوتى — فشيبن رأسى والخطوب تُشيب
لعمرى لئن كانت أصابت مَنِيّــةٌ — أخى والمنـايا للرجال شَــعوب[5]
لقــد كان : أمَّا حِلمه فمــروّح[6] — عليــه وأما جهــله فعــزيب
أخى ما أخى! لا فَاحِش[7] عند بيْتِه — ولا وَرَعٌ عنــد اللقــاء هَيوب
أخى كان يَكْفينى وكان يُعيننى — على نائبات الدهر حين تَنُوب
هو العســل المــاذىُّ[8] لِينا ونَائلا — وليث اذا يلقى العُــدَاة غَضُوب

(١) الطوارق : المتكهنات . (٢) كثر اختلاف أهل الأدب فى آسم صاحب هذه القصــيدة فقد ذكر صاحب الجمهرة أن اسمه محمد بن كعب ، وذكر البغدادى والسيوطى أن آسمه كعب ابن سعد وقد سبقهما الى ذلك القالى فى أماليه . وفى كل حال فالغنوى شاعر إسلامى .

(٣) الشحوب : التغير من هزال أو جوع أو سفر . (٤) عيي بالأمر وعييه : عجز عنــه وقد تدغم الياءان . (٥) شــعوب أى مفرقة وشعوب من أسماء المنية . (٦) مروح عليه : مردود اليه والمراد لا يفارقه . وعزيب : بعيد . (٧) الفاحش : البخيل والورع (هنا) : الجبان الضعيف . والهيوب : الشديد الخوف . (٨) المــاذى : الخالص من العسل أو جديده أو جيده .

كأن بُيوت الحىِّ ما لم يكن بهـا بسابس لا يلفى بهن عريب (١)
جَمُوع خِلَال الخير من كل جانب اذا جَاء جَيَّـاء بهن ذَهُوب
مُفِيـد مفيت الفائدات معـَوّد لفعل الندى والمكرماتِ كَسُوب (٢)
فتى لا يبالى أن يكون بجسـمه اذا نال خَلَّات الكرام شُحُـوب
حَليف الندى يدعو الندى فيجيبه سَريعا ويدعوه النـدى فيجيب
فتى أرْيَحِىٌّ كان يهتز للنـدى كما اهـتزّ من ماء الحديد قضيب (٣)
اذا ما تراءاه الرجال تَحَفَّـظوا فلم ينْطِقوا العـوراءَ وهو قريب (٤)
حليم اذا ما الحلم زَيَّن أهـله مع الحلم فى عين العدوّ مَهِيب (٥)
غَنِينا بخـير حِقْبـة ثم جَلّحت علينا التى كلَّ الأنام تصيب (٦)
فان تكن الأيام أحسنَّ مرة الىّ فقـد عادت لهن ذُنوب
أتى دون حُلْو العيش حـتى أَمَرّه نُكُوب على آثارهن نكوب (٧)

وقالت الفارعة بنت شدّاد ترثى أخاها

يا عين بَكِّى لمسعود بن شَدَّاد بكاء ذى عَبَرات شَجْـوُهُ بادى (٨)
من لا يُذاب له شحم السَّديف ولا يَجْفو العيال اذا ما ضُنَّ بالزاد (٩)
ولا يحل اذا ما حل مُنْتَبِـذًا يخشى الرَّزِيَّة بين المـاء والبادى (١٠)

---

(١) البسابس : جمع بسبس وهو القفر الخالى . ويقال : ما بالمكان عريب أى أحد ولا يستعمل فى غير النفى . (٢) المفيد : المستفيد . وأفاد مالا : استفاده .
(٣) الأريحى : الذى يرتاح لفعل الخير ويطرب للعروف . (٤) العوراء : الكلمة الشائنة .
(٥) لقـد أجاد الشاعر الاحتراس فى هـذا البيت أيما اجاده . (٦) غنى : أقام . والتجليح : الاقـدام والهجوم . (٧) النكوب : جمع نكب وهو النكبة . (٨) الشجو : الحزن .
(٩) السديف : شحم السنام وهو أجود شحم البعير . تقول : لايستأثر بخيار الطعام وقت الفاقة دون ضيفه وعيـاله . (١٠) المنتبـذ : المتنحى المنفرد . تقول : لا ينفرد خيشة العفاة والضيفان .

قَوّال مُحْكَمَة، نَقّاض مُبْرَمَة، فَتّاح مُبْهَمَة، حَبّاس أوراد (١)
حَلّال مُمْرِعة، فَرّاج مُفْظِعة، حَمّال مُضلِعة، طَلّاع أنجاد (٢)
قَتّال مَسْغَبَة، وَثّاب مَرْقَبة، مَنّاع مَغْلَبَة، فَكّاك أقياد (٣)
حَمّال ألوية، شَهّاد أندية، سَدّاد أوْهِيَة، فَتّاح أسداد (٤)
جماع كل خصال الخير قد علموا زين القرين ونِكْل الظالم العادى (٥)
أبَا زُرَارة لا تَبْعَدْ فكل فتى يوما رَهِين صَفِيحات وأعواد
هو الفتى يُحْمَد الجيران مَشْهده عند الشتاء وقد همّوا باخماد (٦)
نِعْم الفتى ويمين الله قد علموا يَخْلو به الحى أو يغدو به الغادى
الطاعن الطَّعْنة النَّجلاء يتبعها مُثْعَنْجِر بعد ما تغلى بِأزباد (٧)

وقال المعرى (٨) فى رثاء فقيه

غير مُجْدٍ فى ملتى واعتقادى نَوْح باك ولا تَرَنُّم شادى (٩)
وشبيه صوت النَّعِيّ اذا قيس بصوت البشير فى كل نادى (١٠)
أبكت تلكمُ الحمامة أم غنّت على فرع غصنها المَيّاد (١١)
صَاحِ هذى قبورنا تملأ الرَّحْب فأين القبور من عهد عاد؟

(١) الأوراد: جمع ورد وهو القوم يردون الماء. (٢) الممرعة: الأرض المكلئة أو المخصبة. والمفظعة: النازلة الشديدة والمضلعة: المثقلة. ويقال: هو طلاع أنجاد وطلاع أنجد ونجاد وأنجدة أى ضابط للأمور غالب لها. (٣) المسغبة: الجوع. والمرقبة: الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب. (٤) الأوهيه: جمع وهى كوزن وهو الشق فى الشيء وهذا جمع نادر لأن أفعلة لا يجيء جمعا إلا لاسم مذكر رباعى قبل آخره مدّ كغراب وأغربة. (٥) يقال: انه لنكل شر اذا كان بلاء على أعدائه. (٦) تقول: هو المحمود المحضر وقت القحط وقد هم الناس باطفاء النيران خشية قدوم الضيفان. (٧) المثعنجر: الدم الكثير. (٨) هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله حكيم الشعراء وشاعر الحكماء ونابغة من نوابغ العرب توفى سنة ٤٤٩ هـ. (٩) الشادى: المتغنى. (١٠) النعى والناعى: المخبر بوفاة الميت. (١١) المياد: الكثير الاهتزار.

خَفّف الوَطْء ما أظن أديم الـ — أرض إلا من هذه الأجساد (١)
وقبيح بنا وان قَـدُم العهـ — ـد هوان الآباء والأجداد
سِر إنِ اسطعت فى الهواء رُوَيْدا — لا اختيالا على رُفَات العباد (٢)
رب لحد قد صار لحدا مرارا — ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين — فى طويل الازمان والآباد
فاسأل الفَرْقَدين عمن أحَسَّا — من قبيل وآنَسَا من بلاد (٣)
كم أقاما على زوال نهار — وأنارا لِمُدْلِج فى سواد
تعب كلُّها الحياة فما أعْـ — ـجب إلا من راغب فى ازدياد
ان حُزْنا فى ساعة الموت أضعا — ف سرور فى ساعة الميلاد
خُلِق الناس للبقاء فَضَلَّت — أمة يحسَبونهم للنَّفاد
انما يُنْقَلون من دار أعما — ل الى دار شِقْوة أو رشاد
ضَجْعَة الموت رَقْدة يستريح الـ — ـجسم فيها والعيش مثل السُّهاد (٤)
بان أمر الاله واختلف النا — س فداع الى ضلال وهادى
والذى حارت البرية فيه — حيوان مُسْتَحْدَثٌ من جماد
واللبيب اللبيب من ليس يغترّ — بكون مَصِيرُه للفساد

تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بن جبل

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل يعزّيه بابن له :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل . سلام عليك فإنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو (٥). أما بعد، فعظّم الله لك الأجر، وألهمك الصبر،

---

(١) أديم الأرض : وجهها . (٢) الرفات : الحطام وزنا ومعنى . (٣) الفرقدان : كوكبان من الكواكب لا يغيبان وهذا هو السر فى اختصاصهما بالسؤال . (٤) السهاد : الأرق . (٥) قال الخليل : معنى قولهم فى الكتب : أحمد اليك الله أى أحمد معك الله ، وقال غيره : الى بمعنى عند أى أحمد عندك الله .

ورزقنا وإياك الشكر.ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السّنية وعَوارفه[1] المستَوْدَعَة نُمَتَّع بهـا الى أجَل معدود وتُقْبَض لوقت معـلوم ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى والصبر اذا أبْتَلى . وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعوارفه المستودعة مَتَّعَك به فى غِبْطة وسرور وقبضه منك بأجر كثير . الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحْتَسَبت[2] . فلا تجمعن عليك يامعاذ خَصْلتين أن يُحْبِط[3] جَزَعك صبرك فَتَنْدم على مافاتك . ولو قَدِمت على ثواب مصيبتك قد أَطَعْت ربك وتَنَجَّزت[4] موعوده عرفت أن المصيبة قد قَصُرَت عنه . واعلم أن الجَزَع لايَرُدّ ميتا ولا يدفع حزنا فأحسن الجزاء وتَنَجَّز الموعود . وليُذْهِبْ أَسَفَك ما هو نازل بك فكأنْ قَدْ[5] .

وكتب بديع الزمان الهمذانى يعزى بعض الرؤساء :

اذا ما الدهر جرعلى أناس حـــوادثه أَنَاخ بآخرينـا
فقل للشامتين بنا أفيقـــوا ســيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما فى الدهر عُمومه بالنّوائب ، وخُصُوصه بالرّغائب ؛ فهو يدعو الجفلَى[6] اذا أساء، ويخص بالنعمة اذا شاء . فلْيُفَكِّر الشامت فان كان أَفْلَت فله أن يَشْمت . ولينظر الانسان فى الدهر وصُرُوفه والموت وصنوفه ومن فاتحة أمره الى خاتمة عمره . هل يجد لنفسه أَثَرًا فى نفسه؟ أم لتدبيره عونا على تصويره؟ أم لعمله تقديما لأمله؟ أم لحيله تأخيرا لأجله؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا خُلِق مقهورا ورُزِق

(١) العوارف : النعم ، مفرده عارفة .
(٢) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .
(٣) أحبطه : أبطله .
(٤) تنجز حاجته واستنجزها : استنجحها ، والوعد سأل انجازه .
(٥) أى كأن قد نزل ، فالفعل محذوف وهذا كثير بعد قد .
(٦) الجفلى : الدعوة العامة وعكسها النقرى .

مقدورا فهو يحيا جبْرا ويَهْلِك صَبْرا . وليتأمل المرء كيف كان قبـلا فان كان العدم أَصْلا والوجود فضلا فليعلم الموتَ عَدْلا . والعاقل من رَقَّع من جوانب الدهر ما ساء بمـا سَرَّ ليذهب ما نفع بما ضَرّ فان أحب أن يحزن فلينظر يَمْنَة هل يرى إلا مِحْنَة ، ثم لِيَعْطف يَسرة هل يرى إلا حسرة . والموت ــ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ــ خطب قد عظُم حتى هان وأمر قد خَشُن حتى لان ونُكْر قد عمَّ حتى عاد عُرْفا والدنيا قد تَنَكَّرت حتى صار الموت أخف خُطوبها وخَبُثَتْ حتى صار أقل عيوبها . ولعل هـذا السهم قد صار آخر ما فى كِنَانتها وأنكى ما فى خزانتها . ونحن معاشرَ التبع نتعلم الأدب من أخلاقه والجميل من أفعاله فلا نَحُثُّه على الجميل وهو الصبر ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر فَلْيَرَ فيهما رأيه ان شاء الله .

وكتب أبو الفضل الميكالى يعزى :

لَئن كانت الرَّزية بمصيبته مؤلِمَة ، وطرق العزاء والسَّلْوَى مُبْهَمة ، لقـد حلّت بساحة من لا تَنْتَقِض بها مَرَائره(١) ، ولا تَضْعُف عن احتمالها بصائره ، بل تلقاها بصدر فَسِيح ، يتحامى أن يَفْتَح الحزن بابه ، وصـبر مُشِيح(٢) ، يخشى أن يُحْبِـط الجزع أجره وثوابه . ولِمَ لا وآداب الدين من عنـده تلتمس ، وأحكام الشرع من بَنَانه ولسَانه تُستفاد وتُقْتَبس ، والعيون تَرْمُقه فى هذه الحالة لتجرى على سَنَنه ، وتأخذ بآدابه وسُنَنِه . فان تُعَزَّ القلوب فبحسن تماسكه(٣) عزاؤها ، وان حسنت الأفعال فالى حميـد أفعاله ومذاهبه اعتزاؤها(٤) .

(١) المرائر : جمع مريرة وهى العزيمة القوية . وانتقض : انحل أو ضعف .

(٢) المشيح : الجاد فى الأمر ، والمراد هنا : البالغ العظيم .

(٣) التماسك : التجلد .

(٤) الاعتزاء : الانتساب .

وكتب أبو الفضل الميكالى يعزى أبا عمرو البحترى :

سقى الله رُوحه ونَوَّر ضريحه ؛ فلقد عاش نَبيه الذكر ، جليل القدر، عَبِق[1] الثناء والنَّشْر، يَتَجَمَّل به أهل بلدته ، ويتباهى بمكانه ذوو مودّته ، ويفتخر الأَثَر[2] وحاملوه بتَرَاخى بقائه ومـدّته . حتى اذا تسَنَّم[3] ذُروة الفضائل والمناقب ، وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب ، اختطفته يد المقدار، ومحت آثاره بين الآثار . فالفضل خاشع الطرف لفقده ، والكرم خالى الرَّبْع من بَعْـده ، والحديث يَنْدُب حافظه ودارسه ، وحسن العهد يبكى كافله وحارسه .

جمــع بين تعزية وتهنئة

لمـا تُوُفّى معاوية رحمه الله واستخلف ابنه يزيد اجتمع الناس على بابه ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية حتى أتى عبـد الله بن همام السَّلولى فدخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين آجَرك الله على الرَّزِية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرَّعِيَّة ؛ فلقد رُزِئت عظيما ، وأُعطيت جسيما ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت ؛ فَقَد فقدت خليفة الله ، ومُنِحْت خلافة الله ؛ ففارقت جليلا ، ووُهِبت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نَحْبه[4] ، فغفر الله ذنبه . ووُلِّيت الرياسة ، فأعطِيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ووفقك لصالح الأمور .

فاصبر يزيدُ فقد فارقت ذامِقَـــةٍ[5] واشكر حِبَاء الذى بالملك أصفاكا

لا رُزْء اصبح فى الأقوام نَعْلمـــه كما رُزِيت ولا عُقْـــبى كعقباكا

(١) يقال : رجل عبق وامرأة عبقة اذا كانا يبقى بهما أثر الطيب طويلا وان كان قليلا .

(٢) المراد بالأثر حديث رسول الله لأن المتوفى كان به ضليعا .

(٣) تسنم الشيء : علاه . (٤) النحب : الأجل والمدّة .

(٥) المقة كعدة : المحبة ، والفعل كوعد .

أصبحت والى أمرِ الناس كلّهم فأنت ترعاهـــم والله يرعاكا
وفى معاويةَ البـاقى لنـا خَلَفٌ اذا نُعيت ولا نَسْـــمعْ بمنعاكا

فكان عبد الله أوّل من فتح الباب فى الجمع بين تعزية وتهنئة فو بلجه الناس (١) .

وقد أحسن جمال الدين (٢) بن نُبَاتة إذ يقول معزيا عن مَلِك ومهنئا بمُلْك :

هَنَـاء محا ذاك العَـــزَاء المقــدَّما فمـا عَبَس المحزونــ حتى تبسَّما
ثُغُور ابتسـام فى ثُغُور مــــدامع شبيهان لا يمتـاز ذو السَّـبْق منهما
تَرِدّ مَجارِى الدمـــع والبِشْرُ واضح كوابِلِ غَيْثٍ فى ضُحى الشمس قدهَمَى
ســقى الغيث عنا تُرْبةَ الملك الذى عَهِـدنا سجاياه أعز وأكـرما
ودامت يد النُّعمى على الملك الذى تَدَانَتْ به الدنيـا وعَزّ بـــه الحِمَى
مليكان هــذا قد هَـوَى لِضَرِيحه بِرَغْمِى وهـــذا للأسرَّة قــد سما
ودَوْحَةِ فضـــل شَاذَوِىّ تكافأت (٣) فغصن ذوى منهـا وآخر قـــد نمى
كأن ديار الملك غَابٌ اذا انقضى به ضَـيْغم أنشـا له الدهر ضـيغما
فان تك أوقات المؤيد قـد خلت فقد جددت عُلْيَاك وَقْتًا ومَوْسمـا
هو الغيث ولّى بالثنـاء مُشَــيَّعا وأبقاك بحـــرا بالمواهب مُفْعـما
اذا الغيث صَلَّى خلف جَدْواك رَاكعا ثَنَتْ عَزْمه لِلإعــتراف فَسَلَّمـا (٤)
يَراعك يوم السَّـــلم يَنْهَل دِيمَــةً وسيفك يوم الحرب يَنْهَل فى الدما

(١) كذا ذكر كثير من أهل الأدب ، ويروى أن غيره سبقه الى ذلك . (٢) هو كاتب شاعر أديب توفى سنة ٧٦٨ هـ . (٣) شاذوى أى منسوب الى شاذى وهو جد الملوك الأيوبيين فان أيوب ابن شاذى . (٤) يقول : اذا أراد الغيث أن يقتدى بك فى فضـله اضطره بحر عطائك أنه يعترف لك بالفضل والفواق ، وفى البيت تورية بديعة فى صلى وسلم ، وقطع همزة اعتراف للوزن .

فعش للورى واسلم ســـعيدا مهنّأ لحظ الورى فى أن تعيش وتسلمـا
أعدتَ زمانَ البِشْر والجود والثنـا الى أن ملأت العين والكف والفما (١)

تعزية عن ولاية

كتب حَمْدون بن نهران إلى عامل عُزِل عن عمله :

بلغنى — أعزك الله — انصرافُك عن عمـلك ورجوعك الى منزلك فَسُرِرْت بذلك ولم أستفْظِعه وأجزع له لعلمى بأن قدرك أجلّ وأعلى من أن يرفعك عمل تتولاه أو يضعك عزل عنـه . ووالله لو لم تختر الانصراف وترد الاعتزال لكان فى لطف تدبيرك وثُقُوب رويّتك وحسن تأتّيك (٢) ما تزيل به السبب الداعى الى عزلك والباعث على صرفك. ونحن بأن نهنئك بهذه الحال أولى مِنّا بأن نعزيك، إذ أردت الانصراف فأوتيته وأحببت الاعتزال فأعطيته. فبارك الله لك فى مُنْقلبك وهنأك النعم بدوامها ورزقك الشكر الموجب لها الزائد فيها .

---

(١) يقول : الى أن ملأت العين بهاء والكف عطاء والفم ثناء .

(٢) التأتى : حسن الاحتيال لنيل المطلوب .

باب الاستعطاف والاعتذار

استعطاف أم جعفر[1] بن يحيى الرشيدَ لأجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر[2] وربَّته فى حِجْرها وغذَّته بِرِسْلها[3] وكان الرشيد يشاورها مظهرا لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كَفَالتها أن لا يَحْجُبَها ولا استَشْفَعته لأحد إلا شفَّعها . وآلت أم جعفر أنْ لَا دخلت عليه إلا مأذونا لها . ولا شَفَعت لأحد مقترف ذنبا . فكم أسيرٍ فَكَّتْ ، ومُبْهَم عنده فتحت ، ومُسْتَغْلِقٍ[4] منه فَرَّجت . فلما قتل ابنها جعفرا وحبس يحيى زوجها وسائر أهل بيته طلبت الإذن عليه ومَتَّت[5] بوسائلها اليه فلم يأذن لها ولا أمر بشىء فيها . فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لِثامَها مُحْتَفِية فى مِشْيَتها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظِئْر[6] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شَفَقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أوَ ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، حافية . قال : أدخلها يا عبد الملك فرب كَبِدٍ غَذتها ، وكُرْبة فَرَّجتها ، وعورة سَتَرتها . فدخلت فلما نظر الرشيد اليها داخلة

---

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ، وذكر الطبرى أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عتابة وكذا صاحب نجباء الأبناء ، وذكر بعضهم أن اسمها عبادة والله أعلم . (٢) كذا ذكر صاحب العقد ، وذكر الطبرى أنها أرضعته مع الفضل و يؤيده قول سليمان الأعمى يرثى جعفرا و يستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله فى الفضل بن يحيى رضيعك والرضيع له ذمام

(٣) الرسل : اللبن . (٤) المستغلق : المغلق . (٥) مت اليه : توسل بقرابة أو نحوها .
(٦) الظئر : المرضعة .

مُحْتَفِية قام مُحْتَفيا حتى تلقاها بين عَمَد المجلس وأكّب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ثم أجلسها معه . فقالت : يا أمير المؤمنين أيَعْدُو علينا الزمان، ويجفونا خوفا لك الأعوان، ويُحْرِدك علينا البهتان، وقد رَبَّيتك فى حِجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى . فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه، وتعرضه لِلْحَتْف فى شأن موسى أخيه . فقال لها : يا أم الرشيد أمر سَبَق، وقضاء حمّ، وغضب من الله نفذ . قالت : يا أمير المؤمنين ﴿ يمحو الله ما يشاء ويُثْبِت وعنده أم الكتاب ﴾ . قال : صدقتِ، فهذا مما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطْرَق الرشيد مَلِيًّا ثم قال :

وإذا المنيّة أنْشَبَتْ أظفارَها ألفيتَ كُلَّ تميمة لا تنفع[5]

فقالت بغير رويّة : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأوّل :

وإذا افتقرتَ إلى الذّخائر لم تَجِد ذُخْرا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل ﴿ والكاظمين الغَيظَ والعافين عن الناسِ والله يُحبّ المحسنين ﴾ فأطرق مليّا ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخرَ الدهرِ تُقْبِل

فقالت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستَقْطَع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينَك فانظر أى كف تَبَدَّل[6]

(١) أحرده : أغضبه وحرد هو . (٢) تشير الى ما كان أراد الهادى وهو موسى بن المهدى من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها الى ولده واحتيال يحيى بن خالد فى ردّ الهادى عن عزمه باذلا فى ذلك جهده . (٣) حم الأمر : قضى ونفذ . (٤) أم الكتاب : أصله أو اللوح المحفوظ . (٥) التميمة : ما يعلق للاولاد من كتابة أو غيرها دفعا للعين أو المرض . (٦) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية فى باب العتاب .

قال هارون : رَضيت . قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ترك شيئا لله لم يُوجده(١) الله لفقده" فأكبَّ هارون مَلِيّا ثم رفع رأسه يقول ﴿ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ﴾ قالت : يا أمير المؤمنين ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيَّتَك(٢) ما استشفعتُ إلا شَفَّعْتَنى . قال : واذكرى يا أم الرشيد أَلِيَّتَك أن لا شفعت لمُقْتَرِف ذنبا . فلما رأته صَرَّح بمنعها ولَاذَ عن مَطْلَبِها(٣) أخرجت حُقًّا من زُمُرُّذة(٤) خضراء فوضعته بين يديه . فقال الرشيد : ماهذا ؟ ففتحت عنه قُفْلا من ذهب فأخرجت منه خَفْضَه وذوائبه وثناياه قد غَمَسَتْ جميع ذلك فى المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين أستشفع اليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جَسَدك ، وطَيّب جوارحك ليحيي عبدك . فأخذ هارون ذلك فلَثِمَه ثم اسْتَعبر(٥) وبكى بكاء شديدا وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحُقّ وقال لها : لَحَسَنٌ ما(٦) حفظْت الوديعة . فقالت : وأهْلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين . فسكت وأقفل الحُقّ ودفعه اليها . وقال : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ قالت : والله يقول : ﴿ واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ، ويقول : ﴿ وأوْفُوا بعهد الله اذا عاهدتم ﴾ قال : وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت : أو ما أقْسَمت لى أن لا تَحْجُبنى ولا تَمْتَهِنِّى(٧) ؟ قال : احب يا أم الرشيد أن تشتريه مُحَكَّمَة(٨) فيه . قالت : أنْصفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غَيْرَ مُسْتقيلة لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطك . قال : يا أم الرشيد أَمَالى عليك من الحق مِثل الذى لهم ؟ قالت : بلى

(١) أوجده : أحزنه . (٢) الالية : الحلف . (٣) لاذ يلوذ : راغ وانحرف . (٤) الزمرذ والزمرد : من الأحجار النفيسة . (٥) استعبر : جرت عبرته وهى الدمعة قبل أن تفيض . (٦) ما مصدرية . (٧) امتهنه : ابتذله وأهانه . (٨) يقول : أحب أن تطلبى ما تشائين إزاء هذا القسم .

ياأمير المؤمنين انت أعز عليّ وهم أحب إليّ . قال : فتحكّمي في تمنية[(1)] بغيرهم . قالت : كلّا . قد وهبتكه وجعلتك في حِلّ منه وقامت عنه وبَقِي مبهوتا ما يحير[(2)] لفظة .

قال سهل بن هرون : وخَرَجَت فلم تَعدُ ولا والله ما رأيت لها عَبْرة ولا سمعت لهـا أنة .

استعطاف ابراهيم[(3)] بن المهدى للمأمون

أمر المأمون بابراهيم بن المهدى فأُدْخِل عليـه فلما وقف بين يديه قال : هِيه[(4)] ياابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين وَلِيُّ الثّار مُحَكَّم في القصاص «والعفو أقرب للتقوى» ومن تَنَاوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشقاء أَمْكَن عَادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعـل كل ذى ذنب دونك فان أخذتَ فبحقك وان عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذنبي إليـك عظيم — وأنت أعظم منـه
فخـذ بحقك أوّلا — فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى — من الكرام فكُنْه

فقال المامون : شاورت أبا إسحاق[(5)] والعباس فى قتلك فأشارا به . فقال : فمـا قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلت لهما نَبْدؤه بأحسان ونَسْتأْمِره[(6)] فيه ، فان

(١) التمنية والأمنية والمنية : بمعنى واحد . (٢) يقال : هو لا يحير جوابا أى لا يرد .
(٣) كان ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد لأبيه قد ادعى الخلافة بعيد قتـل الأمين وقبيل عودة المأمون من خراسان الى بغداد وأعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاختفى حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعا فى الأدب حسن الغناء جيد الشعر توفى سـنة ٢٢٤ هـ فى خلافة ابن أخيه المعتصم . (٤) هيه مثل أيه للاستزادة أو للاستنطاق فهى اسم فعل . (٥) أبو اسحاق هو المعتصم ابن الرشيد . والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن ابراهيم فى تصويب رأيهما لأن ذلك أنجح فى طلب الرضا وأبلغ فى دفع المكروه من الازراء عليهما فى رأيهما . (٦) أصل الاستئمار : المشاورة ، والمراد هنا التجربة .

غيّر فالله يُغيّر مابه . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جَرَتْ عليه السياسة فقد فعلا وبَلَّغَا ما يلزمهما وهو الرأى السـديد ولكنّك أبيتَ أن تَسْتَجْلِب النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله ، ثم اسْـتَعبر باكيا . فقال : له المأمون مايُبْكيك ؟ قال : جَذَلًا اذ كان ذنبى إلى من هـذه صفته فى الإنعام ؛ ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلالَ دمى بحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغانى عَفْوه ، ولى بعـدهما شفاعة الإقرار بالذنب وحَقّ الأبُوّة بعد الأب . فقال المأمون : يا ابراهيم لقد حُبِّبَ إلىَّ العفوُ حتى خفتُ أن لا أوجر عليه . أما لو علم الناس مالنا فى العفو من اللّذه لتقربوا الينا بالجنايات . لا تَثْرِيب[1] عليك . يغفر الله لك . ولو لم يكن فى حَقّ نَسَبك مايُبَلِّغ الصفحَ عن جُرمك لَبَلَّغَك ما أمّلت حسن تَنَصُّلِك ولُطْف تَوَصُّـلك ثم أمر بِرَدّ ضيا ه وأمواله .

فقال ابراهيم :

رَدَدْتَ مالى ولم تبخـل علىَّ به ... وقبل ردّك مالى قد حَقَنْتَ دمى[2]

وقام عِلْمك بى فاحتَجَّ عندك لى ... مقـامَ شاهد عدل غيرِ مُتَّهَـم

فلو بذلتُ دمى أبغى رضاك به ... والمـالَ حتى أسُلَّ النعل من قدمى

ما كان ذاك سوى عارِيّة سلفت ... لو لم تَهَبْهـا لكنتَ اليـوم لم تُلَم

استعطاف اسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لاسحاق بن العباس : لا تَحْسبَنّى أغفلت أمر ابن المهدى وتأييدك له وإيقادَك لناره . فقال : والله يا أمير المؤمنين لَأَجْرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جُرْمى إليك ، ولَرَحِمى بك أمَتّ من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم .

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب . (٢) حقن الدم : صانه .

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ . وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمّة في الطَّول، ومُمْتَثِلٍ[(١)] لخلال العفو والفضل .

قال هيهات : تلك اجرام جَاهِلِيَّةٍ عفا عنها الاسـلام وجُرْمك جُرم في إسلامك وفي دار خلافتك .

قال : ياأمير المؤمنين فوالله لَلْمُسلم أحق باقالة العَثْرة وغُفْران الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول : ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعِدّت للمتقين الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين العافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ . والناس يا أمير المؤمنين نِسْبَةٌ دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف .

قال : صدقت، وَرَتْ[(٢)] بك زِنادي ولا بَرِحْت أرى من أهلك أمثالك .

استعطاف الفضل[(٣)] بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضـل بن الربيـع لمـا ظفر به : يافضل أكان من حق عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك ان تَثْلِبَني[(٤)] وتَسُبَّني وتُحَرِّض على دمي ؟! أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي ؟

---

(١) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها . (٢) ورت بك زنادي ووقدت بك زنادي : مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك . والمراد بهما الدعاء . (٣) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة ثم وزير الأمين في خلافته . ويقال : انه هو الذي أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسدا لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس :

وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

توفي الفضل سنة ٢٠٨ هـ . (٤) ثلبه : تنقصه وصرح بعيبه . قال الشاعر :

* لا يحسن التعريض إلا ثالبا *

فقال : يا أمير المؤمنين إنْ عذرى يُجْحِدُكَ اذا كان واضحا جميلا فكيف إذا أخْفته العيوب ، وقبّحته الذنوب ؛ فلا يضيق عنى من عفوك ما وسـع غيرى منك ، فأنت كما قال الشاعر (١) فيك :

صَفُوح عنـ الأجرام حتى كأنّه ... من العفو لم يَعْرف من الناس مجرما

وليس يبـالى أن يكون به الأذى ... اذا ما الأذى لم يَغْش بالكُره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كانـ تميم بن جميل السَّدُوسى (٢) قد خرج بشاطئ الفرات واجتمع اليـه كثير من الأَعْراب فعظم أمره وبَعُد ذكره ثم ظُفِر به وحُمِل مُوثَقًا إلى باب المعتصم . فقال أحمد بنـ أبى دُوَاد : ما رأيت رجلا عاين الموت فما هالَه (٣) ولا شَغَلَه عمـا كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ؛ فانه لمـا مُثِل بين يدى المعتصم فأُحضِر السيف والنِّطع (٤) ، وأوقف بينهما ، تأمـله المعتصم (وكانـ جميلا وسيما) فأَحَبَّ أن يَعْلم أين لسانه وجَنَانه من مَنْظَره ؟ فقال : تكلم يا تميم . فقال : أمَّا إذ أذِنْت ياأمير المؤمنين فأنا أقول : الحمد لله الذى أحسن كل شىء خَلْقه وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نَسْله من سُلَالة من ماء مَهِين . جَبَر بك صدع (٥) الدين ، ولَمَّ بك شَعث (٦) المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأَخْمَد بك شِهَاب الباطل . إن الذنوب تُخْرِس الألسنة الفصيحة . وتُعْيِى الأفئدة الصحيحة . ولقـد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربُهما منـك وأسرعُهما إلىَّ أشبَهَهُما بك وأولاهما بكرمك . ثم قال (على البديهة) :

---

(١) القائل : هو الحسن بن رجاء . (٢) سدوس : بطن من بنى شيبان ثم من بنى بكر .

(٣) هاله : أفزعه . (٤) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لايسقط دمه على الأرض . (٥) الصدع : الشق فى الحائط ونحوه . (٦) الشعث : انتشار الأمر والأشياء المتفرقة .

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرئ مما قضى الله يفلت؟ (١)
وأي امرئ يأتي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مصلت؟ (٢)
وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم وقد خمشوا (٣) تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وان مت موتوا (٤)
وكم قائل لا يبعد الله روحه وآخر جذلان يسر ويشمت

فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل. قد وهبتك للصبية، وغفرت لك الصبوة (٥). ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه (٦).

استعطاف الجاحظ لمحمد (٧) بن عبد الملك الزيات

كتب الجاحظ الى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر (٨) له وتلون عليه:

أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف (٩) الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة (١٠)، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين الى نزق (١١) السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء. وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت (١٢):

(١) أفلت: تخلص ونجا. (٢) أصلت السيف: استله من غمده. (٣) خمش وجهه: لطمه وهو من بابي ضرب ونصر. (٤) موتوا: كثر فيهم الموت. (٥) الصبوة: الزلة وجهلة الشباب. (٦) خلع عليه خلعة: منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء. (٧) من بلغاء الكتاب كان وزير المعتصم ثم الواثق ولما ولي المتوكل نكبه وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣هـ (٨) تنكر له: تغير. (٩) السرف: مجاوزة الحد. (١٠) الأناة: الحلم والوقار. (١١) النزق: الخفة والطيش. (١٢) هكذا يقول الجاحظ وغيره ينسب البيت لحسان نفسه. راجع الأغاني.

وان امرأ أمسَى وأصبح سالمـا من النـاس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر: (١)

ومن دعا النـاس إلى ذمه ذمـــوه بالحـــق وبالباطل

فان كنتُ اجْترأت عليك ـــ أصلحك الله ـــ فلَمْ أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة (٢) بن حصن بن حُذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيرا لى منك أرهبنى فأتقانى (٣) وأعطانى فأغنانى . فان كنت لا تهب عقابى ـــ أيدك الله ـــ لخدمة فهبه لأياديك عندى، فان النِّعمة تَشْفَع فى النِّقمة، وإلا تَفْعَل ذلك لذلك فعد الى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة (٤)، وإلا فَأتِ ما أنت أهـلُه من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة؛ فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمِّد وتَتجافى (٥) عن عقاب المُصِر (٦) حتى إذا صرت الى من هفوته ذِكْر (٧)، وذنبـه نسيان، ومن لا يعـرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هَجَمْتَ عليه بالعقوبة . وٱعلم ـــ أيدك الله ـــ أن شَيْن غضبك علىّ كَزَيْن صفحك عنى وان موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك (٨) . واعلم أن لك فطنة عليم . وغفلة كريم والسلام .

---

(١) من الناس من يروى هذا البيت فى جملة أبيات لكعب بن زهير، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلى . راجع الأغانى . (٢) هو سيد بنى ذبيان فى صدر الاسلام وهو من سلالة حذيفة بن بدر الفزارى الذى كان السبب فى حرب داحس والغبراء . (٣) أتقاه : صيره تقيا . (٤) الأحدوثة : الحديث والسيرة، جمعها أحاديث . (٥) تجافى : تباعد . (٦) أصر على الذنب : استمر . (٧) يقول : هفوته هى تذكر الهفوة أو جريها على لسانه . (٨) التشبيه فى هاتين الفقرتين من قبيل قولهم فى التفضيل : العسل أحلى من الخل . يقول : إن مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وإن مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال .

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

قال رجل من أهل الشام للمنصور يستعطفه : يا أمير المؤمنين من انْتَقَم فقد شفى غيظه وانتصف ، ومن عَفَا تَفَضَّل ، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ، ولم يُذْكَر فَضْلُه ، وكظم الغيظ حِلم ، والتَّشَفِّي طَرَفٌ من الجَزَع ، ولم يُمْدح أهل التقوى والنهى من كان حليما بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل . وبعد فالمعاقب مستَوْدِع لعداوة أولياء[1] المذنب ، والعافى مُسْتَرْعٍ لشكرهم آمن من مكافأتهم . ولأن يُثْنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بِضيقه ، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم وموصولة بعفوه ، وعقابك إياهم موصول بعقابه . قال الله عز وجل : ﴿خُذِ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ .

استعطاف رَوْح بن زِنْباع لمعاوية

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنْباع . فقال : يا أمير المؤمنين أنْشُدَك الله تعالى ألا تضع مِنّى خَسِيسَة أنتَ رَفَعْتها أو تَنْقُض منّى مَرِيرةً[2] أنت أَبْرَمْتها[3] أو تُشْمِت بى عَدوا أنت كَبَتَّه[4] ، وحاسدا بك وَقَمْته[5] ، وأسألك بالله إلّا أَرْبَى حِلمك على خطئى وصفحك على جهلى . فقال معاوية :

* اذا الله سَنَّى[6] عَقْدَ شيء تَيَسرا *

وعفا عنه

---

(١) الأولياء : الأهل والأقارب . (٢) المريرة : الحبل الشديد الفتل .

(٣) أبرم الحبل : أجاد فتله . والأمر : أحكمه . (٤) كبته : أذله وغاظه وصرعه لوجهه .

(٥) وقمه : قهره . (٦) سنى الشيء : فتحه وسهله وهذا شطر بيت وهو :

واعلم علما ليس بالظن أنه اذا الله سنى عقد شيء تيسرا

وقد ألمّ المتنبي بقول رَوْح إذ يقول :

أزِل حَسَــد الحُسَّــاد عنى بكَبْتِهم   فأنت الذى صــيرتهم لى حُسَّــدا
اذا شد زَنْدِى حسنُ رأيك فى يدى   ضَرَبْت بسيف يقطع الهام مُغمَدا

استعطاف ابن الرومى للقاسم بن عبيد الله (١)

كتب ابن الرومى يستعطف القاسم بن عبيد الله :

تَرَفَّع عن ظلمى ان كنت بريئا ، وتفضــل بالعفو ان كنت مسيئا ، فوالله إنى لأطلب عفو ذنبٍ لم أجنِــهِ ، والتمس الإقالة ممــا لا أعرفه ، لِتَزداد تَطَوّلا (٢) وأزداد تَذَلُّلا . وأنا أعيذ حالى عنــدك بكرمك من واش يَكِيدها ، وأَحْرُسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله أن يجعل حَظِّى منك بقدر ودّى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك . والسلام .

وكتب اليـــه :

لو كان فى الصمت موضع يسع حالى لَخَفَّفْت عن سمع الوزير ونظره ولم أَشْغَل وجها من فكره . وما زالت الشَّكوى تعرب عن لسان البلوى . ومن اختلت حالته كان فى الصمت هَلَكَتُه (٣) . وقد كان الصبر يَنْصُرنى على ستر أمرى حتى خَذَلنى .

استعطاف ابن مُكَرَّم لبعض الرؤساء

كتب ابن مكرم يستعطف بعض الرؤساء :

نبت بى غِرة الحَــداثة فرَدَّتْنى إليك التَّجْرِبة ، وقادتنى الضَّرورةُ ثِقَة باسراعك إلىّ وان أبطأت عنك ، وقبولِك لعذرى وان قَصَّرت عن واجبك . وان كانت ذنوبى

---

(١) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب و بيته بيت وزارة وكتابة وأدب فقد كان وزيرا ابن وزير ابن وزير أما الكتابة فهو فيها معرق لأنه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وهو الذى دس لابن الرومى السم فى الطعام خوفا من لسانه ، توفى القاسم سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون . (٢) التطول : الانعام . (٣) الهلكة : الهلاك .

سَدَّت عليّ مسالك الصفح عنى فراجع فِيَّ مجدك وسُودَدك، وإنى لا أعرف موقفا أذل من موقفى لولا أن المخاطبة فيه لك، ولا خُطّة[١] أدنى من خطتى لولا أنها فى طلب رضاك .

استعطاف للخـــوارزمى

كتب أبو بكر الخُوارزمى يستعطف :

لو بغـــير المـاء حَلْقِى شَــرِق ... كنتُ كالغَصَّان بالماء اعتِصارى[٢]

كيف يَقْدِر — أبقى الله الشيخ — على الدواء، من لا يهتدى إلى أَوْجُه الداء؟ وكيف يُدَارى أعداءه من لا يعرف الأعداء من الأصدقاء؟ أم كيف يسرى بلا دليل فى الظَّلْماء؟ أم كيف يَخْرُج الهارب من بين الأرض والسماء؟ الكريم — أيّد الله الشيخ — اذا قَـدَر غَفَر، وإذا أَوْثَق أطلق، واذا أَسَرَ أعتق . ولقــد هَرَبْت من الشيخ إليه، وتَسَلَّحْتُ بعفوه عليــه، وألْقَيْت رِبْقَة[٣] حَيَاتى ومماتى بيديه، فليذقنى حلاوة رضاه عنى كما أذاقنى مرارة انتقــامه منى، ولْتَــلُح[٤] على حالى غُرة[٥] عفــوه كما لاحت عليهــا مَوَاسِم[٦] غَضَبه وسَطْوَه، وليعلم أن الحُرّ كريم الظَّفَر اذا نال أَقَال، وأن اللئيم لئيم الظَّفَر إذا نال استطال[٧]، ولْيَغْتَنِم التَّجَاوز عن عَثَرات الأحرار، ولْيَنْتَهِز فُرَص الاقتدار، ويعتقد أنه قد هابه من استتر، ولم يُذْنِب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لمــا يَحْفَظ عليه قلوب أوليــائه، وعصمه مما يَزيد به فى جماجم أعدائه .

---

(١) الخطة بالضم : الحال أو القصة أو الطريقة، وبالكسر ما يختطه الانسان لنفسه من أرض .
(٢) الشرق بالمـاء كالغصة بالطعام . والاعتصار : معالجة الغصص بشرب المـاء قليلا قليلا؛ والبيت لعدى ابن زيد العبادى الشاعر الجاهلى من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر. يقول إن الانسان اذا غص بالطعام عالجه بالمـاء فاذا شرق بالمـاء فماذا يصنع؟ (٣) الربقة : عروة من حبل فيه عدة عرى يشد بها البهم والحبل كله ربق . (٤) لاح : ظهر (٥) الغرة : بياض فى وجه الحيوان . والمراد هنا الأثر . (٦) المواسم : جمع ميسم وهو المكواة . (٧) استطال : تطاول واعتدى .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد بن حُمَيد[١] يعتذر :

أنا من لا يُحَاجُّك عن نفسه، ولا يُغَالِطك عن جُرمه، ولا يلتمس رِضاك إلا من جِهتَه، ولا يستدعى بِرَّك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرم. نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحداثة، وردَّتنى إليك الحُنكة[٢]، وباعدتنى منك الثقة بالأيام، وقادتنى إليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصَّنيعَة بقبول العذر، وتُجدِّد النعمة باطِّراح الحقد؛ فان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة. وإن أيام الحياة وان طالت قصيرة؛ والمُتْعَة بها وان كثرت قليلة.

اعتذار لأبى على البصير

كتب أبو على البصير يعتذر :

أنا أحد من أسكنتَه ظِلَّك، وأعْلَقتَه حَبلك[٣]، وحَبَوْته بلطيف بِرّك وخاصّ عنايتك، وأنْتَصَف بك من الزمان، واستغنى بإخائك عن الإخوان؛ فهو لا يرغب إلا إليك، ولا يعتمد إلا عليك، ولا يَسْتَنْجِحُ[٤] طلبه إلا بك. وقد كان فَرَط مِنّى قول إن تأَوَّلتَه[٥] لى أراكَ وَجه عذرى وقام عندك بحُجَّتى، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حسن نِيَّتى، وان تأوّلته علىّ أحَاق[٦] بى لَا ئمتك[٧]، وحبسنى على أسوإ حال عندك. وقد

---

(١) هو من أولاد الدهاقين كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح أخذ عن الامام ابن الاعرابى ويؤخذ عليه أنه كان كثير الأخذ لكلام غيره . (٢) الحنكة : خبرة التجارب .

(٣) وصلته وقيدته بزمام مودّتك . (٤) استنجح حاجته وتنجحها : تنجزها وطلب نجحها .

(٥) أوّل الكلام وتأوّله : فسره . (٦) أحاق : أنزل . (٧) اللائمة : اللوم .

أتيتك معترفا بالزّلة، مُستكينا[1] للمَوجِدة[2] عائذا بالصفح والإقالة؛ فان رأيت أن تُقِرّ عينا قرت بنعمتك عندى، ولا تَسلُبنى منها ما ألبَستنى، وان تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ، وتأمرَ بتعريفى رأيك بما يُطَامِن[3] هَلَعى وتَسكُن إليه نفسى ويأمَنْ به رُوعى[4] «فعلت» إن شاء الله .

اعتــــذار للبـــديع

كتب البديع إلى القاسم الكَرَجى يعتذر :

يعز على — أطال الله بقاء الشيخ الرئيس — أن ينوب فى خدمته قلمى، عن قدمى، ويسعد برؤيته رسولى، دون وصولى، ويرد شِرَعة[5] الأُنس به كتابى، قبل ركابى . ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة ،

وعلى أن أسعى وليـ — ـس علىّ إدراك النجاح

وقد حضرت داره، وقبلت جِدَاره، وما بى حب الجُـدْران، ولكن شَغَفًا بالقُطّان، ولا عشق الحيطان، ولكن شوقا إلى السُّكّان[6] . وحين عَدَت[7] العَـوادى عنه أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذرا إلى مولاى عن تقصير وقع، وفُتُور فى الخدمة عَرَض . ولكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنبا — فكفى أن لا أراك عقـابا

---

(١) استكان : خضع وهو من السكون فوزنه افتعال بزيادة الألف للاشباع كما قالوا فى أنظر (أنظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجيه لأن المعنى لا يعينه . (٢) الموجدة : الغضب .
(٣) يطامن : يخفض ويخفف . (٤) الرُّوع : القلب . والرَّوع : الفزع والخوف .
(٥) الشرعة والشريعة والمشرعة : مورد الشاربة من الماء . (٦) ألم البديع هنا يقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليـــلى — أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى — ولكن حب من سكن الديارا

(٧) منعت الموانع .

استعطاف عبد الله (١) باشا فكرى

قال المرحوم عبد الله باشا فكرى فى استعطاف المغفور له توفيق باشا :

كتابى تَوَجَّه وِجْهــة السَّاحة الكُبْرى ... وكَبِّر اذا وافيت واجتنب الكبرا

وقِفْ خاضعا واستوهب الإذن والتمس ... قبولا وقبِّــل سُدَّة (٢) الباب لى عشرا

وبلِّــغ لدى البــاب الخديوىّ حاجة ... لذى أمــل يرجو له البِشْرَ والبُشْرَى

لدى باب سَمْح الراحتيــن مؤمَّل ... صَفُوح عن الزَّلات يلتمس العـــذرا

تنُــوء الجبــال الراســيات بِحلمِــه ... اذا طاش ذو جهل لدى غيظه قَهْرا

يُرَاقِب رَحْـمَـانَ السموات قلبــــه ... فيَرْحَم من فى الأرض رفقا بهــم طُرًّا

مَليكى ومــــولاى العزيزَ وســـيدى ... ومن أرتجى آلاء (٣) معروفه العُمْرا

لَئِن كان أقـــوام على تقـــوَّلوا ... بأمر فقـــد جاءوا بمـــا زوروا نُكْرا

وإن سُــعَاة الســوء أنزل فيهــم ... علينــا إله العـــرش فى ذكره ذكرا

وعلمنــا أن نَسْتَبين مقالهـــم ... ونأخذ منهــم فى مساعيهم الحِــذْرا (٤)

حلفت بمــا بين الحطـــيم وزمزم ... وبالبــاب والمـــيزاب والكعبة الغرا (٥)

وبالزَّائريها يَرْتَجـــون مليكــهم ... لِمــا فرَّطوا فى العمــد والخطأ الغفرا

وبالصـــلوات الخمس يُرْجَى ثَوابها ... وبالصَّـــومِ يُوليه الحــفِىُّ (٦) به شهرا

لمــا كان لِى فى الشَّر باعٌ ولا يــــد ... ولا كنت من يَبْغِى مدى عمره الشرا

---

(١) عبد الله باشا فكرى من أكبر رجال الأدب فى مصر وكان على تأخره فى الزمان يذهب فى نثره ونظمه مذهب البلغاء من أهل اللسان توفى سنة ١٣٠٧ هـ . (٢) السدة : الظلة تكون بباب الدار وقد تستعمل بمعنى الباب نفسه . (٣) الآلاء : النعم . (٤) يشير بالبيتين الى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» .

(٥) الحطيم : جزء من البيت الحرام . والميزاب : مسيل ماء المطر . والمراد ميزاب الكعبة خاصة .

(٦) الحفى بالشىء : من يظهر السرور به .

ولكن مَحْتُـوم المقادير قـد جرى · بمـا الله فى أمِّ الكتاب له أجرى (١)

وفى علم مـولاى الكريم خلائق · قديما وحسبى عِلْمـه شاهـدا بَرّا

فعفوا أبا العبـاس لا زلت قادرا · على الأمر ان العفـو من قادر أحرى

«ملكت فأسْجِـح» وامْنَح العفو تبتغى · زَكاة لمـا أوْلاك ربك أو شكرا (٢)

أيجْمُـل فى دين المـروءة أننى · أكابد فى أيامك البـؤس والعسرا

ولى فيـك آمال ضَمِيـنى بنجحها · وفاؤك ، لا أرجو سـواك لها ذخرا

فَمُنَّ فقـد ألْفَيْتَ موضع مِنَّـة · وربك لا ينسى لذى مِنَّـة أجرا

وقال النابغة الذبيانى (٣) يعتذر للنعمان (٤) ويمدحه :

أُنْبِئْتُ أن أبا قابوس أوْعَـدنى · ولا قَـرَارَ على زَأْر من الأسـد (٥)

فـلا لَعَمْـرُ الذى مَسَّحْتُ كَعْبَتَه · وما هُرِيق على الأنْصاب من جسد (٦)

ما إن نَديتُ بشىء أنت تكرهـه · إذن فلا رفعت سَـوْطى الىَّ يدى (٧)

إذن فَعَاقَبَـنى ربِّى معـاقَبَـة · قَرَّتْ بهـا عين مَنْ يأتيك بالحسد

مهلا فـداءٌ لك الأقوامُ كُلُّهـم · وما أُثَمِّـر من مال ومن ولد (٨)

واحْكُم كَحُكْم فَتَـاة الحى اذ نظرت · الى حَمَـام شِرَاع واردِ الثَّمَـد (٩)

(١) قدمنا أن أم الكتاب : اللوح المحفوظ أو أصل الكتاب . (٢) الاسجاح : أحسن العفو والعبارة مثل . (٣) هو أبو أمامة زياد بن معاوية المرى ثم الذبيانى أمام القوالين فى الاعتذار فقد أجاد فيه اجادة فات بها السالف وأيئس من ادراكه الخالف توفى بين يدى الاسلام .

(٤) هو النعمان بن المنذر ملك العرب فى العراق قبيل الاسلام . (٥) أبو قابوس كنية النعمان .

(٦) الانصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب وتذبح عليها الذبائح لغير الله . والجسد : الدم اليابس .

(٧) يقال : ما نديت بشىء تكرهه أى ما أصبت منه شيئا ما وقد استشهد اللسان بهذا البيت .

(٨) ثمر المال : نماه ولا تقل استثمره . (٩) الشراع : المشرعة أى مورد الماء . والثمد : الماء القليل .

يَحُفُّــه جانبـا نيــق وتُتْبِعُــه … مِثْـلَ الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمد (١)

قالت ألا ليتما هــذا الحمامُ لنـا … الى حمـامتنا أو نصــفُه فَقَــد

فَحَسَــبوه فألفَوْه كما حَسَبت … سِــتًّا وسـتين لم تنقُص ولم تَزِد

فكَمَّلَتْ مائة فيهـا حمـامتُهـا … وأسرعت حِسْـبة فى ذلك العـدد (٢)

فما الفرات (اذا هَبَّ الرياح له … ترمى أَوَاذِيُّه العِبْرين بالزَّبد (٣)

يَمُــده كل واد مُــتْرَع لِجَب … فيــه رُكام من اليَنْبُوت والخَضَــد (٤)

يَظَـلُّ من خَوفه المَـلَّاح مُعتصما … بالخَـيْزُرَانة بعـد الأَيْن والنَّجَد) (٥)

يوما بأجود منــه سَيْب نافــلة … ولا يحول عطـاء اليوم دون غــد

ولا أرى فاعلا فى النـاس يشبهه … وما أحاشى من الأقوام من أحد

إلّا سليمانَ اذ قال الإله له … قم فى البرية فاحدُدْها عن الفَنَــد (٦)

وخَيِّس الجن انى قـد أذنت لهم … يبنون تَدْمُر بالصُّفَّاح والعَمَد (٧)

فمن أطاعك فانفعْــه بطاعته … كما أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَــد

ومن عَصَـاك فَعَاقِبْــه مُعَاقَبَــة … تنهى الظَّلُوم ولا تَقْعُـد على ضَمَـد (٨)

---

(١) النيق : أعلى جزء من الجبل . (٢) يقول : احكم حكما صائبا كحكم تلك الفتاة التى نظرت حماما يرد المـاء فى طريق ضيق بين جانبى جبل — وذلك أدعى لتزاحمه وشدّة اختلاطه — فاتبعته عينـا كالزجاجة لم ترمد بعد ولم تلبث ان قالت : لو أن لنا هذا الحمام ونصفه الى حمامتى لكان مائة . فأوفى قوله أو نصفه بمعنى الواو . وهــذه الفتاة هى زرقاء اليمامة فيما تزعم العرب وهى التى يقال فيها : (أبصر من زرقاء اليمامة) ويقال أنها قالت اذ رأت ذلك الحمام : ليت الحمام ليه : الى حمامتيه : ونصفه قديه : تم الحمام ميه . (٣) الأواذى : جمـع آذى وهو الموج . وعبر الوادى : شاطئه . (٤) اللجب : المصوت . والينبوت : شجر الخشخاش . والخضد : نبت . (٥) الخيزرانة : سكان السفينة . والاين : التعب . والنجد : العرق والاعياء . (٦) حده : منعه . والفند : الخطأ . (٧) خيس : ذلل . وتدمر : مدينة ببادية الشام كانت حاضرة ملك آل الظرب من العمالقة لعهد الرومان . والصفاح : الحجارة العريضة الرقيقة . (٨) الضمد : الحقد .

هـــذا الثنـاء فان تسمع لقـائله فلم أُعَرِّض أبيت اللعن بالصَّـفَد (١)
ها إنّ تِى عذْرة إن لم تكن نَفَعَتْ فانـ صاحبها قد تَاهَ فى البـــلد (٢)

اعتـــذار الى بعض الملوك

قال ســعيد بن مسعدة الأخفش : اعتذر رجل من العرب الى بعض ملوكهم فقال : ان زَلَّتِى وان كانت قد أحاطت بحُرمتى فان فضلك يحيط بهـا وكرمك يُوفى عليها ثم قال :

انى اليك ـ سلمتَ ـ كانت رحلتى أرجو الاله وصفحك المبـــذولا
إن كان ذنبى قــد أحاط بحرمتى فأحط بذنبى عفـــوك المأمولا

(١) الصفد : العطاء . (٢) العذرة : الاعتذار . وتاه : ضاع .

باب العتـاب واللـــوم والتأنيب

عتاب الخوارزمى لتلميذه

كتب أبو بكر الخُوَارزمى الى تلميذ له يعاتبه بعد خروجه من محنة :

كتابى وقد خرجتُ من البلاء، خروج السيف من الجِلَاء، وبُرُوز البـدر من الظَّلماء، وقد فارقتنى المِحْنَة وهى مفارق لا يشتاق اليه، وَوَدَّعتْنى وهى مودّع لا يُبْكَى عليه؛ والحمد لله تعالى على محنة يُجْليها، ونعمة يُنيلها ويُوليها . كنت أتوقع بالأمس كتاب الشـيخ بالتَّسْلية ، واليوم بالتَّهنِيَة . فلم يكاتبْنى فى أيّام البُرَحاء[1] بأنهـا غمّته ، ولا فى أيام الرَّخاء بأنها سَرّته . وقد اعتذرت عنـه إلى نفسى، وجادلتُ عنـه قلبى . فقلت : أما إخْلاله بالأُولى، فلأنه شَغَله الاهتمام بها على الكلام فيها . وأمّا تغافُلُه عن الأخرى فلأنه أَحَبَّ أن يُوفِّر علىَّ مرتبة السابق الى الابتداء، ويقتصر بنفسـه على محل الاقتداء، لتكون نعم الله سبحانه علىَّ موفورة من كل جهة، ومحفوفة بى من كل رتبـة . فان كنتُ أحسنتُ الاعتذار عن سيدى فَلْيَعرِف لى حَقّ الإحسان، وليكتب الىَّ بالاستحسان . وان كنتُ أسأت فَلْيُخْبِرْنى بعـذره، فانه أعرفُ منّى بِسره . ولْيَرْضَ منى انى حاربت عنه قلبى، واعتذرت عن ذنبـه حتى كأنّه ذنبى . وقلت يا نفسى اعْذِرى أخاك، وخُذِى ما أعطاك . فمع اليوم غد والعود أحمد .

عتاب البديع الهمذانى لأبى القاسم الكرجى

كتب البديع الهَمَذانى الى أبى القاسم الكَرَجى (يعاتبه) :

أَنَا وإن لم أَلْقَ تَطَاوُل[2] الاخوان إلا بالتَّطَوُّل[3] ، وتَحامُل[4] الأحرار إلا بالتَّحَمُّل[5] أحاسب الشيخ — أيّده الله — على أخلاقه، ضَنًّا بما عَقَدت يدى عليه من حسن الظن

(١) البرحاء : الشدّة . (٢) التطاول : الاعتداء والاستهانة . (٣) التطول : التفضل من الطول أى الانعام . (٤) التحامل : الجور. (٥) التحمل : الاحتمال .

به، والتَّغبير(١) فى مذهبه . ولولا ذلك لقلت : فى الأرض مجال إن ضاقت ظِـلاله ، وفى النـاس واصل إن رَثَّتْ حباله(٢) ؛ فان أعارنى أذنا واعية، ونفسا مُراعية، وقلبا رَجُوعا عن الذهاب، ونَزُوعا(٣) عمـا يَقْرعه من هـــذا الباب ، فَرَشْت لِمَوَدَّته خُـوان(٤) صَدْرى ، وعقدت على محبته خِنْصرى مـدّة عُمْرى . و إن رَكب من التعَّالى فى غير مركبه ، وذهب من التغالى فى غير مذهبـه ، أقْطعته خِطَّة(٥) أخلاقِه، ووَلَّيته جانب إعْراضـــه .

لا أذودُ الطير عن شجر قد بلوت المُرَّ من ثمره(٦)

فإنى و إن كنت فى مُقْتَبَل العمر، فقد حَلَبْتُ شَطْرَى(٧) الدهر، وركبت ظهرى البّر والبحر، ولقيت وَفْدى الخـير والشر، وصافحت يدى النفع والضُّر، وضربت إبِطَى(٨) العسر واليسر، وبَلَوْت طَعْمى الحُلوِ والمُر، ورَضَعْت ثَدْيَى العُـرْف والُّنكر . فمـا تكاد الأيام ترينى من أفعالهـا غريبا، أو تُسْمِعُنى مِن أحوالها عجيبا ... فمـا لى صَغُرت هذا الصِّغَر فى عينه، وما الذى ازرى(٩) بى عنده حتى احتجب وقَدْ قَصَدْتُه، ولزم أرضه وقد حَضَرْته ؟ وأنا أُحاشيه أن يَجْهَل قَدْر الفَضْل، أو يَجْحَد فضل العلم،

---

(١) التغبير : الجد والاسراع، وأصله اثارة الغبار . (٢) يشير البديع بهذه العبارة الى قول معن بن أوس :

وفى الناس ان رثت حبالك واصل وفى الأرض عن دار القلى متحول

(٣) نزع عن الشىء : رجع . (٤) الخوان : ما يؤكل عليه . (٥) الخطة : الأرض التى يختطها المرء لنفسه . والاقطاع : أن يعطى السلطان طائفة من الأرض وهذه تسمى قطيعة وجمعها قطائع، ومنها قطائع ابن طولون بين القاهرة والفسطاط . (٦) يقول : ان المرء لا يدفع الطير عن شجر لم يجن منه الامر الثمر : وهذا مثل ضربه . (٧) حلب الدهر شطريه وأشطره : حنكته التجارب وقد تقدّم شرحه . (٨) يقال : ضرب اليه آباط الابل أى سافر اليه طويلا حتى أن الابل التى ركبها أصيبت آباطها من كثرة السير . والمراد أنه لابس العسر واليسر طويلا . (٩) أزرى به : أدخل عليه العيب .

أو يَمْتَطى ظهر التِّيه، على أهْلِيه . وأسأله أن يَخْتَصَّنى بفضـل إعظام ، إن زَلّت بى قدم فى قصده مرّة والسلام .

عتاب معن[1] بن أوس لبعض أصدقائه

قال مَعْن بن أوس المُزَنِى يعاتب صديقا :

لَعَمْرُك ما أدرى وإنى لأوْجَــل ... على أيِّنـا تَعْدو المنيّـة أوّل[2]

وإنى أخوك الدائم الوُدّ لم أَحُل ... أنَ ٱبْزاك خَصْم أو نبـا بك منزل[3]

أُحاربُ من حاربت من ذى عَدَاوة ... وأَحْبِس مالى إن غَرِمْتَ فأَعْقِل[4]

وإن سُؤْتَنى يوما صَـبَرْت إلى غد ... ليُعْقِبَ يوما منـك آخرُ مُقْبِـل

كأنّك تَشْفِى منك داءً مَسَاءتى ... وسُخْطى وما فى رِيبَتى ما تَعَجَّـل[5]

وإنى على أشـياء منك تَرِيبــنى ... قديمـا لذو صفح على ذاك مجمـل[6]

ستقطع فى الدنيـا إذا ما قطعتنى ... يمينـك فانظر أىَّ كـف تَبَدّل

وفى الناس إن رَثَّت حبالك واصل ... وفى الأرض عن دار القِلَى مُتَحَوَّل[7]

إذا أنت لم تُنْصِف أخاك وجدته ... على طَرَف الهِجْران إن كان يَعْقِل

ويَرْكب حد السيف من أن تَضِيمَه ... إذا لم يكن عن شَفْرة السيف مَزْحَل[8]

وكنتُ إذا ما صاحب رام ظِنّتى ... وبَدّل سوءا بالذى كنت أفعـل

(١) هو معن بن أوس المزنى شاعر مخضرم محسن فى باب الحكم والشعر الخالق عمر الى أيام الفتنة بين عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم . (٢) رجل وجل وأوجل : خائف . (٣) حال : تغير . ويروى (لم أخن) وبزاه وأبزى به وابزاه : غلبه . وقد نقل الشاعر حركة الهزة الى النون وحذفها وهى لغة جيدة قرأ بها ورش . (٤) عقل عنه : غرم مالزمه من دية . (٥) الريبة : التهمة . يقول : ليس فى تهمتى وما يسوءنى منفعة يجب أن تتعجلها . (٦) رابنى الأمر وارابنى : رأيت منه ما أكره . (٧) رث الحبـل وأرث : بلى . (٨) ضامه : ظلمه ونقصه حقه . والمزحل : المتنحى والمهرب .

قلبتُ له ظهر المِجَنّ فلم أدُمْ على ذاك إلّا رَيْثَ ما أتحـــوّلُ (١)
إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكد عليـــه بوجه آخرَ الدهرِ تُقْبِـــل

عتاب عبد الله (٢) بن معاوية بن عبد الله بن جعفر لبعض اخوانه

كتب عبد الله بن معاوية الى بعض اخوانه :.

أما بعدُ فقد عَاقَنى الشَّك فى أمرك عن عَزِيمة الرأى فيك . وذلك أنك ابتدأتنى بلُطْفٍ عن غير خِبْرَة ، ثم أعقَبْتَنى جَفَاء عن غير جَرِيرة ، فأطمعنى أوّلُك فى إخائك ، وأيْئَسَنى آخرك من وفائك . فلا أنا فى اليوم مُجْمِعٌ (٣) لك اطِّراحا ، ولا أنا فى غد وانتظارِه منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشك فى أمرك ، عن عَزِيمة (٤) الرأى فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف . والسلام .

عتاب الوليد بن عبد الملك لأخيه سليمان

قال ثعلب : اشتكى الوليد بن عبد الملك وبلغه قوارص وتَعْرِيض من سُليمان ابن عبد الملك وتَمَنّ لموته لمـا له من العهد بعده . فكتب اليه يعتب عليه وفى آخر كتابه :

---

(١) المجن : الترس وقلب له ظهر المجن مثـــل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ثم حال عن ذلك .

(٢) جدّه جعفر بن أبى طالب وكان عبـــد الله بن معاوية خطيبا مفوها وشاعرا مجيـــدا وكاتبا بليغا خرج بالكوفة فى آخر أيام مروان بن محمد ثم انتقل عنها الى نواحى الجبل ثم الى خراسان فأخذه أبو مسلم وحبسه ثم قتله ، ومن حكيم شعره قوله :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل
نبـــنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعـــل مثـــل ما فعلوا

وقوله :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا
وأنت أخى ما لم تكن لى حاجة فان عرضت أيقنت أن لا أخاليا
كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانيا

(٣) أجمع الأمر : صمم عليه . (٤) عزيمة الرأى : الرأى الواجب الاتباع .

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العــلم عندهم لئن مُتّ ما الدّاعى علَىّ بمُخــلّد
مَنِيّتُه تجــرى لوقت وحَتفُــه سَـيَلْحَقُه يوما على غـير موعد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأنْ قد

فكتب إليه سليمان :

قد فهمت ما كتب به أمير المؤمنين . فوالله لئن كنت تمنيت ذلك تأميلا لما يَخْطُر فى النفس إنى لأوّل لاحق به . وأوّل منعىّ الى أهله . فعَلَامَ أتمنى ما لا يلبث من تمناه إلا رَيْثَ ما يَحِل السَّفْر بمنزل ثم يظعنون عنه . وقد بَلَغ أمير المؤمنين مالم يظهر على لسانى، ولم يُرَ فى وجهى . ومتى سَمِع من أهل النميمة ومن لا رَوِيّة له أسرع ذاك فى فساد النيات والقطع بين ذوى الأرحام .

وكتب فى آخر كتابه :

ومن يتَتَبّع جاهــدا كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهرَ صاحب

فكتب اليه الوليد :

قد فهم أمير المؤمنين كتابك، فما أحسن ما اعتذرت به وحذوت عليه . وأنت الصادق فى المقال، الكامل فى الفعال . وما شىء أشبه بك من اعتذارك، وما شىء أبعد منك من الذى قيل فيك، والسلام .

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة على تسويته بأدعياء الشعراء ويتهدّدهم على تعرّضهم له

يا أعدل النــاس إلا فى مُعَامَلتى كيف الخصام وأنت الخَصْمُ والحَكَم
أعيــذها نظرات منــك صادقةً أن تحسَب الشّحْم فيمن شحمه وَرَم

وما انتفاع أخى الدنيـا بناظِره إذا استوت عنده الأنوار والظُّلَم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلِسُنا بأننى خيرُ من تسعى به قَدَم
أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسْمَعَتْ كلماتى مَنْ به صَمَم
الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وجاهلٍ مَدَّه فى جَهْلِه ضَحِكى حتى أتتـه يَدٌ فَرّاسَةٌ وفَمُ
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تَظُنَّنَّ أن الليث يبتسم
يا من يَعِز علينا أن نفارقهم وجداننا كلَّ شىء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرِمَة لو أن أمركُم من أمرنا أَمَم (١)
إن كان سَرَّكُم ما قال حاسدنا فما لجُـرْح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النُّهى ذِمم (٢)
كم تطلبون لنا عيبا فَيُعْجِزُكم ويكره الله ما تأتون والكَرَم
ما أبعدَ العيب والنقصان من شرفى! أنا الثُّرَيَّا وذان الشيب والهَرَم
إذا تَرَحَّلْت عن قوم وقد قَدَروا أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ
شَرُّ البلاد مكان لا صديق به وشَرّ ما يَكْسِب الانسانُ ما يَصِم (٣)
وشرّ ما قنصته راحتى قَنَص شُهْبُ البُزَاة سواء فيه والرَّخَم
بأىّ لفظ تَقُول الشعر زِعْنِفَة تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَم (٤)
هذا عتابك إلا أنه مِقَة قد ضُمِّن الدر إلا أنه كَلِم (٥)

(١) الأمم : الوسط بين القريب والبعيد . (٢) يقول : ان المعرفة عند العقلاء بمثابة العهود الواجبة الرعاية . (٣) وصمه : عابه . (٤) زعانف كل شىء : خسائسه .
(٥) المقة : المحبة .

عتاب سعيد بن حميد لبعض إخوانه

قال سعيد بن حميد يعاتب بعض إخوانه :

أَقْلِل عتـابَك فالبقاء قليـــل ... والدهر يعـــدل تارة ويُميـــل

لم أبكِ من زمن ذَمَمْتُ صُروفه[1] ... إلا بَكَيت عليـه حين يزول

ولِكل نائبـة أَلَمَّت مُـدّة ... ولـكل حال أقبلت تحـويل

فالمُنْتَمُون إلى الإخاء عِصَابة ... إن حصّـلوا أفناهم التحصيل

ولعـل أحداثَ المنيـة والرَّدَى ... يوما سَتَصْدَع[2] بيننـا وتحـول

فلئن سَبَقتُ لَتَبكِينَّ بحسرة ... ولَيَكثُرن علىّ منـك عويل

ولَتُفْجَعَنّ بمخلص لك وامِق[3] ... حبـل الوفاء بحبـله موصول

ولئن سبقتَ ـ ولا سَبَقْت ـ[4] ليمضِينّ ... مَن لا يشاكله لدىّ خليـل

وليَذْهبَنّ بهـاء كُلِّ مُروءة ... وليُفقَدن جمالهـا المأهـول[5]

وأراك تَكْلَف[6] بالعِتـاب ووُدُّنا ... صاف عليـه من الوفاء دليـل

وُدٌّ بَدَا لِذوى الإخاء جمـاله ... وبدت عليـه بهجة وقبـول

ولعـلّ أيام الحيـاة قليـلة ... فَعَـلامَ يَكْثُر عَتْبنا ويطول

لوم الخوارزمى لتلميــذه

كتب أبو بكر الخوارزمى إلى تلميذ له كابر فى مجلس أدب :

بلغنى أنك نَاظَرْت، فلما تَوَجّهت عليك الحُجّـة كابرت؛ ولما وضع نِير[7] الحق على عُنُقك ضَجِـرت وتضاجرت . وقد كنتُ أحسَب أنك أعرف بالحق من أن

---

(١) صروف الدهر: نوائبه . (٢) صدع بين الشيئين: فرق . (٣) ومقه كوعده: أحبه .
(٤) قوله: ولا سبقت جملة دعائية وهى من ألطف الاحتراس . (٥) منزل مأهول أى عامر فيه أهله .
(٦) كلف بالشىء كلفا: أحبه . (٧) النير: الخشبة التى توضع على عنق الثور للعمل .

تَعقُّه ، وأهيب لحجاب الإنصاف والعــدل من أن تَشُقّه . كأنك لم تعــلم أنَّ لِسَان الضَّجَر ناطق بالعَجْز وأن وجه الظلم مُبَرْقَع بالقُبْح . وأنك إذا اسْتدركتَ على نَقْــد الصَّيَارفة، وتتبعت خطأ الحكماء والفلاســفة ، فقــد طَرَّقْتَ[1] إلى عيبك لعائبك ، ونَصَرْت عَدُوّك على صاحبــك . وقد عَجِبتُ من حسن ظنك بك ، وأنت إنسان والله المستعان .

تأنيب ابن مُكَرّم لأبى العيناء[2]

قال أبو الحسن الأخفش : كتب محمد بن مكرم الى أبى العيناء :

أما بعد فانى لا أعرف للمعروف طريقا أوعر ولا أحْزَن[3] من طريقه إليك، ولا مستودَعًا أقلّ زَكاةً[4] وأبعد نُمْا من خير يُحل عندك ؛ لأنه يصير منك الى دِين ردىء ولسان بذىء وجَهْلٍ قد مَلَك عليك طِباعك ؛ فالمعروف لديك ضائع والصنيعة عندك غير مشكورة . وإنما غرضك من المعروف ان تُحرِزه وفى مُوَاليه أن تَكْفُره .

تأنيب معاوية لابنه يزيد

كتب معاوية بن أبى سفيان الى ابنه يزيد وقد بلغه مُقارَفته[5] لِلّذات وانهماكه فى الشهوات :

أما بعد فقــد أدَّت ألْسِنَة التصريح الى أُذُن العناية بك ، ما جَنَّع الأمل فيك ، وباعد الرجاء منك ؛ إذ ملأت العُيون بَهْجة ، والقلوب هَيْبــة ، وترامت[6] اليك آمال

---

(١) طرقت الى كذا : فتحت اليه الطريق . (٢) أبو العيناء من أدباء القرن الثالث كان معروفا بجودة البديهة وحضور الجواب وشدّة العارضة وسيأتى شيء من أحاديثه وكان بينه و بين ابن مكرم مداعبات كثيرة توفى سنة ٢٨٣ هـ . (٣) الحزن من الأرض : الغليظ . (٤) الزكاة هنا : الزيادة . (٥) قارف الذنوب : قاربها وخالطها . (٦) ترامت اليه العيون : تطلعت .

الراغبين ، وهمّ المنافسين . فسَخَتْ بك فتيان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرة المهوعة (١) ، والكظ الجشء (٢) . اقتحمت البوائق (٣) ، وانقذت الى المعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر . فليتك — يزيد — إذ كنت لم تكن ، سَرَرت يافعا ناشئا ، وأثقلت كهلا ضائعا (٤) . فواحزناه عليك يزيد ! ويا حرّ صدر المثكل بك ! ما أشمت فتيان بني هاشم ! وأذلّ فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ، ورتق ما فتقت ؟ هيهات ، خمشت (٥) الدربة (٦) وجه التصبر بك . وأبت الجناية إلّا تحدّرا على الألسن وحلاوة على المناطق . ما أربح فائدة نالوها ، وفرصة انتهزوها ! انتبه «يزيد» للعظة ، وشاور الفكرة . ولا تكن الى سمعك أسرع من معناها الى عقلك . واعلم أن الذي وطّأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان ، مما حسن قبحه واحلولى عندك مرّه ، أمر شركك فيه السواد (٧) ، ونافسكه الأعبد . فاضعت به من قدرك وأمكنت به من نفسك فمن لهذا كله ؟

اعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة . بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ (٨) وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريتها عندك جهرا .

اعلم يا يزيد ان أوّل ما سلبكه السُّكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى . والفجعة الكبرى ترك الصلوات

---

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم . والمهوعة : من هوعه أي قيأه وهذا تمثيل : يقول : إنهم يستثقلون ذكرك . (٢) الكظ : الامتلاء من الطعام والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضا . (٣) البوائق : جمع بائقة وهي الداهية . (٤) الضائع والضليع : القوي . (٥) خمش : لطم . (٦) الدربة : التجربة . (٧) السواد : العامة . (٨) تقدم شرح غريب الآية في خطبة قطري .

المفروضات فى أوقاتها، وهى من أعظم ما يحدث من آفاتها، ثم استحسان العيوب، وركوب الذنوب، وإظهار العورة، وإباحة السِّر. فلا تأمن نفسك على سرِّك، ولا تَعْقِد[1] على فعلك. فما خير لذة تُعْقِب الندم، وتُعْفِي[2] الكرم؟ وقد توقَّف أمير المؤمنين بين شَطْرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة. فكن الحاكم على نفسك، واجعل المحكوم عليه ذِهْنَك، تَرْشَد إن شاء الله تعالى. ولْيَبْلُغ أميرَ المؤمنين ما يَرُد شاردا من نَومه فقد أصبح نُصْب[3] الاعتزال من كل مُؤانس، ودَرِيئة[4] الألْسُن الشامتة. وفقك الله فأحسن.

لـــوم

وقال أعرابى لابنه وسمعه يكذب:

يا بنى عجبت من الكذاب المُشيد بكذبه. وإنما يَدُل على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه؛ فالآثام له عادة والأخبار عنه متضادّة، إن قال حقا لم يُصَدَّق، وإن أراد خيرا لم يوفَّق. فهو الجانى على نفسه بفعاله والدال على فضيحته بمقاله. فما صَحّ من صدقه نسب الى غيره، وما صح من كذب غيره نسب اليه، فهو كما قال الشاعر:

حسب الكذوب من المها نة بعض ما يُحْكَى عليه
فاذا سمعت بكذبة من غيره نُسِبت اليه

(١) يقول: تفقد بالشراب الارادة والعزيمة. (٢) تعفى: تذهب. (٣) النصب هنا: الغرض والهدف. (٤) الدريئة: الحلقة التى يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها.

باب الشكوى

كتب عبد الحميد بن يحيي الى أهله وهو منهزم مع مروان :

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سَكَن اليها ومن عضّته بنابها ذمّها ساخطا عليها وشكاها مُسْتَزِيدا لهـا (١) . وقد كانت اذاقتنا أَفَاوِيق (٢) اسْتَحليناها ثم جَمَحت (٣) بنا نافرة ورَمَحتنا (٤) مولّيـة . فملُح عذْبها وخَشُن ليّنها فأبعدتنا عن الأوطان وفرّقتنا عن الإخوان . فالدار نازحة (٥) والطير بارحة (٦) . وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بُعْدا وإليكم وَجْدًا ، فإن تَتِمّ البلية الى آخر مدتها يكن آخرُ العهد بكم وبنا . وإن يَلْحَقنا ظُفُر جارح من أظفار من يليكم نَرْجِع إليكم بذل الإسار والذل شرجار . نسأل الله الذى يُعِز من يشاء ويُذِل من شاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دارٍ آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .

وكتب حافظ بك ابراهيم الى المرحوم الشيخ محمد عبده يشكو حاله وهو ضابط بالسودان :

كتابى إلى سيدى وأنا من وعده بين الجنة والسَّلْسَبيل (٧) ، ومن تِيهى به فوق النَّثْرة (٨) والإكليل (٩) . وقد تَعَجَّلت السرور ، وتَسَلَّفْت (١٠) الحُبور ، وقَطَعْت ما بينى وبين النوائب :

---

(١) يقول : ان الانسان فى شكايته الدنيا لا ينتصف منها بل كأنه يستزيدها .

(٢) الأفاويق : جمع أفواق . والأفواق : جمع فيقة وهى اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين .

(٣) جمحت الدابة : غلبت راكبها . (٤) رمح الفرس : رفس . (٥) النازح : البعيد .

(٦) البارح من الطير : ماص من ميامنك الى مياسرك ، ومن الناس من يتشاءم به . (٧) السلسبيل : الشراب السهل فى الحلق ، وسلسبيل اسم عين فى الجنة . (٨) النثرة : كوكبان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب . (٩) الاكليل : أربعة أنجم مصطفة وهى منزل للقمر .

(١٠) تسلف : اقترض . يقول : إن يقينى بوفاء الوعد جعلنى أفرح قبل الانجاز كأنه أنجز .

وبَشَّرت أهلى بالذى قد سمعتهُ فما مِحنتى إلا ليـال قلائل

وقلت لهم : للشيخ فينا مشيئة فليس لنا من دهرنا ماننازل

وجمعت فيه بين ثقة الزُّبيدى[1] بالصَّمْصامة ، والحارث[2] بالنَّعامة ، فلم أقل فيه ماقال الهُذَلى[3] لصاحبه حين نسى وعده ، وحجب رِفْده :

* يا دار عاتكة التى أتعزّل *

بل أناديه نِدَاء الأخيذة فى عَمُّورِيَّة ، شُجَاع[4] الدولة العباسية ، وأمد صوتى بذكر إحسانه ، مدَّ المؤذن فى أذانه ، واعتمد عليه فى البعد والقرب ، اعتماد الملَّاح على نجمة القطب .

---

(١) الزبيدى : هو عمرو بن معد يكرب الذى يضرب به المثـــل فى الشجاعة . والصمصامة : سيف عمرو وهو سيف مشهور وآخر عهدنا به فى التاريخ أنه آل الى موسى الهادى أخى الرشيد ، ومنزلة الصمصامة بين النصال كمنزلة صاحبها بين الأبطال . (٢) الحارث هو الحارث بن عباد البكرى الذى مر ذكره فى مرثاة البارودى لزوجته . والنعامة : فرسه وهى التى يقول فيها :

قربا مربط النعامـــة منى إن بيع الكريم بالشسع غالى

الخ القصيدة التى كرر فيها الشطر الأول نحو أربعين مرة . (٣) يشير الى قصة ذكرها صاحب الأغانى بين أبى جعفر المنصور ورجل من الأنصار ، وخلاصتها أن المنصور لما حج طلب من وزيره الربيع أن يسايره برجل يكون خبيرا بالمدينة وأهلها ، فاختار الربيع له رجلا من الأنصار وأمره أن لا يتكلم إلا بما يسأل عنه ثم لما رضيه المنصور قال له : أمرت لك بأربعة آلاف درهم فاحتال الرجل فى أن يقبضها فلم يمكنه وأزمع الخليفة على السفر ، فلما هم بفراقه قال مبتدئا ياأمير المؤمنين : هذا بيت عاتكة ، فقال : وما بيت عاتكة؟ قال : الذى يقول فيه الأحوص : يا بيت عاتكة الذى أتعزل . فقال المنصور : ثم ماذا؟ قال إنه يقول فيها :

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم مذق الحديث يقول ،الا يفعل

فضحك المنصور وتذكر ماوعده به ونجزه له . وعلى ذلك فالرجل ليس هذليا بل هو أنصارى .

(٤) الأخيذة : الأسيرة . وشجاع الدولة العباسية : المعتصم . يشير الى قصة تاريخية وهى أن امرأة مسلمة سباها الروم فصاحت وامعتصماه ، فلما بلغه الخبر قال : لبيك وخرج غازيا بجحفل جرار حتى فتح عمورية وفى ذلك يقول أبو تمام :

لبيت صـوتا زبطريا هرقت له كاس الكرى ورضاب الخرد العرب

وقال أُصيحابى وقد هالنى النوى وهالهم أمرى : متى أنت قافل ؟
فقلت : إذا شاء الإمام فأَوْبتى قَريبٌ ورَبْعى بالسعادة آهـل

وها أنا (١) مُتَمَاسك حتى تحسر هذه الغَمْرة . وينْطوى أجل تلك الفتْرة ، وينظر إلى سيدى نظرة ترفعُنى من ذات الصَّدع ، الى ذات الرَّجع (٢) ، وتردنى الى وَكْرى الذى فيه دَرَجْت رَدَّ الشمس قطرة المُزْن إلى أصلها ، ورد الوَفِىّ الأمانات إلى أهلها .

فإن شاء فالقُرْب الذى قد رجوته وإن شاء فالعِزّ الذى أنا آمل
وإلّا فإنى قاف رؤبة (٣) لم أزَلْ بقيْـد النوى حتى تَغُول الغوائل

فلقد حَلَلْت السودان حُلُول الكَلِيم (٤) فى التابوت ، والمُغَاضب (٥) فى جَوْف الحُوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة ؛ لا بل حلول الوَزير (٦) فى تنُّور العَذَاب ، والكافر فى موقف الحساب ، بين نارين : نار القيظ ، ونار الغيظ .

فناديتُ باسم الشـيخ والقَيْظ جَمْرة تُذيب دِمَاغ الضَّبِّ (٧) والعقل ذاهل

---

(١) أدخل الكاتب ها التنبيه على ضمير ليس بعده اشارة وفصيح العربية التزام الاشارة فكان عليه أن يقول وهأنذا ، والمتماسك : المتصبر الحافظ لقواه . (٢) ذات الصدع : الأرض . والصدع : النبات لأنه يصدعها أى يشقها . وذات الرجع : السماء . والرجع : المطر لأنه يرجع مرة بعد أخرى . والمراد تعيدنى من السودان الذى هو من مصر كالأرض من السماء . (٣) رؤبة رجاز مشهور كان فى عهد الدولة الأموية وله أرجوزة رويها قاف ساكنة منها :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترق *

وهى طويلة جدا . وتسكين حرف الروى يسمى عنـدهم تقييدا . ومن أجل اكثار رؤبة من القافات الساكنة فى هذه الأرجوزة ضرب بقافه المثل لكل من طال قيده وحبسه . (٤) الكليم : سيدنا موسى . يشير الى قصته اذ وضعته أمه فى التابوت وألقته فى اليم . (٥) المغاضب : سيدنا يونس الذى مكث فى بطن الحوت أمدا طويلا . (٦) الوزير هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى سبق ذكره ، وقد كان اتخذ تنورا يعذب فيه العمال ، فلما غضب عليه المتوكل ألقاه فيه لتعذيبه ولم يزل به حتى مات .

(٧) قدمنا أن الضب : شديد الصبر على الحرارة ، فالحر الذى يذيب دماغه لفح من جهنم .

فصرت كأنى بين رَوْض ومَنْهل تَهُبّ الصبا فيــه وتشدو البــلابل

والیوم أكتب إليه وقد قَعَدَتْ هِمَّة النَّجْمَين وقصرت يد الجَديدين(١) عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد فلقد نَمَى ضَبُّ(٢) ضِغْنه علىَّ، وبدرت بوادر السوء منه إلىَّ، فأصبحت كما سَرّ العدوّ وساء الحميم، وآلامى كأنها جُلود أهل الجحيم، كلما نَضِج منها أديم تجدد أديم(٣). وأمسيت ومُلْك آمالى إلى الزوال، أسرع من أَثَر الشِّهاب فى السماء، ودولة صبرى الى الاضْمِحلال، أحَثُّ(٤) من حَبَاب المــاء. فنظرت فى وجوه تلك العباد، وإنى لفَارِسُ العين والفُؤاد، فلم تَقَف فِراستى على غير بابك.

⁂

وكتب البديع الهمذانى الى أبى نصر الميكالى يشكو اليه خليفته بهرَاة :

أطال الله بقاء الشيخ الجليل. المــاء اذا طال مُكْثُه، ظهر خُبْثه، وإذا سَكن مَتْنُه، تَحرَّك نَتْنه، كذلك الضيف يَسْمُج لقاؤه، إذا طال ثَوَاؤه(٥)، ويَثْقُل ظِلّه، إذا انْتهى مَحَلُّه(٦). وقد حَلَبْت أشْطُر خَمْسة أشهر بهرَاة وإن لم تكن دار مثلى اولا مُقَامه، وما كانت تَسَعُنى لولا ذِمَامه(٧). ولى فى بيتى قيس(٨) مَثَل صِدْق، وإن صدرا مَصْدَر عِشْــق :

وأدْنَيتِنى حـتى إذا ما سَبَيْتِنِى بقول يُحِل العُصْم(٩) سَهْل الأباطح

تَجافيتِ عَنّى حيث لا لِى حيلة وخَلَّفْت ما خَلَّفت بين الجوانح

(١) الجديدان : الليل والنهار. والنجمان : أحدهما الثريا ولعل الآخر الجوزاء.

(٢) الضب : الحقد. (٣) يشير الى قوله تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها).

(٤) أحث : أسرع. (٥) الثواء : الاقامة. (٦) انتهى محله : تناهى حلوله.

(٧) الذمام : العهد. (٨) هو قيس بن الملوح الذى يعرف بالمجنون. (٩) العصم : جمع أعصم أو عصماء وهو ما فى ذراعيه أو احداهما بياض من الظباء والوعول.

نعم قنصتني نِعَم الشيخ فلما عَلِق الجَنَاح وقَلِق البرَاح طار مَطَار الريح لا بل مطار الروح وترَكني بين قوم : ينقض مَسّهم الطَّهارة، وتُوهِن أكُفَّهم الحجارة . وحُدّثت عن هذا الخليفة لا بل الجيفة أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد هذا البلد وليس يَقْنع فما أصنع؟ فقلت : يا أحمق ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك . أُفٍّ لقولك ولفعْلك، ولدهر أحوج إلى مثلك! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يُبَيِّض وجهى بكتاب يُسَوِّد وجهه ويعرفه قدره ويملأ رُعْبا صدره، إلى أن تَبِين على صفحات جَنْبه آثار ذنبه . وله فيما يفعل رأيه الموفّق ان شاء الله .

***

وكتب سعيد بن عبد الملك الى الوزير عبيد الله بن سليمان (١) وقد حجب عنه :

سرتُ إلى بابك — أعزّك الله — عند ما حدث من أمرك (٢) فلم يُقْض لقاؤك، وعلمت أن ثِقتَك بما عندى قد مَثّلَت لك حالى من السرور بنعمة الله عندك، وأرتك موضعى من الاعتداد بكل ما خَصَّك ووصل إليك؛ فوكَلْت العُذْر الى ذلك .

ثم إنا نأتيــك مُتَيَمِّنِينَ بطَلْعَتك مُشْتَاقين إلى رُؤيتــك فَيحجُبنا عنك ملاحظه وهو كما علمت نَكِدُ الصَّنيعة، لئيم الطبيعة يحجُبُ عنك الكرام، ويأذَن عليك للئام، كلما نَجَمَت له يد بيضاء أتبعها يدا سوداء . فإن رأيت — أعزك الله — أن تَصْرِفه عن باب مَكَارِمك فعلت إن شاء الله .

---

(١) هو عبيد الله بن سليمان بن وهب . وقد مضى ذكره عند الكلام فى ابنه الوزير القاسم .

(٢) يريد توليه الوزارة .

باب فى حسن التقاضى ولطف الاستمناح

تأثير لطف الطلب فى نفس المؤمّل

قال سليمان بن عبد الملك : ماسألنى أحد قطُّ مسألة يَثْقُل علىّ قضاؤها ولايَخِفُّ لدىّ أداؤها بلفظ حَسَن يجمع له القلب فهمه ، إلا قضيتها له ؛ وان كانت العَـزيمة قَصَدت الى منعه وكان الصواب مُسْتَقِرًّا فى دفعـه ، ضَنًّا بالصَّوَاب أن يُرَدَّ سائله أو يُحْرَم نائله .

استمناح أعرابى لسيدنا على

يروى أن أعرابيا وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن لى اليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها اليك فان أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وان أنت لم تقضها حمـدت الله تعالى وعَذَرتك . فقال له على : خُطَّ[1] حاجتك فى الأرض فإنى أَرَى الضُّر عليك . فكتب الأعرابى على الأرض : إنى فقير . فقال على : يا قنبر[2] ادفَع اليه حُلَّتى الفلانية . فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كَسَوْتَنى حُـلَّة تَبْـلَى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثَّنا حُللا

إن الثناء لَيُحْيِى ذكر صاحبـه ... كالغَيْث يُحْيِى نداه السَّهْل والجبـلا

لا تزهَـد الدهر فى عُرْف بدأت به ... فكل عبـد سَيُجْزَى بالذى فعـلا

فقال على : ياقنبر أعطه خمسين دينارا ؛ أما الحُلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك .

---

(١) انما دعاه الى كتابة حاجته رفقا به وصيانة لماء وجهه وتلك كانت عادته ؛ فقد ذكر صاحب العقد أنه رضى الله عنه : كان يقول لأصحابه من كانت له الى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة .

(٢) قنبر كجعفر : مولى على وخادمه .

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان

وَفَد رجل من بني ضَبَّة على عبد الملك بن مروان فقال :

والله ما ندرى اذا ما فاتنا ... طَلَبٌ اليك من الذى نَتَطَلَّب؟

فلقد ضَربنا[1] فى البلاد فلم نجد ... أحدا سواك الى المكارم يُنْسَبُ

فاصبر لعادتنا التى عودتنا ... أَوْلَا فأرشدنا الى مَنْ نذهب؟

فقال عبد الملك : الىّ! الىّ! وأمر له بألف دينار . ثم أتاه فى العام المُقْبل فقال :

يَرُبُّ[2] الذى يأتى من الخير أنه ... اذا فعل المعروف زاد وتَمَّمَا

وليس كبَانٍ حين تَمَّ بناؤه ... تَتَبَّعه بالنَّقْض حتى تَهَدَّما

فأعطاه ألفى دينار . ثم أتاه فى العام الثالث فقال :

اذا استُمْطِروا كانوا مَغَازِير[3] فى النَّدى ... يجودون بالمعروف عودا على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار .

استمناح العتابى لأحد أصدقائه

كتب كُلْثُوم[4] بن عمرو العَتَّابى الى صديق له :

أما بعد — أطال الله بقاءك ، وجعله يمتد بك الى رضوانه والجَنَّة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب اليها ، وكُنَّا

---

(١) ضرب فى الأرض : سافر . (٢) رب : زاد وأصلح . (٣) اغزر المعروف : جعله غزيرا . والمغازير : لا يكون إلا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس . وفى المخصص : سحابة مغزار : غزير فيكون جمعا لمغزار حتما . (٤) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعرا مترسلا بليغا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره فى الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين ... اذا ما تأمله الناظر

لمثلته لك حتى تراه ... لتعلم أنى امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

نُعفيها من النُّجْعة[1] استماما لزَهْرتها، وشَفَقة على خُضْرتها، وادخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندى قطعة من سنى يوسف، واشتد علينا كَلَبها[2]، وغابت قِطّتها، وكَذَبَتْنا غُيومها، وأخْلَفَتْنا بُروقها، وفَقَدنا صالح الإخوان فيها، فانْتَجَعْتُك . وأنا بانتجاعى إياك شديد الشَّفَقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد[3] وأنك تُغَطّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعُدُّك إلا فى حَومة الأهل[4]. واعلم أن الكريم اذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يعرف جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول فى ذلك[5] :

اذا تَكَرَّمت عن بذل القليل ولم ... تَقْدِر على سَعة لم يظهر الجود

بثّ النوال ولا تَمْنَعْـك قِلَّتُـه ... فكل ماسَـدّ فقرا فهو محمـود.

قيل فشاطره جميع ماله .

استمناح أعرابية لعبد الله بن أبى بكرة

دخلت أعْرابية على عبد الله بن أبى بَكْرة[6] بالبَصْرة فوقفت بين السِّماطين[7] فقالت :

— أصلح الله الأمير وأمْتَعَ به — حَدَرَتْنا إليك سَنَةٌ اشْتَدّ بَلاؤها، وانكشف غِطَاؤها، أقود صبية صغارا، وآخرين كبارا، فى بلدة شاسعة، تَخْفِضُنا خافضة وتَرْفَعُنا رافعة، لِمُلِمّات من الدهر أذْهَبْنَ لحمى، وبَرَيْن عَظْمى، وتَرَكْنَنِى وَالِهة[8] أَدُور بالحضيض، وقد ضاق بى البلد العريض . فسألتُ فى أحياء العرب : من الكاملة

---

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

(٥) كذا ذكر القالى فى أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض . هذا والمعروف أن هذه الأبيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا للعتابى وتبعة هذا على القالى .

(٦) هو ابن أخى زياد ابن أبيه . (٧) السماط : الصف . (٨) الوالهة والوطى : الشديدة الحزن

فضائله ، المُعْطَى سائله ، الكافى نائلُه ؟ فدللت عليك — أصلحك الله تعالى — وأنا امرأة من هَوازن[1] ، قـد مات الوالد ، وغاب الرّافد ، وأنت بعـد الله غِياثِى ومنتهى أمَلى ، فاصنع بى إحدى ثلاث خصال : إما أن تَرُدَّنى الى بلدى ، أو تحسن صَفَدى[2] ، أو تقيم أوَدِى[3] .

فقال : بل أجْمَعُهن لك . ولم يزل يُجْرى عليها كما يُجْرى على عياله حتى ماتت !

استمناح حكيم فارسى للمهلب

قال الهَيْثَم بن عَدِىّ : قدم حَكيمٌ من حُكماء أهل فَارِس على المُهَلَّب فقال : — أصـلح الله الأمير — ما أشْخَصَتْنِى الحاجة ، وما قَنِعْت بالمُقَـام ، ولا أرْضى مِنْك بالنَّصَف اذ قمتُ هـذا المَقَام . قال : ولم ذلك؟ قال : لأن الناس ثلاثة : غَنِىّ وفقير ومُسْتَزِيد . فالغَنِىّ من أُعطى ما يستحقه ، والفقير من مُنِـع حَقَّه ، والمستزيد الذى يطلب الفضل بعد الغنى . وإنى نظرت فى أمرك فرأيتُ أنك قد أدَّيت الىّ حقى ، فتاقت نفسى الى اسـتزادتك ، فان منعتنى فقد أنْصَفْتَنى ، وان زِدْتَنى زادت نعمتك علىّ .

فأعْجَب المهلبَ كلامُه وقضى حوائِجه .

تلطف رجل من أهل الشام فى استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبى جعفر المنصور فتكلم معه كلاما حسنا . فقال له أبو جعفر : حاجَتَك . فقال : يُبْقِيك الله يا أمير المؤمنين . قال : حاجتك فانه

---

(١) هوازن : قسم من قيس وعبد الله بن أبى بكرة نسبه فى ثقيف وهم من هوازن فهى تريد أن تميله بعاطفة القرابة . (٢) الصفد : العطاء . (٣) الأود : الاعوجاج .

ليس كلَّ ساعة يمكنك هذا ولا تؤمر به . فقال : والله ما أستقصر عمرك ، ولا أخاف بُخلك ، ولا أغتنم مالك ، وان سؤالك لشرف ، وان عطاءك لزَيْن ، وما بامرئ بذل وجهه اليك نقص ولا شَين . فأمر له المنصور بمنحة سنية .

وقد ألمَّ الرجل فى أكثر معانيه بقول أُمَيَّة بن أبى الصلت يستمنح عبد الله ابن جُدْعان(١) القرشى :

عطاؤك زَيْن لامرئ ان حبوته	ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشَيْن لامرئ بذل وجهه	اليك كما بعض السؤال يَشين

* * *

ومن ألطف الاستمناح قول أمية يُخاطب ابن جُدْعان أيضا :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى	حِباؤك إن شِيمَتك الحِباء
وعلمك بالأمور وأنت قَرْم	لك الحسب المُهَذَّب والسَّناء(٢)
كريم لا يُغَيِّره صباح	عن الخلق الجميل ولا مَسَاء
تُبَارى الرِّيح مَكْرُمة ومجدا	اذا ما الكلب أَجْحَره الشِّتاء(٣)
اذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تَعَرُّضه الثناء(٤)

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العتبى : وفد عبد العزيز بن زُرَارة على معاوية ، فلما أذِن له وقف بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! لم أزل أهُزُّ ذوائب(٥) الرحال اليك ، اذ لم أجد مُعَوَّلا

(١) عبد الله بن جدعان من بنى تيم رهط سيدنا أبى بكر الصديق وهو جواد مشهور وكان أمية مدّاحا له منقطعا اليه توفى أمية بين يدى الاسلام . (٢) القرم : الفحل والسيد . والسناء : الشرف ، والسنا : الضوء . (٣) أجحره : ألجأه . (٤) يقول : إنك لا تجشم المحتاج مؤنة السؤال لأنك تستغنى بثنائه عن استجدائه . (٥) الذوائب : جمع ذؤابة وهى الجلدة المعلقة على آخرة الرحل .

إلا عليك، أمتطى الليل بعـد النهار، وأسِم المجاهل بالآثار[1]، يقودنى اليـك أمل، وتسوقنى بلوى والمجتهد يعذر وإذ قد بلغتك فقطنى[2] .

فقال معاوية : احطُط عن راحلتك .

* * *

ولما ولّى الخليفـة المهتدى سليمان[3] بن وهب وزارته قام اليـه رجل من ذوى حرمته فقال : — أعزّ الله الوزير — أنا خادمك المؤمّل لدولتك، السعيد بأيامك، المنطوى القلب على ودّك، المنشور اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك . وقد قال الشاعر :

وفيتُ كلّ صديق ودّنى ثمناً ... إلا مؤمّـــل دولاتى وأيّامى

فاننى ضامن أن لا أكافئــه ... إلا بتسويغه[4] فصلى وإنعامى

وإنى لكما قال القيسى[5] : مازلت أمتطى النهار اليك، واستدل بفضلك عليك، حتى اذا اجتنّ الليل فغضّ البصر، ومحا الأثر، قام الرجاءُ يدنى سائر أملى، والنفس راغبـة والاجتهاد عاذر وإذ قد بلغتك فقدنى . فقال سليمان : لا عليك فانى عارف بوسيلتك محتاج الى اصطناعك وكفايتك، ولست أؤخر عن يومى هذا توليتك مايحسن عليك أثره، ويطيب لك خبره .

* * *

وكتب رجل من أهل البصرة الى أخ له :

أما بعـد فانه يسهّل علىّ طلب الحاجة أمران فيك، وأمران لى، وأمرٌ من قبل الله وبه تمامها ؛ فأما اللذان فيك فاجتهادك فى النُّجح، ومبالغتك فى الاعتذار، وأما

(١) وسم الأرض كوعد : ترك فيها أثرا . (٢) قطنى اسم فعل بمعنى يكفينى ومثلها قدنى .

(٣) سليمان بن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدّم ذكر ابنه عبيد الله وحفيده القاسم . توفى سليمان سنة ٢٧٢ هـ . (٤) سوغه : أناله . (٥) يريد بالقيسى عبد العزيز بن زرارة المتقدم لأنه من بنى عامر ثم من هوازن ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

اللذان لى فانى لا أَضِيق عليك بعُـذْرى ، ولا أصون عنك شكرى، وأما الذى من قبل الله عز وجل فإيمانى بأن كل مُقَدّر كائن والسلام .



وكتب السيد مصطفى لطفى المنفلوطى :

أنا إن سألتك حاجتى — أعزك الله — وبَسَطْت اليك يد رجائى فقد طَرَقْتُ باب المكارم، واستمطرت غَيْث المراحم، ورجوت واحد الدهر همّة وحزما، ونادرة الوجود كرما وفضـلا . فان أنجزتهـا فليست أُولى الهِمَم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت الىّ منك أيادٍ تَخْرَس دونها ألسنة الشكر، وتَضيق بهـا جَرَائد[1] الحَصْر . ولقد مَثَّلت — أيدك الله — بين أن أَسْتَشْفِع اليك بذَوى الجاه عندك، والزُّلْفى[2] لديك، وبين[3] أن أكل ذلك الى كرمك وفضلك وما طُبِعَتْ عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر، فرأيت أن الثّانية بك أحْرَى، وبفضلك أجدر . والسلام .

استمناح الصابئ لبعض الرؤساء

كتب أبو اسحاق[4] الصابئ الى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة — أطال الله بقـاء الأمير — بالتّمْهيد للحاجة قَبْـل مَوْرِدِها، وإسْلَاف[5] الظنُّون الداعية الى نَجاحِها . وسالك هذه السبيل يُسِيءُ الظن بالمسئول، فهو لايلتمس فضله الا بجَزاء، ولا يستدعى طَوْلَه الاقضاء . والأمير بكَرمه الغريب، ومذهبه البديع، يُؤْثِر أن يكون السّلَفُ له، والابتـداء منه، ويوجب على المُهَاجِم

---

(١) الجرائد : جمع جريدة وهى السعفة وكانت يكتب فيها، فالمراد الصحائف . (٢) الزلفى : القربة والمنزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا، وهو جائز مسموع وأنا استحسنه اذا طال ما قبل المعطوف كما هنا . (٤) الصابئ : هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال كاتب ديوان الانشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه وهو معدود من رجالات الكتابة توفى سنة ٣٨٤هـ . (٥) الاسلاف : التقديم .

برغبته اليه، حَقَّ الثقة به . فالحمد لله الّذى أفرده بالطرائق الشريفة، ووحّده بالخلال المُنيفَة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولُمعته (١) البَاقية المنيرة .

* * *

وكتب محمد بن عَبَّاد الى جَعْفَر بن محمد وزير المعتز وكان يختص به ويتقرب اليه قبل الوزارة :

ما زلت — أيدك الله تعالى — أذُمُّ الدهر بذَمّك إياه، وانتظر لنفسى ولك عقباه ، وأتمَنّى زوال من لا ذَنْب له ، الى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله ، وأترك الإعذار (٢) فى الطلب ، على الاختلال (٣) الشديد ضَنًّا بالمعروف عندى إلا عن أهله ، وحبسا لرجائى إلا عن مُسْتَحِقّه .

ومن أرق الاستماحة (٤) ما كتبه عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر الى سليمان بن وهب لما ولى الوزارة، فقد كتب اليه :

أبى دَهْرُنا إسْعَافَنا فى نُفُوسنا ... وأسْعفنا فيمن نُحب ونُكْرِم

فقلت له : نُعْمَاك فيهم أتِمَّها ... ودَعْ أمْرَنا إن المُهِمَّ المُقَدَّمُ

فأُعْجِب سليمان بلطف طلبه فى تهنئته وقضى حوائجه .

* * *

وقال أعرابى لرجل : ما اتَّهَمْتُ حُسْن ظنى بك، منذ توجّه رجائى نحوك، ولا قعدت بجَدّ (٥) فائل باعتمادى عليك، ولا استدعتنى رغبة عنك الى مَنْ سواك، ولا أرانى الاختيار غيرك عِوَضا منك .

---

(١) اللمعة : البقعة والقطعة من الجسد تبرق . (٢) أعذر : بالغ . (٣) الاختلال : الاحتياج . (٤) الاستماحة : الاستماح . (٥) الجد : الحظ . والفائل : المخطئ .

*
* *

وكتب البديع الهمذانى فى بابه الى بعض أصحابه :

لك — أعَزَّك الله — عادةُ فضل ، فى كل فصل ، ولنا شِبْهُ مَقْت ، فى كل وقت . ولعمرى ان ذا الحاجة مَقِيتُ(١) الطَّلْعة ، ثِقيل الوَطْأة ، ولكن لَيْسُوا سواء .

*
* *

وكتب أبو العَيْنَاء الى عُبَيْد الله بن سليمان :

أنا — أعزك الله — وولدى وعيالى زَرْع من زَرْعك ، ان أسقيته رَاعَ(٢) وزكا ، وان جفوته ذَبَل وذَوَى . وقد مسنى منك جفاء بعد برّ ، وإغفال بعد تعاهد ، حتى تكلم عدو وشَمِت حاسد ولَعِبت بى ظنون رجال كنت بهم لاعبا ، ولهم مُخْرِسا .

ولله در أبى الأسْود فى قوله :

لا تُهِنِّى بعد إن أكرمتنى وشـديد عادة منتزعة

(١) المقيت والمقوت : البغيض المكروه . (٢) راع : نما وزاد وبابه باع .

باب الشكـــر والتهـانئ

فصـــل فى الشـــكر

كتب مالك بن أسْمـاء (١) الى الهَيْثَم بن الأسْود النَّخَعِى يَشْكُرُ له قيامه بأمر رجل من آل حُذَيْفَة بن بدر عند الحجاج حتى خَلَّصَه منه :

أما بعد، فانّه لمـا كَلَّت الألْسُن عن بلوغ مااستحققت من الشكر كان أعْظَمُ الحِيَل عندى فى مكافأتك إخْلَاصَـك صدقَ الضمير . وكما لم نعَـرِف الزيادة فى العلا اذا جريت غاية طَوْلك (٢)، جهلنا غايةَ الثناء عليك . فليس لك من الناس إلّا ما أُلْهموا من محبّتك ، فأنت كما وصف الواصف إذ يقول :

فما تَعْرف الأوهامُ غايةَ مَدْحه ... يَقينا كما ليست بغايتـه تَدْرِى

* * *

وكتب أحمد بن أبى طاهر يَشْكُر على بن يحيى (٣) :

وصل الىّ ــ وصل الله نعمتك بالمزيد ــ ما ابتدأتَ به من بِرّك الْمُتَتَابع ، وفضلك الواسع ؛ فصادفنا على حال من الخَلَّة (٤) قد دعتنا ضرورة الحاجة بها الى ذُلّ المسألة ؛

---

(١) هو مالك بن أسماء بن خارجة من آل حذيفة بن بدر الفزارى وكان شاعرا بارعا وهو القائل :

وحـــديث ألذه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحنا

وكان الحجاج متزوّجا باخته هند . وله معه أخبار كثيرة . (٢) الطول : القدرة . (٣) هو على ابن يحيى المنجم من ندماء المتوكل وخواصه وكان أثيرا عنده وعند من بعده من الخلفاء حظيا لديهم يفضون اليه بأسرارهم و يأ منونه على أخبارهم ، وكان راوية للأشعار والأخبار توفى سنة ٢٧٥ هـ فى خلافة المعتمد .

(٤) الخلة : الحاجة .

فرمّ[١] ماثلمه الدهر من مُرُوءتنـا ، وسَدَّ ما كشفه من خَلّتنا ، وكفانا مؤونة الامتحان للاخوان فى مَوَدّتنا ، وسَتَر وجوهنا بالصيانة عن المسألة ، وأبقى جاهنا عند أهل المودة . فما ظَنُّـك بمعروف صادف حاجة ، وصَنِيعة كان إلباسها بلا ذِلَّة ولا بِذْلة[٢] ، ومَعُونة جاءت بلا مَؤُونة ، وغيث جاد بلا عارض ولا مُخِيلة[٣] ، وأمل أُدْرِك بلا تعب ، وحق أُوجِب بلا حُرْمة ولا سبب؟ ما كان إلّا كالقَطْر ، فى الأرض القَفْر ، أغْفَلها الزّمان ، وجَفاها العُمْران . وكل معـروف وان كثر فاكثر منـه فَضلك ، وكل صَنِيعَة وان كَبُرت فأكبر منها الأمل فيك ، وكل شكر بلغ غاية محمودة فاقلّ كرمك يستَغْرقه . قـد فُتّ والله المادح المُطْنِب ، وقَصُر عنك لسان الشاكر المعترف والحامد المجتهد ، وأنْفَدَ فضلك المحاسن ، واستوفى أَقَلُّك جميع الفضائل ، وكلّ دونك لسان الخطيب والشاعر ، وتزينت بك الأيام ، وازدحمت عليك الأمال ، وامْتَثَل مكَارِمك الكِرَام ، وقَصَّر عنك الجِيَاد والأجواد . فالى الذى زَيَّنَنَا بإخائك ، نَرْغَب فى بقائك ، ونسأله أن يَهَبَك لفاقتنا اليك ، واتكالنا بعده عليك .



وكتب أبو الفضل الميكالى يشكر (من رسالة) :

فأمّا الشُّكْر الذى أعارنى رِداءه ، وقَلّدنى طَوْقَه وسَـنَاءه ، فهيهات أن يَنْتَسِب إلا إلى عادات فضله وإفضاله ، ولا يسـير إلا تحت رايات عُرفه ونَوَاله . وهو ثَوْبٌ لا يُحَلّى إلا بذِكْره طِرَازه ، واسم له حقيقته ولسواه مجازه . ولو أنه حين ملك رِقّى بأيَادِيه ، وأعجز وُسْعى عن حقوق مكارمه ومساعيه ، خَلّى لى مذهب الشكر ومَيْدانه ، ولم يُجَاذِبنى عِنانه ، لتَعَلَّقْتُ من بلوغ بعض الواجب بعُرْوَة طَمَع ، ونهضت

---

(١) رم الشىء : أصلحه . (٢) البذلة : ابتذال النفس وامتهانها . (٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . والسحابة المخيلة : الممطرة .

فيـه ولو على وَهْن وظَلَع (١) . ولكنه يأبى إلا أن يستولى على أَمَد الفضائل ، ويَسْتَنِم (٢) ذرا الغوارب منها والكواهل ، فلا يدع فى المجد غَايَةً إلا سَبَق اليها فَارطا (٣) ، وخَلَّف سِواه عنه حَسِيرا (٤) ساقطا ، لتكون المعالى بأسرها مجموعة فى مِلْكه ، منظومة فى سلكه .

* * *

وكتب أبو الفضل بن العميد الى بعض القضاة شاكرا :

وصل كتابك الذى وَصَلْت جناحه بفُنُون صِلَاتك وتَفَقُّدك ، وضروب بِرّك وتَعهُّدك ، فارتحت لكل ما أوْليت ، وابتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانه فى كل فصل الى نظائره التى وَكَلْت بها ذُكْرى (٥) ووقفت عليها شُكْرى . وتأملت النظم فملكنى العُجْب به ، وبَهرَنى التَّعَجُّب منه ، وقد رمت أن أجرى على العادة فى تشبيهه بمُسْتَحْسَن من زهر جَنِىّ ، وحُلَل وحُلِىّ ، وشُذُور (٦) الفرائد ، فى نحور الخرائد . فلم أرَه لشىء عِدْلا (٧) ، ولا أرضى ما عَدَدْته مِثلا ، والله يَزيدك من فضله ، ولا يُخْليك من إحسانه وطَوْله ، ويُلْهِمك من بِرّ إخوانك ما تُتَمِّم به صنيعك لديهم ، ويَرُبُّ معه إحسانك اليهم .

* * *

وكتب الحسن بن وَهْب (٨) يشكر :

من شكرك على درجة رفعته اليها ، أو ثروة أقدرته عليها ، فان شكرى لك على مُهْجة (٩) أحْيَيْتَها ، وحُشَاشة (١٠) أبقيتها ، ورَمَق أمْسكت به وقُمْت بين التالف و بينه ؛ فلكل نِعمة

(١) الوهن : الضعف . والظلع : ضرب من العرج . (٢) استنم وتسنم : صعد وركب . والغوارب : جمع غارب وهو ما بين الكاهل والسنام من البعير . (٣) الفارط : المتقدّم . (٤) الحسير : المجهود المتعب . (٥) الذكر : التذكر . (٦) الشذور : جمع شذرة وهى اللؤلؤة الصغيرة والقطعة من الذهب . (٧) العدل : النظير . (٨) هو أخو سليمان بن وهب السالف الذكر ، وكان من أعلام البلاغة إلا أنه لم يصل الى مرتبة الوزارة كأخيه . (٩) المهجة : الروح ودم القلب . (١٠) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح ، ومثلها الرمق .

من نعم الدنيا حَدّ تَنْتَهِى اليه، ومَدًى يُوقَف عنده، وغاية من الشكر يَسْمُو اليها الطرف؛ خلا هــذه النعمة التى قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأَتَتْ من وراء كل غاية . رَدَدْت عنا كيد العَدُوّ، وأرغمت أنف الحسود . فنحن نلجأ منك فيهــا الى ظِلّ ظليل وكَنَفٍ كريم فكيف يشــكر الشــاكر، وأين يبلغ جُهْدَه المجتهد !

* * *

وكتب الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد عبده يشكر لحافظ بك ابراهيم تعريبه الجزء الأوّل من كتاب البائسين (البؤساء) لفكتور هيجو :

لو كان بى أن أشْكُرَكَ لظن بالغت فى تحسينه، أو أَحْمَدَكَ لرأى لك فينا أَبْدَعت فى تَزْيينه ، لكان لقلمى مَطْمَع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ويجرِى فى الشكر الى الغاية كما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بعُرفك عندنا بل عَمَمْت به من حولنا وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لُغتنا . زَفَفْت الى أهل اللغة العربية، عذْرَاء من بنات الحكمة الغربية، سَحَرَتْ قومها ، ومَلَكَت فيهم يَوْمَها، ولا تزال تُنَبِّه منهم خامدا، وتَهُزّ فيهم جامدا، بل لا تنفك تُحْيِي من قلوبهم ما أماتته القَســوة ، وتُقَوِّم من نُفُوسهم ما أعوزت فيه الأُسْوَة[1] .

حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى الى التقاطها رجلا منا بجَرَّدَها من ثوبها الغريب وكساها حُلَّة من نَسْج الأديب، وجَلَّاها للناظر، وحلَّاها للطالب، بعد ما أصلح من خَلْقِها، وزان من مَعارِفها، حتى ظهرت مُحَبَّبة الى القلوب، شَيِّقَة الى مُؤَانسة البصائر، تَهَشّ للفهم، وتَبَشّ للطف الذوق وتسابق الفكر الى مواطن العلم، فلا يكاد يَلْحَظُها الوهم إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام .

(١) الأسوة : القدوة .

حاول قوم من قبلك أن يَبْلُغوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقَفَ العجز بأغْيامهم عند مُبْتَدإ الطريق، ووصل منهم فَرِيق الى ما يُحب من مَقْصِده، ولكنه لم يُعْنَ بأن يُعيد الى اللغة العربية ما فَقَدَتْ من أساليبها، ويرد اليها ما سَلَبه المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصِّياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه .

أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمُريد بعده، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حدّه . ولو كنت ممن يقول بالتَّناسخ[1] لذهبت الى أن روح ابن المُقَفَّع كانت من طَيِّبات الأرواح فظهرت بك اليوم فى صُورة أبدع ومعنى أنفع . ولعلك قد سَنَنْتَ بطريقتك فى التعريب سُنّة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان الى أبناء ما يُسْتَقْبَل منه، فتكون قد أحسنت الى الأبناء، كما أجْملت فى الصنع الى الآباء، وحكمتَ للغة العربية أن لا يدخلها بعد من العُجْمة سوى ما هو فى الأسماء: أسماء الأماكن والأشخاص لا أسماء المعانى والأجناس . ومثلى من يعرف قدر الإحسان اذا عَمّ ويُعْلِى مكان المعروف اذا شَمِل، ويَتَمَثَّل فى رأيه بقول الحكيم العربى[2] :

ولو أَنِّى حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا   لمـا أَحْبَبْتُ بالخلد انفرادا

فلا هَطَلَتْ علىَّ ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظِم[3] البلادا

فما أعجز قلمى عن الشكر لك، وما أَحَقَّك بأن ترضى من الوفاء باللَّفاء[4] !

فصـــــل فى التهانئ

كتب ابن الرومى الى عُبَيْد الله بن سليمان يهنئ بعيد :

أخَّرتْنى العِلّة عن الوزير — أعزه الله — فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى، ويَعْمُر ما أخْلته العوائق منى . وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد

(١) يشير الى ما يذهب اليه بعض أهل الزيغ من أن الأرواح تنتقل من جسم الى جسم أى تحل فى الثانى بفناء الأوّل فقد تكون الروح فى جسم فرس وبموته تحل فى جسم انسان . (٢) يريد المعرى . (٣) انتظمه : ضمه واشتمل عليه . (٤) اللفاء : الهين اليسير .

السالفة بركة على الوزير ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبّ ويُحَبّ له ، ويَقْبَل ما تَوَسَّل به الى مرضاته ويُضَاعِف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويُمَتِّعه بصُحْبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُرِيه فى مَسَرَّة نقصا ولا يقطع عنه مَزِيدا ويجعلنى من كل سوء فِداءه .

* * *

وكتب البديع يهنئ بمولود :

حقا لقد أنجز الاقبال وعْده ، ووافق الطالع سعده ، وإن الشأن لفيما بعده . وحبذا الأصل وفرعه ، وبُورِك الغَيْث وصوبه (١) ، وأَيْنَع الروض ونَوْره . وحبذا سماءٌ أطلعت فَرْقَدا ، وغَابَةٌ أَبْرَزَتْ أَسَدا ، وظَهْرٌ وافق سَنَدا ، وذِكْرٌ يَبْقَى أبدا ، ومَجْدٌ يُسَمَّى ولدا ، وشَرف لُحْمَةً وسَدَا .

أنجب أيامَ والداه به إذْ نَجَلاه فنِعْم ما نَجَلا (٢)

شِهَاب ذَكاء وبَدْر علاء .

* * *

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن (٣) يهنئ الصاحب ابن عبّاد بسِبْطه الشريف أبى الحسن عباد بن على الحسنى :

بُشْرَى فقد أنجز الإقبال ما وعَدَا وَكَوْكَبُ المَجْدِ فى أُفْق العُلَا صَعِدا

وقد تَفَرَّع فى رَوْض الوزَارَة عن دَوْح الرسالة غُصْن مُورِق رَشَدا

لله آيةُ شَمْسٍ للعُلا وَلَدَتْ نَجْما وغابة عِزّ أطلعت أَسَدا .

---

(١) الصوب : انصباب المطر . (٢) البيت للأعشى وأيام مضافة الى اذ مع الفصل القبيح بينهما . (٣) أديب من أدباء أصبهان فى القرن الرابع وله شعر رقيق ونثر رشيق .

وعنصرٌ من رسول الله وَاشَجَـــه ... كَرِيمُ عنصر إسْمَاعِيل فاتَّحــدا (١)
وبَضْعَة من أمير المؤمنين زَكَتْ ... أَصْلًا وفَرْعا وصَحَّتْ لُحْمَــةً وسَدَا
يا دَهْرِه حَــقَّ أن تُزْهَى بمولده ... فمثــله منذ كان الدهر ما وُلِدا
تَعَجَّبوا من هلال العيــد يَطْلُع فى ... شَعْبَان ، أمر عجيب قطُّ ما عُهِدا
فمن مُوَالٍ يُوَالى الحمــد مُبْتَهلا ... ومُخْلِص يَسْــتَدِيم الشكر مجتهدا
فــلا رعى الله نفسـا لا تُسَرُّ به ... ولا وقاها وغَشَّـاها رداء رَدَى
فَلْيَهْنِئِ الصاحبَ المولودُ وَلْتَرِدِ السُّـ ... ـعُود تَجْلُو عليــه الفَارِس النَّجُدا (٢)
وَازِنْتُ ما قالتَــه شــكرا لربك اذ ... جاء المبشِّرُ ، بَيْتًـا سَارَ واطَّرَدَا :
الحمــــد لله حمــــدا دائمـا أبدا ... اذ صار سِبْط رسول الله لى ولدا (٣)

* * *

وكتب أبو الفضل بن العَمِيد يهنِئُ عَضُد الدَّولة بن بويه بولدين (٤) :

أطال الله بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة وأدام عزه وتأييدَه ، وعُلُوَّه وتمْهِيدَه ، وبَسْطَته وتَوْطِيدَه ، وظَاهَر له من كل خير مَزِيده ، وهنأه ماٱحْتَظَاه به على قُرب

(١) واشجه : شابكه واتصــل به ، يقال وشجت الأغصان أو العروق اذا اشتبكت وقد أنكر أستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله على الشاعر هــذه الكلمة لأنه لم يعثر عليها وليست مما يصاغ قياسا لأن صوغ فعل المفاعلة موقوف على السماع إلا عند بعضهم . (٢) النجد كرجل : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره . (٣) كان الصاحب لما بشر بسبطه قال على البديهة : الحمد لله الخ ، فنسج الخازن على منواله . (٤) كان ابن العميد نادرة دهره ونسيج وحده أدبا وعلما ونثرا ونظما وكان يلقب بالجاحظ الثانى لسعة اطلاعه وافتنانه فى العلوم وفيه يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وقد كان وزيرا فى دولة بنى بويه ومدحه كثير من الشعراء وفيه يقول المتنبي :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها * شاهدت رسطا ليس والاسكندرا
ولقيت كل الفاضلين كانما * رد الاله نفوســهم والأعصرا

توفى ابن العميد سنة ٣٦٠ هـ .

الميلاد من تَوَافُر الأعداد وتَكَثُّر الأَمْدَاد وتَثَمُّـر الأَوْلاد [١] ، وأراه من النَّجابة فى البَنِين والأحْفَاد ماأراه من الكرم فى الآباء والأجْداد ، ولا أخلى عَيْنَه من قُرَّة ونَفْسه من مَسَرَّة ومُتَجَدِّد نعمة ومُسْتَأْنَف مكرمة ، وزاد فى عدده وفسح فى أمده حتى يبلغ غاية مَهَلِه ويستغرق نهاية أمَله ، وعرفه الله السعادة فيما بَشَّر به عَبْدَه من طلوع بَدْرين هما انْبعَثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحَفَّا بسريره ، وجعل وفْدهما متلائمين وورودهما تَوْأمين بشيرا بتَظَاهُر النّعم وتَوَافُر القِسَم ومُؤْذِنًا بترادف بَنِين يجمعهم مُتَخَرَّق الفَضَاء [٢] ويُشْرِق بنورهم أفق العلاء وينتهى بهم أمد النماء الى غاية تفوت الإحصاء .

* * *

وكتب أبو الفرج البَبَّغَاء [٣] يُهَنِّئُ بولاية :

سيدى — أيده الله — أرفع قدرا ، وأنبه ذكرا ، وأعظم نُبْلا ، وأشرَف فضلا ، من أن نهنئه بولاية وإن جَلَّ خَطَرُها [٤] ، وعَظُمَ قَدْرها ، لأن الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدله ، والرعية بمحمود فعله ، والأقاليم بآثار رياسته ، والولايات بِسِمات سياسته ، فعرَّفه الله يُمْن ما تولاه ، ورعاه فى سائر ما استرعاه ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يُعَانيه ، والتَّسْديد [٥] فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه .

---

(١) ثمر المال والولد : كثره . وتثمر : كثر ولم أعثر على استثمر بمعنى نمى . (٢) المتخرق : المكان تخرق فيه الرياح أى تتابع أى المكان الواسع . (٣) هو عبد الواحد بن نصر شاعر ناثر من أدباء الشام اتصل بخدمة سيف الدولة وتوفى سنة ٣٩٨ هـ . (٤) الخطر كقدر وزنا ومعنى : الشرف . (٥) سدده : وجهه الى السداد أى الصواب .

باب القصص والمحاورات

« العـــــدل أســاس الملك »

المـأمون والمرأة المُتَظَلِّمة

جلس المأمون يوما للظالم فكان آخرُ من تَقَدَّم اليه وقد هَمَّ بالقيام امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رَثَّة فوقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فنظر المأمون الى يحيي بن أكْثم (١) فقال لها يحيي : وعليك السلام يا أمَةَ الله؛ تكلّمي فى حاجتك . فقالت :

يا خير مُنْتَصِف يُهْدَى له الرشَـد ... ويا إماماً به قد أشْرق البـــلد

تشكو اليـك عَميـد القوم أرْمَلَةٌ ... عدا عليها فـلم يُتْرك لهـا سَـبَدُ (٢)

وابْتَزَّ مِنِّى ضِياعى بعـد مَنْعَتِهـا ... ظُلْمًـا وفُرِّق منِّى الأهـل والولد

فأطرق المـأمون حينا ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دونِ ما قلتِ زال الصبر والجَـلَد ... عنى وأُقْـرِح منى القلب والكبـد

هـذا أوَانُ صلاة العصر فانصرفى ... وأحْضِرى الخَصْم فى اليوم الذى أعد

والمجلس السبت إن يُقْضَ الجلوسُ لنا ... نُنْصِـفْكِ منه وإلا المجلس الأحد (٣)

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أوّل من تقدّم اليه تلك المرأة فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت الى العباس ابنه . فقال :

---

(١) يحيي بن أكثم قاضى قضاة الدولة العباسية لعهـد المأمون ومن سلالة أكثم بن صيفى توفى سـنة ٢٤٢ هـ . (٢) أصل السبد : القليل من الشعر . و يقال ماله سـبد ولا لبد أى لا قليل ولا كثير . (٣) قوله : وإلا المجلس . أسقط منه فاء الجواب للضرورة .

يا أحمد بن أبى خالد خُذْ بيده فأجْلِسه معها مجلسَ الخُصُوم فجعل كلامها يعلو كلام العباس فقال لها أحمد بن أبى خالد :

يا أَمَة الله إنَّك بين يدى أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاخفِضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فان الحق أنطقها وأخرســه . ثم قضى لها برد ضيعتها اليها وأمر بالكِتاب لها الى العامل ببلدها أن يُوَفِّر لها ضيعتها ويحسن معونتها وأمر لها بنفقة .

***

« الوفاء نــــور أبلج »

عمر بن الخطـــاب والهُرْمُزَان

لمـــا أتى بالهُرْمُزَان أسيرا الى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين هـــذا زعيم العجم وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعْرِض عليك الاســـلام نصحا لك فى عاجلك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين إنما أعتقِد ما أنا عليـــه ولا أرغب فى الاسلام . فدعا له عمر بالسيف فلما همّ بقتله . قال : يا أمير المؤمنين شَرْبة من ماء أفضل من قتلى على ظمأ . فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها قال : أأنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج . قال : صدقت لك التَّوَقُّف عنك والنَّظر فى أمرك . ارفعا عنه السيف فلما رفع عنه قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسولهُ وما جاء به حقٌّ من عنده . فقال عمر : أسلمت خير إســلام فما أخّرك ؟ قال : كرهت أن تظن أنى أسلمت جزعا من السيف . فقال عمر : إن لأهل فارسَ عقولا بها استَحقُّوا ما كانوا فيه من الملك ثم أمر به أن يُبَرّ ويكرم، وكان بعد يشاوره فى توجيه الجيوش لأهل فارس .

« طيب الأعراق يَستوجبُ كرم الأخلاقِ »
« وزكاة شَرَف النسب التَّحَلِّي بحلية الأدب »
إبراهيم بن المهدى وابن بختيشوع

قال العُتبي : تنازع ابراهيم بن المهدى وابن بختيشوعَ الطبيب بين يدى أحمد ابن أبي دُوَاد في مجلس الحكم في عَقَار بناحية السَّواد، فأربى(١) عليه ابراهيم وأغلَظ له. فأحفَظ(٢) ذلك ابن أبي دواد فقال :

يا ابراهيم اذا نازعت في مجلس الحكم أمراً فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت بيد، وليكن قَصْدُك أمَماً(٣) وريحك ساكنة، وكلامك معتدلا، ووَفِّ مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير والاستكانة والتوجه الى الواجب، فان ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في مَحْتِدك(٤) وعظيم خَطَرك؛ ولا تعجلن فرب عجلة تهب رَيثا(٥) . والله يَعصِمُك من خَطَل القول والعمل، ويُتِمّ نعمته عليك كما أتمّها على أبَوَيْك من قبل إن ربك حكيم عليم .

فقال ابراهيم : أصلحك الله، أمرت بسَدَاد، وحَضَضْت على رشاد، ولست عائدا لما يَثْلِم(٦) مروءتي عندك، ويُسْقِطُني من عينك، ويُخْرِجني من مقدار الواجب الى الاعتذار، فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مُقِرّ بذنبه معترف بجُرْمه، ولا يزال الغضب يَسْتَفِزّني(٧) ببَوادره، فيردُّنى مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك . وقد جعلت حقّي في هذا العقار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافيا بأرْش(٨) الجناية عليه، ولم يَتْلَف مال أفاد موعظة . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) أربى عليه : زاد . (٢) أحفظه : أغضبه . والحفيظه : الحمية والغضب . (٣) الأمم : البين من الأمر والوسط . (٤) المحتد : الأصل . (٥) الريث : الإبطاء والمقدار . (٦) ثلم الإناء : كسره من حرفه . (٧) استفزه : استخفه وأزعجه . (٨) الأرش : الدية وما يعطى تعويضا .

« سبيل الحـــلم التحـــلم »

الأَحْنَف بن قيس وقَيْس بن عاصم

قيل للأحنف بن قيس : مِمَّنْ تعلمت الحلم؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقَرى، رأيته قاعدا بِفِناء داره، مُحتَبِيًا(١) بحمائل سيفه، يحدث قومه حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول؛ فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك . فوالله ما حَلَّ حُبوته ولا قطع كلامه، ثم التفت الى ابن أخيه وقال له : يا ابن أخى أسأت الى رَحِمك، ورميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك . ثم قال لابن له آخر : قم يابنى فحُلّ كِتَاف ابن عمك ووَارِ أخاك، وسق الى أمه مائة ناقة دِيَةَ ابنها فانها غريبة . ثم أنشأ يقول :

إنى امرؤ لا يَطَّبِى حسبى دَنَس يُهَجِّنه ولا أَفْن(٢)

من مِنقر فى بيت مَكْرُمة والغُصْنُ يَنْبُتُ حوله الغُصْن

خطباءُ حين يقول قائلهم بيض الوجوه مَصَاقع لُسْن(٣)

لا يَفْطَنُون لعيب جارهم وهُمُ لحفظ جِواره فُطْن(٤)

*
* *

« من سَلفَت خدمته وجَبَت حُرْمته »

مَعْن بن زائدة وجاره بين يدى المهـــــدى

قال سعيد بن مسلم : نذر المهدى دم رجل من أهل الكوفة كان يَسْعَى فى فساد سلطانه، وجعل لمن دَلَّ عليه أو جاء به مائة ألف درهم . فأقام الرجل حينا متواريا ثم إنه ظهر بمدينة السَّلام(٥)، فكان ظاهرا كغائب خائفا مترقبا . فبينا هو يمشى فى بعض

(١) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها، والاسم من ذلك الحبوة . (٢) اطباه : دعاه واستهواه . والافن : ضعف الراى، وفعله كفرح . (٣) رجل لسن وألسن : فصيح ويجمع ألسن على لسن كاحمر وحمر . (٤) فطن : جمع فطن، كجون : جمع جون، وهـذا جمع نادر .
(٥) مدينـة السلام : بغداد أو قسم منها .

نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفـه فأهوى الى مجامع ثوبه (١)، وقال : : هذا بُغْيَة أمير المؤمنين . فأمكن الرجلُ من قِياده ونظر الى الموت أمامـه . فبينا هو على تلك الحال اذ سمع وَقْع حوافر الخيل من وراء ظهره، فالتفت فاذا معن بن زائدة . فقال : ياأبا الوليد أجرنى أجارك الله . فوقف وقال للرجل الذى تَعَلّق به : ما شأنُك؟ قال : بُغْية أمير المؤمنين الذى نَذَر دمه، وأعطى لمن دَلّ عليه مائة ألف . فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحْمِل أخانا . فصاح الرجل يا معشر الناس يحال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين ! قال له معن : اذهب فأخبره أنه عندى . فانطلق الى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب فدخل الى المهـدى فأخبره فأمر بحبس الرجل ووَجّه الى معن من يَحْضُر به، فأتته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقُرِّبت اليه دَابّته، فدعا أهل بيته ومواليه وقال : لا يُخْلَصَنَّ الى هذا الرجل وفيكم عين تَطْرِف (٢)، ثم رَكِب ودخل حتى سلم على المهدى فلم يَرُدّ عليه وقال يامعن : أتُجِير علىّ؟ قال نعم : ياأمير المؤمنين. قال : ونعم أيضا ، واشتد غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين قتلت فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خَمْسَةَ عشر ألفا ، ولى أيام كثيرة قد تقدّم فيها بلائى وحسن غَنَائِى ، فما رأيتمونى أهلا أن تَهَبُوا لى رجلا واحدا استجار بى ؟ فأَطْرَق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سُرِّىَ عنه (٣) فقال : قد أجرنا من أجَرْت . قال معن : فان رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه «فعل» قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف . قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة . قال : قد أمرنا له بمائة ألف . قال : فتَعَجّلْها يا أمير المؤمنين

---

(١) مجامع الثوب : ما أحاط بالجيب ويقال لها التلابيب . (٢) طرفت العين : تحرّكت .

(٣) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور .

بأفضل الدعاء ثم انصرف ولحقه المـال ، فدعا الرجل وقال له : خُذْ صلتك والحق باهلك و إياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

*
* *

«ليس العطاء مع الفُضُول سَماحةً حتى تَجُـودَ وما لديك قليـلُ»

معن بن زائدة والأَسْـــود

روى مَرْوَان بن أبي حفصة عن معن بن زائدة أنه قال : لـمـا جَدَّ المَنْصُور في طلبي وجعل لمن يحملني اليه مالا اضْطُرِرْت لشـدّة الطَّلب أن تَعَرّضت للشمس حتى لَوَّحَتْ(١) وجهي وخَفَّفْت عَارِضَيّ(٢)،ولَبِست جُبّة صوف ورَكِبت جملا وخرجت متوجها الى البادية لأقيم بها . فلما خرجت من باب حَرْب وهو أحد أبواب بغـداد تبعني أسودُ متقلدٌ سيفا ، حتى اذا غبت عن الحَرَس قبض على خِطَام الجمل فأناخه وقبض على يدى . فقلت له : مَابِك ؟ فقال : أنت طَلِبَة(٣) أمير المؤمنين . فقلت : ومن أنا حتى أُطْلَب ؟ فقال : أنت معن بن زائدة . فقلت له : ياهذا اتّق الله عز وجل وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا فانى والله لأَعرف بك منك . فلما رأيت منه الجدّ قلت له : هذا عِقْد جوهر قد حملته معي باضعاف ماجعله المنصور لمن يجيئه بي فخذه ولا تكن سببا لسَفْك دمى . قال : هَاته فأخرجته اليه فنظر فيه ساعة وقال : صدقت في قيمته ،ولست قابله منك حتى أسألك عن شيء فان صَدَقْتَنى اطلقتك . فقلت : قل . قال : إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرني هل وهبت مالَكَ كلّه قَطُّ ؟ قلت : لا . قال : فنصفه؟ قلت : لا . قال : فثلثه؟ قلت : لا ، حتى بلغ العُشْر فاستَحْيَيْت وقلت : أظن أني قد فعلت هذا . قال : ماذاك بعظيم . أنا والله رَاجل(٤) ورزقى من

(١) لوحه العطش والسفر : غيره ، ولوحت وجهه الشمس : غيرت لونه . (٢) العارضان : جانبا الوجه وما يكون عليهما من اللحية . (٣) الطلبة : الحاجة وما يطلب . (٤) الراجل : غير الراكب

أبي جعفر المنصور كلَّ شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانيرَ وقد وهبته لك و وهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتَعْلم أن فى هذه الدنيا من هو أجود منك فلا تُعْجِبك نفسك ولْتَحْقِر بعـد هذا كل جود فعلته ولا تَتَوَقَّف عن مَكْرُمة .
فقلت : ياهذا قد والله فَضَحْتنى ولَسَفْك دمى عَلَىَّ أهْوَن مما فعلت، فخذ مادفعته لك فانى غَنِىٌّ عنه؛ فضحك وقال: أردت أن تُكَذِّبنى فى مقالى هذا والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمنا أبدا ! ومضى لسبيله فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت و بذلت لمن يجىء به ماشاء فما عرفت له خبرا وكأنَّ الأرض ابتلعته .

***

معـاوية والأعرابيـــة

يروى أن معاوية خرج مُتَنَزِّها فمر بحِوَاءٍ (١) ضخم فقصد قَصْد بيت منه، فاذا بفِنَائه امرأة بَرْزَة (٢)، فقال لها : هل من غَدَاء ؟ قالت : نعم حاضر . قال : وما غَدَاؤُك ؟ قالت : خُبْزٌ خَمِير، وماء نَمِير، وحَيْسٌ (٣) فطير، ولبن هَجِير (٤)؛ فثَنَى وَرِكه ونزل. فلما تغدى قال : هل لك من حاجة؟ فذكرت حاجة أهل الحِواءَ. قال : هاتى حاجتك فى خاصة نفسك . قالت : ياأمير المؤمنين إنى أكره أن تنزل واديا فيَرِفَّ (٥) أوله و يَقِفَّ (٦) آخره.

***

« قيـــمة الرجال فى حسن الاحتيـال »

الأحنف بين يدى معاوية

روى المدائنى أنـ الأحنف بن قيس وفد على معاوية مع أهل العراق؛ فخرج الآذن فقال : إن أمير المؤمنين يَعْزِم عليكم أن لا يتكلم أحد إلا لنفسه . فلما وصلوا

(١) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية . (٢) البرزة من النساء : الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفة . (٣) الحيس : تمر يخلط بسمن ولبن ممخوض . (٤) الهجير : الخاثر من اللبن . (٥) رف النبات : اهتز . (٦) قف النبات : يبس .

اليه قال الأحنف : لولا عَزْمة أمير المؤمنين لأَخْبَرْته أن دَافّة دَفّت[١] ونازلة نزلت ونَابِتَــة نبتت ، كلهم بهم حاجة الى معروف أمــير المؤمنين و بره . فقال معاوية : حَسْبُك ياأبا بَحْر فقد كَفيْتَ الشاهد والغائب .

* * *

« خير النــاس أنفعهم للنــاس »

الأحنف بين يدى عمـــر بن الخطاب

قال المدائنى : قدم الأحنف بن قيس التّميمى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أهل البصرة وأهل الكوفة . فتكلموا عنده فى أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم وتكلم الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وان اخواننا من أهل الكوفة والشام ومِصر نزلوا منازل الأمم الخالية والملوك الجبابرة ومنازل كسرى وقيصر و بنى الأصفر[٢] ؛ فهم من المياه العذبة والجنان المختلفة فى مثــل حُوَلاء[٣] السَّلَى وحَدَقة[٤] البعير تأتيهم ثمــارهم غَضّة لم تَخْضَر[٥] . وإنا نزلنا أرضًا طَرَفٌ فى فَلَاة وطرف فى مِلْح أُجَاج ، جانب منها مَنَابِت القصب وجانب سَبَخَة نَشّاشة[٦] لا يجفُّ ثراها ولا يَنْبُت مرعاها . يخــرج الرجل الضعيف منا يستعذب المــاء من فَرْسَخَين وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرَنِّق[٧] لولدها تَرْنيق العَنْز تخاف عليه العدوّ والسبع . فإلّا تَرفع خَسيسَتَنا وتَنْعَش[٨] رَكيسَتَنا وتَجْبُر فاقتنا وتَزِدْ فى عيالنا عيالا وفى رجالنا رجالا

(١) يقال : دفت دافة أى أتت فئة مهاجرة . (٢) بنو الأصفر عند العرب : هم الروم .
(٣) السّــلى : غلاف رقيق يكون فيــه المولود . والحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد ، وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة المــاء والخضرة . (٤) قال فى اللسان : وفى حديث الأحنف نزلوا فى مثل حدقة البعير أى نزلوا فى خصب وشبهه بحدقة البعير لانها ريا من المــاء . (٥) خصر : برد . (٦) أرض سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . (٧) رنّق المــاء : صفاه .
(٨) نعشه : رفعه كانعشه . والركيسة : الضعيفة .

وتُصَغِّر درهمنا وتكبر قَفِيزَنا (١) وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به المـاء هلكنا . فقال عمر : هذا والله السيّد هذا والله السيّد ! ثم كتب الى أبى موسى الأشعرىّ أن يحتفر لهم نهرا .

* * *

« من أعظم المآثر إنهاض العاثر »

أُسَـيْد بن عَنْقَـاء وعُمَيْلـــة الفزارى

كان أُسَيْد بن عَنْقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه وأشدهم عارضة ولسانا وطال عمره ونَكَبَه دَهْره واختلت حاله ، فخرج عشية يَتَبَقَّل (٢) لأهله فمرّ به عُمَيلة الفزارى فسلم عليه وقال : ياعمّ ما أصارك الى ما أرى ؟ قال : بخل مثلك بمـاله وصَوْن وجهى عن أموال النـاس . فقال : لئنْ بقيتُ الى غَد لأُغيّرنّ ما أرى من حالك . فرجع ابن عنقاء الى أهله فأخبرها بما قال له عميلة . فقالت له : لقد غَرّك كلام غُلَام جُنْح ظلام (٣) . فكأنما ألقمت فاه حجرا ، فبات مُتَمَلْمِلا بين رجاء ويأس . فلما كان السَّحَر سمع رُغَاء الابل وثُغَاء الشاء وصهيل الخيل ولَجَب (٤) الأموال . فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا عُمَيْلة ساق اليك ماله . فخرج ابن عنقاء له فَقَسَم عميـلة ماله شطرين وساهمه (٥) عليه . فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآنى على مابى عميـلة فاشـتكى	الى ماله حالى أسَرَّ كما جَهَرْ
دعانى فآسانى ولو ضَنّ لم يَلُمْ	على حين لا بدو يُرَجّى ولا حَضَرْ
فقلت له خيرا وأثْنَيْت فعـله	وأوفاك ما أبليت من ذم أو شكر
ولمـا رأى المجد استُعِيرَتْ ثيابه	تَرَدَّى رداء سابغ الذَّيْل واتَّزَر

(١) القفيز : مكيال . (٢) تبقل : خرج يطلب البقل . (٣) جنح الليل أو الظلام : الطائفة منه . (٤) اللجب : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمـه : قارعه أى ضرب القرعة .

غـلام رماه الله بالخـير مقبلا له سيمياء لا تَشُــقّ على البصر[١]
اذا قيلت العَـوْرَاء أَغْضى كأنه ذليـل بلا ذُلٍّ ولو شَاء لا نتصر[٢]

***

«واذا رأيت من الهلال نموّه أيقنت أن سيصيرُ بدرا كاملا»[٣]

الفضل وجعفر ابنـا يحيي البرمكى

قال محمّد[٤] بن عبد الرحمن الهاشمى كانت أم جعفر بن يحيي تزور أمى وكانت لبيبة من النساء حازمة فصيحة بَرْزَة يعجبنى أن أجدها عند أمى فأستكثر من حديثها، فقلت لهـا يوما : يا أم جعفر إن بعض الناس يفضل جعفرا على الفضل وبعضهم يفضل الفضل على جعفر فأخبريني . فقالت : مازلنا نعرف الفضل للفضل . فقلت : ان أكثر الناس على خلاف هـذا . فقالت : هأنا[٥] أحدثك واقض أنت . وذلك الذى أردت منها . فقالت : كانا يوما يلعبان فى دارى فدخل أبوهما فدعا بالغِـذاء وأحضرهما فطَعِمَا معه ثم آنَسهما بحديثه ثم قال لهما : أتلعبان بالشِّطْرَنْج؟ فقال جعفر وكان أجرأهما : نعم ! قال : فهل لاعبت أخاك بها ؟ قال جعفــر : لا . قال : فالعبا بها بين يدى لأَرَى لمن الغَلَب . فقــال جعفر : نعم ! وكان الفضل أبصر منه بها . فجيء بالشِّطْرَنْج فَصُفَّت بينهما وأقبل عليها جعفر وأعرض عنها الفضل . فقال له أبوه : مالك لا تلاعب أخاك؟ فقال : لا أحب ذلك . فقال جعفر : إنه يرى أنه أعلم بها مني فيأْنَف من مُلَاعبتى وأنا ألاعبه مُخَاطرة[٦] . فقال الفضل : لا أفعل . فقال

(١) اتزر من الإزار قلبت الهمزة تاء وادغمت فى تاء الافتعال . (٢) السيا والسياء والسيميا والسيمياء : العلامة . يقول : يفرح به من يراه للطف محياه . (٣) العوراء : الكلمة القبيحة، وقريب من هذا البيت قول الآخر :

يصم عن الفحشاء حتى كأنه اذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

(٤) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة . (٥) الفصيح أن يقال هأناذه .
(٦) المخاطرة : المراهنة .

أبوه : لاعبه وأنا معك . فقال جعفر : رَضِيتُ وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه . ثم قالت لى : قد حَدَّثْتك فاقض . فقلت : قد قضيت بالفضل للفضل على أخيه . فقالت : لو علمت أنك لا تحسن القضاء لمـا حَكَّمْتك . أفلا ترى أن جعفرا قد سَقَط أربع سَقَطات تَنَزَّه الفضل عنهن . فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشِّطْرَنْج وكان أبوه صاحب جِدّ . وسقط فى التزام ملاعبة أخيـه واظهار الشَّهوة لغَلَبه والتَّعَرُّض لغضبه . وسقط فى طلب المقامرة واظهار الحرص على مال أخيه . والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه لاعبه وأنا معك، فقال أخوه لا، وقال هو نعم، فناصب صَفًّا (١) فيـه أبوه وأخوه . فقلت : أحسنتِ والله وأنك لأقضى من الشعبي . ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خَفِي مِثْلُ هـذا على جعفر وقد فَطِن له أخوه؟ فقالت : لولا العَزْمة لمـا أخبرتك، إن أباهما لمـا خرج قلت للفضل خاليةً به : ما مَنَعَك من ادخال السرور على أبيك بملاعبة أخيـك؟ فقال : أمران أحدهما لو أنى لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثانى قول أبى لاعبه وأنا مَعَك، فما يَسُرُّنى أن يكون أبى معى على أخى . ثم خلوتُ بجَعْفر فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشِّطْرَنْج فيَصْمُت أخوك وتعترف وأبوك صاحب جد . فقال : إنى سمعت أبى يقول نِعم لَهْو البال المَكْدود (٢) . وقد علم ما نلقاه من كد التعـلم والتأدب ولم آمن أن يكون بلغه انا نلعب بها ولا أن يُبَادر فيُنْكر فبادرت بالاقرار اشفاقا على نفسى وعليه، وقلت ان كان توبيخ فديته من المواجهـة به . فقلت له : يا بُنَيَّ فلِمَ تقول ألاعبه مخاطرة ؟ كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله . فقال : كلّا ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين فعَرَضْتُها عليه فأبى قبولها وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يَغْلِبنى فتطيب نفسه بأخذها . فقلت لها : يا أمّاه ما كانت هذه الدواة ؟

---

(١) ناصب الصف : وقف ازاءه وعاداه . (٢) كده : أجهده وأتعبه .

فقالت : إنّ جعفرا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر فرآه ينظر اليها فوهبها له . فقلت إيه . فقالت : ثم قلت لجعفر هبك اعتذرت بما سمعت فما عذرك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال لاعبه وأنا معك ؟ فقلت أنت نعم وقال هو لا . فقال : عرفت أنه غالبي ولو فتر لعبه لتَغَالَبْت له مع ما له من الشرف والسُّرور بتحيز أبيه اليه . قال محمد بن عبد الرحمن فقلت : بَخٍ بَخٍ[1] هذه والله السيادة . ثم قلت لها : يا أماه أكان منهما من بلغ الحُلُم؟ فقالت : يابنى أين يُذْهَبُ بك؟ أخبرك عن صبيين يلعبان فتقول « أكان منهما من بَلغ الحُلُم» لقد كنا نَنْهى الصَّبيّ اذا بلغ العشر وحضر من يُسْتَحَى منه أن يَبْتَسِم .

* * *

براعة الرشـــيد فى الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات وابْسُط له من البركات حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبِيًا على أَمْسه مُقَصِّراً عن غده .

فقال له الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأَرْصَنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه إذا رام أن يقول لم يُعْجِزْه القول .

فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدا تقدمنى الى هذا المعنى . قال : بل أعشى هَمْدَان حيث يقول :

رأيتك أمس خـــير بنى لُؤَىّ وأنت اليــوم خير منك أمس

وأنت غدا تزيد الخـــير ضعفًا كذاك تزيد سَادَةُ عبد شمس

(١) يقال : بخ بخ وبخّ بخّ اعجابا بالشىء واظهارا للسرور به .

الواثق وابن أبى دُوَاد

قال أبو العيناء : دخل ابن أبى دواد على الواثق فقال له الواثق : ما زال اليوم قوم فى ثَلْبك (١) ونقصك . فقال : يا أمير المؤمنين لكل امرئ منهـم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم . والله ولى جزائه ، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلّ يا أمير المؤمنين من كُنْتَ ناصره ولا ضاع من كنت حافظه . فاذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت يا أبا عبد الله :

وسعى الى بعيب عَزَّة معشر جعل الاله خُدُودهُن نِعَالهـا

* * *

« المحبة مفتاح كل خير وطريقها التفضل »

المنصور والربيع بن يونُس (٢)

قال سَعيد بن مُسْلِم بن قُتيْبة : دعا المنصور بالربيع فقال : سَلْنِى ما تريد ، فقد سَكَتّ حتى نَطَقْتَ (٣) ، وخَفَّفْت حتى ثَقَّلت ، وأقللت حتى أكثرت . فقال : والله يا أمير المؤمنين : ما أرْهَب بُخْلك ، ولا استقصر عمـرك ، ولا أستصغر فضلك ، ولا أغتنم مالك ، وان يومى بفَضْلك على أحسن من أمسى وغدك فى تأميلى أحسن من يومى . ولو جاز أن يَشْكُرَك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لمـا سبقنى لذلك أحد .

قال : صدقت ، علمى بهذا منك أحلك هذا المحل فسلنى ما شئت .

قال : أسألك أن تُقرِّب عبدك الفضل وتُؤْثِره وتُحبه .

قال : يا ربيع إن الحُب ليس بمال يوهَب ولا رتبة تبذل ، وانما تؤكده الأسباب .

---

(١) الثلب : القدح والطعن . (٢) الربيع بن يونس هو حاجب المنصور توفى سنة ١٧٠ هـ

(٣) يقول : إنك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك فقام السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعـــده .

قال : فاجعل لى طريقا اليه بالتَّفَضُّل عليه .

قال : صدقت وقد وصلته بألف ألف درهم ولم أصل بهـا أحدا غير عُمُومتى لتعلم ماله عندى فيكون منه ما يَسْتَدْعِى به مَحَبَّتى . وكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟

قال : لأنها مفتاح كل خير ومِغْلاق كُل شر، تَسْتَتِر بها عندك عيُوبه، وتصير حسناتٍ ذُنُوبُه .

قال : صدقت واتَيْتَ بما أردت .

* * *

« الجاهل ان مزح اسخط ، وان اعتذر أفرط »

الأعرابى السائل

وقف أعرابى يسأل فعَبِث به فتى وقال : ممن أنت ؟

فقال : الأعرابى من بنى عامر بن صَعْصَعَة .

قال : من أيهـــم ؟

قال : ان كنت أردت عاطفة القرابة فَلْيَكْفِك هذا المقدار من المعرفة ، فليس مقامى بمقام مجادلة ولا مفاخرة ، وأنا أقول فان لم أكن من هاماتهم (١) فلست من أعجازهم .

فقال الفتى : ما رَوَيْتَ عن فَضِيلَتِك إلا النقص فى حَسَبِك .

فامْتَعض (٢) الأعرابى لذلك فجعــل الفتى يعتذر ويَخْلِط الهَزْل والدُّعابة (٣) باعتذاره وأطال الكلام . فقال له الأعرابى : يا هذا انك منذ اليوم أدبْتَنى بمزحك وقطعتنى عن مَسْأَلتى بكلامك واعتذارك ، وانك لتَكْشِف من جهلك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك . وَيْحَك ! ان الجاهل ان مَزَح أسْخط ، وان اعتذر أفرط ، وان حَدَّث

(١) الهامات : الرءوس . (٢) امتعض : تألم . (٣) الدعابة : اللعب والمزح .

أسقط(١)، وان قدر تسلط، وان عزم على أمر تورط(٢)، وان جلس مجلس الوقار تبسط(٣). أعوذ منك ومن حال اضطرتني الى احتمال مثلك .

* * *

رُبّ كلام أقطعُ من حُسام

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزم معاوية — رضى الله عنه — على البيعة ليزيد كتب الى زياد أن يوجه اليه بوفد أهل العراق فبعث اليه بوفد البصرة والكوفة فتكلمت الخطباء فى يزيد، والأحنف ابن قيس ساكت، فلما فرغوا قال : قل ياأبا بحر فان العيون اليك أشرع(٤) منها إلى غيرك، فقام الأحنف : فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ياأمير المؤمنين إنك أعلمنا بيزيد فى ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره، فان كنت تعلمه لله رضا فلا تشاور فيه أحدا ولا تُقِم له الخطباء والشعراء، وإن كنت تعلم بُعْدَه من الله فلا تُزوِّده من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة، فأنك تصير الى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . فكأنّه أفرغ على معاوية ذَنوب(٥) ماء بارد.

فقال له : اقعد ياأبا بحر فإن خِيرَة الله تجرى وقضاءه يمضى وأحكامة تُنْفَذ لا مُعقِّب(٦) لحكمه ولا راد لقضائه . وإن يزيد فتى بَلَوْناه ولم نجد فى قريش فتى هو أجدر بأن يُجْتمع عليه منه .

فقال : ياأمير المؤمنين أنت تَحْكى عن شاهد ونحن نتكلم على غائب واذا أراد الله شيئا كان .

---

(١) أسقط : أخطأ . (٢) تورط فى الأمر : وقع وارتبك . (٣) تبسط : أكثر من القول وجانب الاحتشام . (٤) أشرع : ارفع وأكثر نظرا . (٥) الذنوب : الدلو الملاى، جمعه أذنبة وذنائب . (٦) أى لاراد لقضائه .

« خير صفات الرسول ان يكون ذا مقول ومَعْقُول »

الحَجَّاج ورسول المهلب

يروى أن المهلّب[١] لما فرغ من أمر عبد ربه الحَرُورِى[٢] دعا بِشْر بن[٣] مالك فانفـذه بالبشارة الى الحجاج . فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك ؟ قال : بشر ابن مالك . فقال الحجاج : بشـارة ومُلْك . كيف خَلَّفْت المهلب ؟ قال : خَلَّفْته وقد أمِنَ ما خاف وأَدْرك ما طلب . قال : كيف كانت حالكم مع عدوّكم ؟ قال : كانت البُدَاءة لهم والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبه للمتقين ؛ فما حال الجند ؟ قال : وسعهم الحق وأغناهم النفل[٤] وانهم لَمَعَ رجل يَسُوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم قتال الصُّعْلوك ؛ فلهم منه بِرّ الوالد وله منهم طاعة الولد . قال : فما حال ولد المهلب؟ قال : رُعَاة البَيَات[٥] حتى يأمنوه وحُمَاة السَّرْح[٦] حتى يَرُدُّوه . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : ذلك الى أبيهم . قال : وأنت أيضا فانى أرى لك لسانا وعبارة . قال : هم كالحَلْقَة المُفْرَغة[٧] لا يدرى أين طرفاها . قال : وَيْحك ! أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟ قال : لا يَعْلَم الغَيْب إلا الله . فقال الحجاج لجلسائه : هـذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

---

(١) هو المهلب بن أبى صفرة الأزدى : كان شجاعا مهيبا وقائدا من أكبر قوّاد الجيوش فى الدولة الأموية وهو الذى شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لانه حماها من الخوارج توفى سنة ٨٣ هـ . (٢) الحرورى نسبة الى حروراء على غير القياس وهى بلدة بقرب الكوفة . والحرورية : فرقة من الخوارج كالازارقة . (٣) كذا فى زهر الآداب وفى تاريخ ابن خلكان أن اسم الرسول مالك بن بشير والخطب سهل . (٤) النفل : الغنيمة جمعه أنفال . (٥) يقول : انهم يخشون أن يبيتهم العدو أى يهجم عليهم ليلا فلاينامون إلا اذا أمنوا ذلك . (٦) السرح : الماشية فى المرعى . (٧) الحلقة المفرغة : المصبوبة قطعة واحدة ، وهذه الجملة مثل لامرأة عربية .

حديث مُعاوية وليلى[(١)] الأخيلية

قال بعض الرواة : بينا معاوية يسير اذ رأى راكبا فقال لبعض شُرَطه ائتنى به وإياك أن تَرُوعه . فأتاه فقال : أَجب أمير المؤمنين . فقال : إياه أردت . فلما دنا الراكب حَدَر لِثامه فاذا ليلى الأخيلية فأنشأت تقول :

مُعَاوِىَ لم أكَد آتيــك تَهْوِى ... برحلى نحو ساحتك الرِّكاب
تجوب الأرض نحوك ما تَأَنَّى ... اذا ما الأَكْم قنَّعهـا السَّراب[(٢)]
وكنت المُرْتَجَى وبك استعاذت ... لِتَنْعَشَها اذا بَخِـل السـحاب

فقال : ما حاجتك ؟ قالت : ليس مثـلى يطلب الى مثلك حاجة فَتَخَيَّر؛ أنت أعلى عَيْنًا . فأعطاها خمسين من الإبل . ثم قال : أخبرينى عن مُضَر . قالت : فاخر بمضر وحَارِبْ بقيس وكَاثِر بتميم ونَاظِرْ بأسد[(٣)] .

فقال : ويحك ياليلى ! أكما يقول النـاس كان تَوْبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقاً . الناس شَجَرة بَغْى يَحْسُدون النِّعم حيث كانت وعلى من كانت ؛ كان — يا أمير المؤمنين — سَبْطَ البَنَـان ، حَديد اللسان ، شَجَى الأَقْران ، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر . وكان كما قلت ولم أبعد عن الحق فيه :

بعيد المَدَى لا يَبْلُغُ القَرْم غَوْرَه ... أَلدُّ مِلَدٌّ يغلب الحق باطـله[(٤)]

فقال معاوية : ويحك ياليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهرا فاجرا . فقالت من ساعتها مرتجلة :

---

(١) ليلى الأخيلية أشعر امرأة عربية بعد الخنساء . (٢) الأكم : واحده أكمة ، وسكنت الكاف للوزن . تقول : إن ركابها تجول فى الأرض قاصدة معاوية ولا تتأنى عند اشتداد الحر إذ تتغطى الآكام بالسراب . (٣) مضر : أصل لقيس وتميم وأسد . تقول : إن مضر ذات مجد عظيم وقيس أهل البسالة والأقدام وتميم ذوو الكثرة والعدد وأسد أهل الحجة واللدد . (٤) القرم السيد . والألد : الشديد الخصومة ، والملد مبالغة فى الألد . تقول : لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق .

معـاذ النُّهى قد كان والله توبة جوادا على العِـلّات جَمًّا نوافله (١)

أغر خَفَاجِيًّـا يرى البُخْل سُـبَّة تُحَالِفُ كفاه النَّـدَى وأنامله

عفيفا بعيـــد الهَمّ صُـلْبا قَنَـاتُه جميـــلا محيـاه قليـــلا غَوَائله (٢)

وكان اذا ما الضيف أرغَى بعيره لديه أتاه نَيْـــلُه وفواضـــله

وقد علم الجذْبُ الذى كان ساريا على الضيف والجيران أنك قاتله

وأنك رَحْب الباع يا تَوْبَ بالقرى اذا ما لئيم القوم ضاقت مَنَـازله

يبيت قرير العين من كان جارَه ويُضْحِى بِخَـيرٍ ضيفه ومُنَـازله

فقال لها معاوية : ويحك يا ليـلى ! لقـد جُزْتِ بتوبة قدره . فقالت : يا أمير المؤمنين والله لو رأَيْته وخَبَرْتَه لَعَلِمْت أنى مقصرة فى نعته لا أبْلُغ كُنْه ما هو له. أهل . فقال لها معاوية : فى أى سن كان توبة ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أتتـــه المنـايا حين تَمَّ تَمَـامه وأقْصر عنـــه كل قِرْن يُنَـاضله

وصار كلَيْثِ الغاب يحمى عَرِينه فترضى به أَشْـبَاله وحلائـــله

عطوف حليم حين يطلب حلمه وسُم ذُعاف لا تُصَاب مقـاتله

فأمر لها بجائزة وقال : أى ما قلتِ فيه أشعر ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ما قلت شيئا إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر . ولقد أجدت حيث أقول :

جزى الله خَيْرًا والجـــزاء بِكَفِّه فَتًى من عَقِيل ساد غَيْرَ مُكَلّف

فتى كانت الدنيا تَهُـون بأَسرها عليـه فـلم يَنْفَكَّ جم التَّصَرُّف

ينـال عَلِيَّـات الأمور بِهَـوْنَةٍ اذا هى أعيت كل خِرْقٍ مُسَوِّف (٣)

(١) على العلات : أى على كل حال . والنوافل : العطايا . (٢) الغوائل : الدواهى، وفلان قليل الغوائل : أى ليس فيه ما يعيبه العشير . (٣) الهونة : التؤدة . والخرق : الفتى الحسن الكريم السجايا . والمسوف : من يصنع ما شاء لا يرده حد .

« رُبَّ ذاتِ خَلخال ، أرشدت الى أشرف الأعمال »

الحارث بن عوف المرّى[1] ومصاهرته أوس بن حارثة الطائى[2]

يروى أن الحارث بن عوف المُرّى قال يوما لخارجة بن سِنان المرى : أترانى أخطب الى أحد فيردّنى ؟ قال : نعم . قال : ومن ذاك ؟ قال : أوس بن حارثة ابن لأُم الطائى . فقال الحارث لغلامه : ارحل بنا . ففعل فركبا حتى اتيا أوسا ، فلما رأى الحارث بن عوف قال : مَرْحبـا بك يا حارث . قال : وبك . قال : ما جاء بك؟ قال : جئتك خاطبا . قال : لست هناك[3] . فانصرف ولم يكلمه ودخل أوس على امرأته مُغْضَـبا — وكانت من بنى عبس[4] — فقالت : مَنْ رجل وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سـيد العرب الحـارث بن عوف المُرّى . قالت : فما لك لاتستنزله ؟ قال : انه اسْتَحْمَق[5] . قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطبا . قالت : أفتريد أن تزوّج بناتك؟ قال : نعم . قالت : فاذا لم تزوّج سيد العرب فمَن؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فتردّه . قال : وكيف وقد فَرَط منى ما فرط اليه؟ قالت : تقول له : إنك لقيتنى مقتضِبا[6] بأمر لم يتقدّم منى فيه قول فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ماسمعت ، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت . فانه سيفعل . فركب فى أثرهما .

---

(١) هو أحد عظماء ذبيان . ومرة : بطن من ذبيان . والحارث أحد السيدين اللذين سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء التى دامت نحو أربعين سـنة . وقد احتملا فى مالهما خاصـة غرامة تلك الحرب .

(٢) هو سيد طيئ فى زمانه وفيه يقول الشاعر :

الى أوس بن حارثة بن لأم ... ليقضى حاجتى فيمن قضاها

فما وطئ الحصا مثل ابن سعدى ... ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٣) أى لست كفئنا . (٤) عبس وذبيان ابنا عم . (٥) استحمق : فعل فعل الحمق .

(٦) الاقتضاب : المفاجأة .

قال خارجة بن سنان : فوالله انى لأســير إذ حانت منى التفاتة فرأيته فأقبلتُ على الحــارث وما يُكَلِّمنى غمّا ، فقلت له : هــذا أوس بن حارثة فى أثرنا . قال : وما نصنع به ؟ امض . فلمــا رآنا لانقف عليه صاح : ياحارث اربعْ(١) على ساعة . فوقفنا له فكلمنا بذلك الكلام فرجع مسرورا .

فبلغنى أن أوْسا لمــا دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة ـــ لأكبر بناته ـــ فأتته فقال : يا بنيّة هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، قد جاءنى طالبا خاطبا وقد أردت أن أزوّجك منه . فمــا تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى رَدَّة(٢) ، وفى خلق بعض العُهْدة(٣) ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقَنى . فيكون علىّ فى ذلك ما فيــه . قال : قومى ـــ بارك الله عليك ـــ ، ادعى لى فلانة ـــ لابنته الوسطى ـــ فدعتها ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : انى خرقاء(٤) وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقَنى فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعى حق ولا جارك فى بلدك فيستحييك . قال : قومى ـــ بارك الله عليك ـــ ، ادعى لى بهَيسة ـــ يعنى الصغرى ـــ فأُتِى بها فقال لها كما قال لهما . فقالت : أنت وذاك . فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه . فقالت ـــ ولم يذكر لها مقالتيهما ـــ لكنى والله الجميــلة وجها الصّناع(٥) يدا الرفيعة خُلُقا الحسيبة أبا ، فان طلّقَنى فلا أخلف الله عليه بخير . فقال : بارك الله عليك .

(١) ربع عليه : وقف له أو مال اليه . (٢) يقال : فى وجهه ردة أى قبح مع شىء من الجمال .
(٣) العهدة : الضعف . (٤) الخرقاء : التى لاتحسن صنعة . (٥) امرأة صناع : حاذقة فى الصناعة .

قال خارجة : ثم خرج الينا فقال : قد زوّجتك ياحارث بهيسة بنت أوس .
قال : قد قبلت . ثم أمر أمّها أن تهيئها وتصلح من شأنها ثم أمر ببيت فضُرب له (١)
وأنزله إيّاه . فلما هيئت بعث بها اليه فلم يلبث عندها إلا هُنيهة (٢) ثم خرج الىّ ، فقلت :
أبنيتَ بأهلك ؟ قال : لا والله فانى لمـا دنوت منها قالت : مَهْ ، أعند أبى واخوتى ؟
هـذا والله ما لايكون . قال خارجة : ثم ارتحلنا بهـا فسرنا ما شاء الله ثم انتحى بها
ناحية ولم يلبث ان عاد الىّ . فقلت : أبنيت بأهلك ؟ قال : لا والله فقد قالت :
أكما يُفعل بالأمة الجليبة (٣) والسبيّة الأخيـذة (٤) ؟ لا والله حتى تَنْحر الجُزُر ، وتذبَح الغنم ،
وتدعو العرب ، وتعمل ما يُعمل لمثلى . قلت : والله انى لأرى همّة وعقلا وأرجو
أن تكون المرأة مُنْجِبة ان شاء الله . فرحلنا حتى قدمنا وأحضر الإبل والغنم ثم خلا بها
ولم ينشب أن خرج . فقلت : أبنيتَ بأهلك ؟ قال : لا فقد قلت لها : قد أحضرنا
من المـال ما قد تُرِيدين . فقالت : والله لقد ذكرتَ لى من الشرف مالا أراه فيك .
قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرُغ للنساء والعرب يَقتل بعضها بعضا — وذلك فى أيام
حرب عبس وذبيان — قلت : فماذا تريدين؟ قالت: اخرجْ الى هؤلاء القوم فأصلح
بينهم ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك . قال خارجة : فقلت : والله انى لأرى همة
وعقلا . قال : فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا
وحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين فانصرفنا بأجمل الذكر (٥) .

(١) أقيم وبنى . (٢) الهنيهة : الزمن اليسير . (٣) الجليبة : المجلوبة .
(٤) الأخيذة : المأخوذة . (٥) وقد خلد زهير هـذا الذكر الجميل فى معلقته إذ يقول
من أبيات كثيرة :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

«ولو كان النساء «كمثل هذى» لَفُضِّلَت النســاء على الرجال»

سَوْدة بنت عُمَارة ومعاوية

قال عامر الشَّعبي : وفدت سَوْدة بنت عمارة بن الأشتر الهَمْدانية على معاوية ابن أبي سُفيان فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه سلَّمت، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمِّر لفعل أبيك يا بن عُمارة يوم الطعان ومُلْتَقَى الأقــران
وانصر عليًّا والحسين ورهطه واقصِد لهنــد(١) وابنها بهوان
إنَّ الإمام أخا النبيّ محمّد علمُ الهــدى ومنارة الإيمــان
فقُدِ الجيوش وسِر أمام لوائه قُــدُما بأبيض صارم وسِنَان

قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبُتِر الذَّنَب، فدع عنك تذكار ما قد نُسِى. قال : هيهات، ليس مثل مَقام أخيك نُسِى. قالت : صدقتَ والله يا أمير المؤمنين . ما كان أخى خفىّ المقام ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء :

وإنّ صخرا لتأتمّ الهُداة به كأنّه عَلَم فى رأســه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائى ممــا استعفيته . قال : قد فعلت، فقولى حاجتك . قالت :

يا أمير المؤمنين انك للناس سيّد ولأمورهم مُقَلَّد . والله سائلك عما افترض عليك من حقنا. ولا تزال تُقْدِمُ علينا من يَنْهَض بعزِّك ويَبْسُط بسلطانك فيَحْصُدنا حصاد السُّنْبُل ويدوسنا دِيَاس البقر ويسومنا الخَسِيسة(٢) ويسألنا الجليلة . هــذا ابن أَرْطَاة قَدِم بِلَادى وقَتَل رِجَالى وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عِزّ ومَنَعة، فإمَّا عزلته

(١) هند هى أم معاوية .
(٢) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يجشمنا دنايا الأمور .

فشكرناك، وإما لا فعرفناك . فقال معاوية : أ إياى تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أَرُدَّكِ اليه على قَتَب أشرس(١) فَيُنْفِذ حكمه فيك . فسكتت . ثم قالت :

صَـــلَّى الاله على رُوح تَضَمَّنَه قَبر فأصبح فيـه العَدْلُ مدفونا

قد حالف الحقَّ لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والإيمـان مَقْرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب رحمه الله . قال : ما أرى عليك منه أثرا . قالت : بلى، أتيتـه يوما فى رَجُل ولاه صَدَقَاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغَثّ والسَّمين . فوجدته قائمـا يُصَلِّى فانفتل(٢) عن الصَّلاة ثم قال برأفة وتَعَطُّف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم انى لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترك حَقِّك . ثم أخرج من جيبه قِطعة من جِرَاب فكتب فيـه : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ﴾ . اذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتِىَ من يقبضه منك والسلام . فعزله يا أمير المؤمنين ما خَزَمه بخِزَام ولا ختمه بخِتَام . فقال معاوية : اكتبوا لهـا بالإنصاف لهـا والعدل عليها . فقالت : أَلِى خاصة أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذَنْ الفَحْشاء واللؤم ؛ ان كان عـدلا شاملا، والا يَسَعْنِى ما يسع قومى . قال هيهات، لَمَّظكم(٣) ابن أبى طالب الجُرْأة وغرّكم قوله :

فَلَوْ كنتُ بَوّابا على باب جنـة لقُلتُ لهَمْدَان ادخلوا بسـلام

(١) القتب : الرحل الصغير . والأشرس : الخشن الغليظ .

(٢) انفتل : انصرف .

(٣) لمظه الشىء : منحه إياه .

وقـــوله :

ناديت همدان والأبواب مُغْلَقة ومِثْل هَمْدان سَنّى فَتْحة الباب

كالُهُنْدُوانِىّ لم تُفْلَل مضاربه وجه جميـل وقَلْبٌ غير وَجّابِ

اكتبوا لهـا بحاجتها .

أمّ سِنان بنت جُشَمة ومعاوية

قال سعيد بن أبى حُذَافة : حبس مَرْوان وهو والى المدينة غلاما من بَنى لَيْث في جِناية جناها فأتته جدّة الغلام وهى أم سنان بنت جُشَمَة المَذْحِجيّة فكَلَّمَتْه في الغلام فأغلظ مروان لها ، فخرجت الى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعَرَفَها فقال لهـا : مرحبا بابْنَة جُشَمَة ما أقْدمك أرضنا وقـد عهدتك تَشْتُمِيننَا وتَحُضّين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبـد مناف أخلاقا طاهرة ، وأحلاما وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يَسْفَهُون بعد حلم ، ولا يَنْتَقِمون بعد عَفْو ؛ وان أولى النـاس باتباع ما سَنّ آباؤه لأَنت . قال : صدقت نحن كذلك . فكيف قولك :

عَزَبَ الرُّقاد فُمُقْلَتِى لا تَرْقُـــد والليل يُصْـــدِر بالهموم ويُورِد

يا آل مَذْحِجَ لا مُقَام فشَـــمِّروا إن العدو لآل أَحْمَـــد يَقْصِـــد

هـــذا علىّ كالهـــلال تَحُفّه وَسط السماء من الكواكب أَسْعُد

خير الخلائق وابن عم محمـــد إن يهـــدكم بالنور منـــه تَهْتَدوا

ما زال مذ شَهِد الحروب مُظَفَّرا والنصر فوق لوائه ما يُعْقَـــد[1] ؟

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنا خلفا . فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين؟ وهى القائلة :

(١) ما مصدرية ظرفية ، تقول : ان النصر لا يفارق لواءه مادام معقودا .

إمّا هلكت أبا الحسـين فلم تزل	بالحق تُعْرَف هادياً مَهْـدياً
فاذْهَبْ عليك صلاة ربك مادعت	فوق الغصون حَمَامَةٌ قُمْرِيّاً
قـد كنتَ بعـد محمد خَلَفاً كما	أوصى اليك بنا فكنت وَفِيّاً
واليوم لا خلف يؤمّل بعـده	هيهات نأمل بعـده إنسيّاً

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق ، ولئن تحقّق ماظنناً فحظك الأوفر ، والله ماورّثك الشّنآن (١) فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء فأدْحِض (٢) مقالتهم وأَبْعِد منزلتهم ؛ فانك ان فعلت ذلك تَزْدَدْ من الله قُرْباً ومن المؤمنين حُباً . قال : وانك لتقولين ذلك . قالت : سبحان الله ! والله مامثلك مُدِح بباطل ولا اعتُذِر اليه بكذب ، وانك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا . كان والله علىٌّ أحب الينا منك وأنت أحب الينا من غيرك . قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسَعيد بن العاصى . قال : وبم اسحققت ذلك عندك ؟ قالت بسَـعة حلمك وكريم عفوك . قال : فما حاجتك ؟ قالت : ياأمير المؤمنين ان مروان تَبَنَّكَ (٣) بالمدينة تَبنُّك من لا يريد منها البَرَاح ، لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ، يَتَتَبَّعُ عثرات المسلمين ويكشف عورات المؤمنين ؛ حبس ابن اخى فأتيته فقال : كنتِ وكنتِ ، فأسمعته أخشن من الحجر وألقمته أمَرَّ من الصاب (٤) ، ثم رجعتُ الى نفسى باللائمة وقلت : لِمَ لا أصرف ذلك الى من هو أولى بالعَفْو منه ، فأتيتك ياأمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظرا وعليه مُعْدِياً (٥) . قال : صدقت لا أسألك عن ذنبه والقيام بِحُجّته . اكتبوا لها باطلاقه . قالت : ياأمير المؤمنين وأنّى لى بالرَّجعة وقد نَفِد زادى وكَلّت راحلتى ؟ فأمر لها براحلة ومِنْحة .

(١) الشنآن : العداوة . (٢) أدحض حجته : أبطلها . (٣) تبنك بالمكان : أقام . (٤) الصاب : شجر مر . (٥) أعداه عليه : نصره وأعانه .

لطيفة — حسن الاعتذار وحضور البديهة

كان أبو اسحاق الجيزى (١) فى حضرة كَافُورٍ الأخشيدى فدخل عليه أبو الفضل ابن بَجْبَاس (٢) فقال : أدام الله أيّامِ سـيدنا الأستاذ (بخفض أيام) فتبسم كافورٌ الى أبى اسحاق فقال أبو اسحاق ارتجالا :

لاغَرْوَ أن لحن الداعى لسـيدنا ... وغَصّ من هَيْبَـة بالريق والْبَهر (٣)

فمثل سـيدنا حالت مهابتـه ... بين البليغ وبين القول با لحَصَر

فان يكن خفضَ الأيام من دَهَشٍ ... من شِدّة الخوف لا من قِلّة البَصَر

فقـد تفاءلت فى هـذا لِسَيّدِنا ... والفأل مأثرة عن سـيد البشر

بأن أيامه خَفْضٌ بلا نَصَب ... وان دَوْلَتَه صَـفْو بلا كَدر (٤)

فأمر له بثلثمائة دينار ولابن بجباس بمائتين .

لطيفة أخرى

قال يَمُوتُ بن المُزَرِّع : كان أحمد بن المدبر اذا مدحه الشاعر فلم يرض شعره قال لغلامه : امض به الى المسجد الجامع فلا تفارِقه حتى يصلى مائة ركعة ثم خله . فتحاماه الشعراء الا المجيدين منهم ، فجاءه الحسين بن عبد السـلام المصرى واستأذنه فى الانشاد فقال : قد عرفت الشرط . قال نعم وأنشده :

أَرَدْنَا فى أبِى حَسَنٍ مَدِيحًا ... كما بالمـدح يُنْتَجـع الوُلَاةُ

فقلنا : أكـرم الثَّقَلَيْن طُـرًّا ... ومَنْ كَفَّاه دِجْـلَةُ والفُراتُ

فقـالوا : يقبل المِدَحات لكن ... جـوائزه عليهن الصَّـلَاةُ

---

(١) هو كاتب كافور وكان لغو يا عارفا بالأخبار مضطلعا بالأدب . (٢) من أدباء مصر فى عهد كافور . (٣) البهر : تردد النفس من خوف أو تعب . (٤) خفض العيش : لينه .

فقلت لهم : وما تغـنى صَلَاتِى عيالى انمـا الشأنـ الزَّكاةُ
فيأمر لى بكسر الصاد منهـا فتصبح لى الصَّلاة هى الصِّلات

فاستظرفه ابن المدبر وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال من قول أبى تمـام :

هن الحَمَام فانـ كسرت عِيافَةً[1] من حَائِهن فانّهـنّ حِمَـامُ

فاجزل صلته .

باب العُمْرَانيَّات والخلقيـات

مختـار من مقدّمة ابن خلدون

(١) المقدمة الأولى فى أن الاجتماع الانسانى ضرورى

ويُعبِّر الحكماء عن هذا بقولهم : الانسان مَدَنى بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدينة فى اصطلاحهم، وهو معنى العُمْران . وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركَّبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبمـا ركَّب فيه من القُدرة على تحصيله ؛ الّا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغِذَاء غير مُوَفِّية له بمـادّة حياته منه ، ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحِنْطة مثلا ، فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هـذه الأعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين[2] وآلات لاتتم الا بصناعات متعددة من حَدّاد ونجّار وفَاخُورى[3] . هب أنه يأكله حَبًّا من غير علاج فهو أيضا يحتاج فى تحصيله حبًّا الى أعمال أخرى أكثر من هذه : من الزراعة

(١) العيافة : استنباط الأخبار المستقبلة بواسطة زجر الطير تشاؤما أو تفاؤلا . (٢) المواعين : جمع ماعون وهو كل ما يستعار من الأدوات كالقدر والفأس ونحوهما . (٣) الفاخورى نسبة الى الفاخورة وهى ما يشوى فيها الفخار و يظهر أنها مولدة .

والحَصاد والدِّراس الذى يُخْرِج الحب من غِلاف السُّنْبُل ؛ ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير . ويستحيل ان تفى بذلك كله أو ببعضه قُدْرة الواحد فلابد من اجتماع القُــدَر الكثيرة من أبناء جنسه لِيَحْصُل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهـم بأضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه، لأن الله سبحانه لمـا رَكَّبَ الطباع فى الحيوانات(١) كلها وقسم القُدَر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العُجْم من القدرة أكمل من حظ الانسان، فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الانسان، وكذا قدرة الحِمَار والثَّور، وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته . ولمـا كان العُدْوان طَبِيعيا(٢) فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية(٣) غيره، وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ؛ فاليد مُهَيِّئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب عن الجوارح المعدّة فى سائر الحيوانات للدفاع، مثـل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المَخالب الجارحة والتِّرَاس(٤) النائبة عن البشرات الجاسية(٥)، الى غير ذلك ممـا ذكره جَالِينُوس فى كتاب منافع الأعضاء . فالواحد من البشر لاتقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العُجْم ولا سيمـا المفترسة فهو عاجز

---

(١) يســتعمل ابن خلدون حيوانات وأكثر الاخوان ينـكرها لأنها لم تســمع عن العرب . ورأينا أن استعمالهـا صواب يجيزه القياس ؛ فقــد نص العلماء على أن جمع المؤنث ينقاس فى كل خماسى لم يسمع له جمع تكسير ولا ريب أن هذه من ذاك . (٢) ينسب ابن خلدون الى طبيعة على لفظها ويرى البعض أن ذلك خطأ على اننا نستخف هذا الخطأ لأن الطبيعة والسليقة من واد واحد وعلماء اللغة لم يحصروا الشواذ حصرا تاما وقد وجدنا ابن جنى وهو من كبار أئمة اللغة وله القلم الأعلى ينسب الى الطبيعة على لفظها فى غير ما موضع من كتاب الخصائص . (٣) العادية : الاعتداء . (٤) التراس جمع ترس كقفل وهو المجنّ . (٥) الجاسى : الصلب .

عن مدافعتها وحده بالجملة . ولا تفى قدرته أيضـا باستعمال الآلات المُعَدّة للمدافعة لكثرتهـا وكثرة الصنائع والمواعين المعدّة لها، فلا بد فى ذلك كله من التعاون عليـه بأبناء جنسه ، وما لم يكن هـذا التعاون لا يَحْصُل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لمـا ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له أيضـا دفاع عن نفسه لِفقْدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مَدَى حياته ويَبطُل نوع البشر .

واذا كان التعاون حَصَّـل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه فاذن هـذا الاجتماع ضرورىّ للنوع الانسانى وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم . ثم إن هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قَرَّرْناه وتمّ عُمْران العـالم بهم فلا بد من وَازِع (١) يدفع بعضهم عن بعض لمـا فى طباعهم الحيوانية من العُدوان والظلم ، وليست الأسلحة التى جعلت دافعة لعُدوان الحيوانات العُجْم عنهم كافية فى دفع العُدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شىء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض . ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغَلَبَة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان . وهـذا هو معنى الملك؛ وقد تبين لك بهذا ان الملك للانسان خاصة طبيعية ولا بد له منها . وقد يوجد فى بعض الحيوانات العجم على ماذكره الحكماء كما فى النحل والجراد لمـا استقرئ فيهـا من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها مُتَمَيِّز عنها فى خَلقه وجُثْمانه إلا أن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة . أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

---

(١) الوازع : الرادع ، وفعله كوضع .

(٢) فى أن الظلم مؤذن بخراب العُمران

اعلم أن العُدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يَرَوْنه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك ، وعلى قــدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب . فاذا كان الاعتداء كثيرا عاما فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكســب كذلك لذهابه بالآمال جمــلة بدخوله من جميع أبوابها ، وان كان الاعتداء يســيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعُمْران ووُفُوره ونَفَاق[1] أسواقه انما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين : فاذا قعد النــاس عن المعاش وانقبضت أيديهــم عن المكاسب كَسُدت أسواق العمران ، وانتقضت الأحوال ، وابذعَرَّ[2] الناس فى الآفاق من غير تلك الإيَالة[3] فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخَفَّ ساكن القطر وخلت دياره. وخَرِبَتْ أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لمــا أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتهــا ضرورة ؛ وانظر فى ذلك ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن المُوبَذَان صاحب الدين عندهم أيام بَهْرام بن بهرام وما عَرَّض به للملك فى انكار ما كان عليه من الظّلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له : إن بوما ذكرا يروم الاقتران ببوم أنثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بَهْرام، فقبل شرطها وقال لها : ان دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام؛ فتنبه الملك من غفلته وخلا بالمُوبَذَان وسأله عن مُراده، فقال له أيهــا الملك : ان

(١) النفاق : الرواج أى ضدّ الكساد . (٢) ابذعروا : تفرقوا وفروا .

(٣) الإيالات : الأردية .

الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعتـه والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عِزّ للك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمـال، ولا سبيل الى المـال إلا بالعِمارة ولا سبيل الى العِمارة إلا بالعدل، والعـدل الميزان المنصوب بين الخَليقة نصبه الرَّبُّ وجعل له قيّمًا وهو الملك. وأنت أيها الملك عَمَدْت الى الضّياع فانتزعتها من أربابها وعُمّارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البِطَالة فتركوا العِمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحَيْف على من بقى من أرباب الخراج وعُمّار الضياع، فانجَلَوْا عن ضياعهم، وخَلَّوا ديارهم وأَوَوْا الى ما تعمَّر من الضياع فسكنوها فقلّت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية، وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع الموادّ التى لا تستقيم دعائم الملك إلا بها . فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه وانتُزعت الضياع من أيدى الخاصة ورُدّت على أربابها، وحملوا على رُسُومهم السالفة، وأخذوا فى العمارة وقَوِى من ضعُف منهم، فعُمرت الأرض وأخصبت البلاد، وكثرت الأموال عند جُبَاة الخراج، وقَوِيت الجنود وقُطِعَت مواد الأعداء وشُحِنَت الثغور . وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه، فحَسُنَت أيامه وانتظم ملكه . فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مُخَرِّب للعُمران، وأن عائدة الخراب فى العمران على الدولة الفساد والانتقاض. ولا تنظر فى ذلك الى أن الاعتداء قد يُوجَد بالأمصار العظيمة من الدول التى هى بها ولم يقع فيها خراب. واعلم أن ذلك إنمـا جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر، فلما كان المصر كبيرا وعُمرانه كثيرا وأحواله متسعة بمـا لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتـداء والظلم يسيرا لأن النقص انمـا يقع بالتدريج فاذا خفى بكثرة الأحوال واتساع الأعمال فى المصر لم يظهر أثره إلا بعـد حين . وقد تذهب

تلك الدولة المُعْتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترفَعُه بِجِدَّتِها وتَجْبُرُ النقصِ الذى كان خفيا فيه فلا يكاد يُشْعَر به؛ إلا أن ذلك فى الأقل النادر. والمراد من هــذا أن حصول النقص فى العُمران من الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لمــا قدّمناه، ووَبَالُه عائد على الدُّول. ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المــال أو المِلْك من يد مالكه من غير عِوَض ولا سَبَب كما هو المشهور، بل الظــلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أَحَد أو غصَبه فى عمــله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقــد ظلمه، فجُبَاة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليهــا ظَلَمَة والمنتهبون لها ظَلَمَة والمانعون لحقوق الناس ظَلَمَة وغُصَّاب الأملاك على العموم ظَلَمَة ووَبَال ذلك كلّه عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هى الحكمة المقصودة للشارع فى تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنــه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشرى. وهى الحكمة العامة المراعاة للشرع فى جميع مقاصده الضرورية الخمسة: من حفظ الدين والنفس والعقل والنّسْل والمــال. فلما كان الظلم كما رأيت مُؤْذِنا بانقطاع النوع لمــا أدّى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحَظْر فيه موجودة فكان تحريمه مُهِمًّا وأدلته من القرآن والسُّنة كثير، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر. ولو كان كل واحد قادرا عليه لَوُضِع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وُضِع بإزاء غيره من المفسدات للنوع التى يقدر كل واحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر، إلا أن الظلم لا يُقْدِم عليه إلا من يَقْدِر عليــه لأنه انمــا يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ فى ذمه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه من نفسه. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

ومن أشــدّ الظُّلامات وأعظمها فى إفساد العمران تكليف الأعمــال وتَسْخِير الرعايا بغير حق: وذلك أن الأعمال من قبيل المُتَموَّلات لأن الرزق والكسب انما

هو قِيم أعمال أهل العمران فإذَنْ مساعيهم وأعمالهم كلها مُتَمَوَّلات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها . فان الرعية المعتملين فى العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك، فاذا كلفوا العمل فى غير شأنهم واتخـذوا سُخْرِيًّا(١) فى معاشهم بَطَل كسبهم واغتُصِبُوا قيمة عملهـم ذلك وهو مُتَمَوَّلهم فدخل عليهـم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجمـلة . وان تكرر ذلك عليهـم أفسد آمالهم فى العِمارة وقعدوا عن السعى فيها جملة فأدّى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبـه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

منزلة السلطان وبيان أن منافعه عامّة كثيرة، وأن مضارّه خاصّة يسيرة

قال ابن المقفع فى اليتيمة : مَثَل قليـل مضارّ السلطان فى جنب منافعـه مثل الغيث الذى هو سُقْيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليهـا ؛ وقد يتأذّى به السَّـفْر ويتداعى(٢) له البُنيان وتكون فيه الصّواعق وتدِرّ(٣) سُيوله فيُهلِك الناس والدوابّ. وتَمُوج له البحار فتشتد البليّة منـه على أهله ؛ فلا يمنع الناس — اذا نظروا الى آثار رحمة الله فى الأرض التى أحيا والنبات الذى أخرج والرزق الذى بسط والرحمة التى نشر — أن يعظّموا نعم ربهم ويشكروها ويُلْغُوا ذكر خواصّ البـلايا التى دخلت على خواصّ الخلق . ومثل الرياح التى يرسلها الله نُشُرا(٤) بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لَقَاحا(٥) للثمرات وأرواحا(٦) للعبـاد، يتنسمون(٧) منها ويتقلبون فيها

(١) سخره : كلفـه ما لا يريد بطريق القهر والعسف فهو سخـرى أى مكلف بما لا يريد .
(٢) تداعى البنيان : تساقط أوكاد يتساقط . (٣) در السيل : فاض وجرى .
(٤) نشر : جمع نشور : كرسل ورسول، ومعناها ناشرة أى محيية ، وقرئ بشرا بالباء أى مبشرة .
(٥) ملقحة . (٦) الأرواح : جمع روح وهو الرحمة أو نسيم الريح . (٧) تنسم : تنفس .

وتجرى بها مياههم وتقِد بها نيرانهم وتسـير بها فُلْكهم؛ وقد تضرّ بكثير من النـاس فى برّهم وبحرهم ويخلص ذلك الى أنفسهم وأموالهم فيشكوها منهم الشاكون ويتأذّى بها المتأذّون، ولا يزيلها ذلك عن منزلتها التى جعلها الله بهـا وأمرها الذى سخّرها له من قَوام(١) عباده وتمام نعمته . ومثل الشتاء والصيف اللذينِ جعل الله حرّهما وبردهما صلاحا للحرث والنسل ونِتاجا للحب والثّمر، يجمعها البرد بإذن الله ويخرجها الحرّ بإذن الله وينضِجها مع سائر ما يعرف من منافعها؛ وقد يكون الأذى والضّر فى حرّهما وبردهما وسمائمهما(٢) وزمهريرهما(٣)، وهما مع ذلك لا يُنْسبان إلا إلى الخير والصلاح . ومن ذلك الليل الذى جعـله الله سَكَنًا ولباسا؛ وقد يسـتوحش له أخو القفر وينازع(٤) فيـه ذو البليّة والريبة وتعدو فيه السباع وتنساب فيه الهوامّ ويغتنمه أهل السَّرَق والسَّلّة(٥)؛ ولا يُزْرِى(٦) صـغير ضرره بكثير نفعه ولا يُلحِق به ذمّا ولا يضع عن النـاس الحق فى الشكر لله على ما منّ به عليهـم منه . ومثل النهار الذى جعله الله ضياء ونُشورا؛ وقد يكُون على الناس أذى الحرّ فيظهم وتُصبّحهم فيه الحروب والغارات ويكون فيه النَّصَب والشخوص(٧) وكثير ممّا يشكوه الناس ويستريحون فيه الى الليل وسكونه . ولو أن الدنيا كان شىء من سرّائها يَعُمّ عامّة أهلها بغير ضرر على بعضهم وكانت نَعْماؤها بغير كَدَر وميسورها من غير مَعسور كانت الدنيا إذنْ هى الجنة التى لا يشوب مَسرّتَها مكروه ولا فرحَها ترح والتى ليس فيها نَصَب ولا لغوب(٨) . فكل جسيم من أمر الدنيا يكون ضُرّه خاصة فهو نعمة عامة وكل شىء منه يكون نفعه خاصا فهو بلاء عام .

---

(١) القوام كسحاب : ما به العيش . (٢) السمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة .
(٣) الزمهرير: شدّة البرد . (٤) ينازع : يكابد ويعانى . (٥) السرق : السرقة . والسلة : السرقة الخفية . (٦) أزرى به : أدخل عليه عيبا . (٧) الشخوص : الذهاب .
(٨) اللغوب : أشد الإعياء .

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ـــ لمَّا ولى الخلافة ـــ الى الحسن البصرى[١] أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب اليه الحسن رحمه الله : اعلم ياأمير المؤمنين ان الله جعل الإمام العادل قِوام[٢] كل مائل وقَصْد كل جائر وصـلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونَصَفة كل مظلوم ومفْزَع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد[٣] لهـا أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحرّ والقُرّ . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسـعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حيـاته ويدّخر لهم بعد ممـاته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البَرّة الرفيقـة بولدها حملته كُرْها ووضعته كُرْها وربّته طفلا ، تسهر بسَهَره وتسكُن بسكونه ترضعه تارة وتفطِمه أخرى وتفرَح بعافيته وتغتمّ بشِكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العـدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم وينظر إليه ويريهم وينقاد الى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه ماله وعياله فبدّد المـال وشرّد[٤] العيـال فأفقر أهله وفرّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين ان

---

(١) هو أبو سعيد بن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصارى ، وكان الحسن من سادات التابعين وكبرائهم وكان نسيج وحده فى الفصاحة والعلم والعبادة والورع وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ . (٢) قوام الأمر : عماده ونظامه . (٣) الارتياد : طلب الكلأ فى مواضعه .

(٤) التشريد : التفريق والطرد .

الله أنزل الحدود[١] ليزجُرَ بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها، وان الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يَقْتصّ لهم .

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقِلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزوّد له ولما بعده من الفَزَع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثَوَاؤك[٢] ويفارقك أحبّاؤك ويسلمونك فى قعره فريدا وحيـدا ، فتزوّد له ما يَصحَبك يوم يفرّ المـرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه . واذكر يا أمير المؤمنين اذا بُعثِر[٣] مافى القبور وحُصِّل[٤] مافى الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صـغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين — وأنت فى مَهَل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمَل — لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحُكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تُسلّط المستكبرين على المستضعَفين ، فانهم لا يرقُبون فى مؤمن إلًّا[٥] ولا ذِمّة ، فتبوءَ بأوْزارك وأوزار مع أوزارك وتحمّلَ أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولا يَغرّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيّبات فى دنيـاهم بإذهاب طيّباتك فى آخرتك ، فلا تنظر الى قدرتك اليوم ولكن انظر الى قدرتك غدا وأنت مأسـور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى الله فى مَجْمَع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عَنِت[٦] الوجوه للحىّ القيّوم .

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النُّهَى من قبلى فلم آلُك[٧] شفقة ونُصحا ، فأنزل كتابى اليك كمُداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

---

(١) الحدود : العقوبات الرادعة . (٢) الثواء : الاقامة أو طولها . (٣) بعثر : أثير وأخرج . (٤) حصل : جمع . (٥) الإل : العهد . (٦) عنا : خضع .
(٧) يقال : انى لا آلوك نصحا : أى لا أفتر ولا أقصر .

مختـار من نظرات السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

(١) الرحمـــة

سأكون فى هـذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر لأنى أريد أن أخاطب القلب وجها لوجه ولا سبيل لى إلى ذلك إلّا سبيل الشعر .

ان البذور تُلقى فى الأرض فلا تَنْبُت إلا اذ حرث الحارث تربتها وجعل عاليهـا سافلها . وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا اذا دخلته وتخَلّلت أجزاءه ، وبلغت سويداءه . ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد كن رحيما، أشعر قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : إنى غير سعيد لأن بين جَنْبَيّ قلبا يُلِمّ به من الهم ما يُلم بغيره من القلوب ، أجَلْ فليكن ذلك كذلك . ولكن أطعم الجـائع واكْسُ العارى وعَزِّ المحزون وفَرِّج كُرْبة المكروب يكن لك من هذا المجتمع البائس خير عزاء عن همومك وأحزانك . ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحَلَك فالبدر لا يطلُع إلا إذا شقّ رداء الليل، والفجر لا يَدْرُج إلا من مَهْد الظلام .

لقد بَلِيَتْ اللذات كلها ورثّت حبالهـا وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ولم يبق ما يعزّى الانسان عنها إلا لذةٌ واحدة هى لذة الاحسان .

ان مَنْظَر الشاكر منظر جميل جَذّاب، ونعمة ثنائه وحمـده أوقع فى السمع من رنّات العود فى هَزَجه ورَمَله[1] وأعذب من نغمات مَعْبَد[2] فى الثّقيل الأول .

---

(١) الهزج والرمل : ضربان من أصوات الموسيقى كما أنهما بحران من بحور الشـعر العربى .

(٢) معبد : مغن من أكبر المغنين لعهد بنى أمية . والثقيل الأول : صوت من أصوات الغناء العربى وقد مر ذلك .

أحسن الى الفقراء والبائسين وأعِدُك وعدا صادقا أنك ستمرّ فى بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك انك أكرم مخلوق وأشرف انسان ثم يُعْقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرا بما فعلت فيدعو صاحبه بدعائه .

وهنا لك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل فى هذا الحى الخامل ما يجده الصالحون اذا ذُكِروا فى الملأ الأعلى .

ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفئود، حتى نبتسم جميعا سرورا ببكائك؛ لأن الدموع التى تحـدر على خدّيك أيها الباكى الرحيم سُـطور من نور تُسَجَّل لك فى تلك الصحيفة البيضاء : انك انسان .

إن السماء تبكى بدموع الغَمام ويَخْفُق قلبها بلَمَعان البرق وتَصْرُخ بهـدير الرعد . وأن الأرض تئن بحفيف الريح وتَضِجّ بأمواج البحر . وما بُكَاء السماء ولا انين الأرض الا رَحْمةٌ بالانسان؛ ونحن أبناء الكون فلنجاره فى بكائه وحنينه .

أن اليد التى تصون الدموع أفضل من اليد التى تُرِيق الدماء، والتى تشرح الصدور أشرف من التى تَبْقر البطون (١) . فالمحسن أفضـل من القائد، وأشرف من المجاهد . وكم بين من يُحْيِى الميت ومن يُميت الحىّ !

إن الرحمة كلمة صغيرة ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس فى منظَرها والشمس فى حقيقتها .

اذا وجد الحكيم بين جوانح الانسان ضالّته من القلب الرحيم وجد المُجْتَمع ضالته من السعادة والهناء .

---

(١) بقره : شقه ، ومضارعه يبقر كينصر ويبقر كيأبى وهذا شاذ .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مَغْبون ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، واطمأنت الجنوب فى المضاجع، ولَمَحَتْ الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مِدَاد الظلام .

لم يخلق الله الانسان ليُقَتِّر عليه رزقه ولم يكن ليقذف به فى كون لا يعيش فيه . بل أرادت حكمته أن يخلُقه ويخلُق له فى مسارب(١) الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مَؤُونَته، ويسُدّ حاجته . ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوى بالضعيف واحتجن(٢) دونه رزقه؛ فتغير نظام القسمة العادلة وتشوّهَ وجهها . ولو كان للرحمة سبيل الى القلوب لَمَا كان للشقاء اليها سبيل .

الفرد هو المجتمع وإنما يَتَعَدّد بتعدّد الصور . أتدرى متى يكون الإنسان إنسانا؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسَه نَخَفَق قَلبُه لخفقان القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائى بينه و بينها انفرد عنها واستوحش من نفسه . وإذا كان الانس(٣) مأخذ الانسان المجتمع، فالوحشة مأخذُ الوحش المنقطع .

وجِمَاع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرُّحماء وشِقْوة الأشقياء فى مكان واحد، إلا اذا اجتمع المَلَك الرحيم، والشيطان الرجيم .

---

(١) المسارب : المذاهب والمراعى، واحده على الأوّل مسرب وعلى الثانى مسربة . (٢) احتجن المال : استأثر به واختص . (٣) يشير الى الاشتقاق اللغوى وهو أن الانسان مشتق من الانس لأنه مدنى بطبعه . غير أن من أهل اللغة والأدب من يرى أنه مأخوذ من النسيان لان ذلك أيضا من طبعه، قال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فانما سميت انسانا لأنك ناسى

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والاحسان فلا يفعل . فاذا مشى فى طريقه مشى مندفعا مندلِثا(١) لا يلْوِى(٢) على شىء مما حوله من المناظر المؤثّرة المحزنة، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب فى الضحك سُخْرِية به وببَذَاذَة(٣) ثوبه وتَشَوُّه خَلقه . وإنّ من الناس من اذا عاشر الناس عاشرهم لِيَعْرف كيف يحتلب دِرّتهم ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شُوَيْهاته وبَقَراته، لا يَقْرَبُها ولا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح فى الاتّجار بألبانها وأصوافها، ولو استطاع أن يهدم بيتا ليربح حجرا لفعل . وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مُسْتَقَرّه وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه، والوقوف فى وجهه والحِيطَة لفراره، يبيت ليله حزينا كئيبا لأن خزّانته ينقُصها درهم كان يتخيّل فى يقظته أو يرى فى منامه أنه سيأتيه فلم يُقَيَّض له . وإن من الناس من يؤذى الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لأنه شِرّير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه أو لِيُضَرِّى(٤) نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة اليه، حتى لو لم يبق فى العالم شخص غيره لكانت نفسه مَدَبّ عقاربه وغرض سهامه . وإن من الناس من اذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادّة لا يسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجرا صَلْدًا من أحجار الغَرَانِيتِ لا يَبِضّ(٥) بقطرة من الرحمة، ولا تخلُص اليه نسمة من العظة .

---

(١) الاندلاث : التقدّم بلا فكرة ولا روية . (٢) يقال : مر لا يلوى على شىء أى لا يلتفت ولا ينعطف . (٣) بذاذة الثوب : رثاثته . (٤) ضراه بكذا : عوده إياه . (٥) بض الماء : سال .

فيأيها الانسان احذر الحــذر كله من أن تكون واحدا من هؤلاء فانهم سـباع مفترسـة وذئاب ضارية . بل أعظك أن تدنو من أحدهم أو أن تقف فى طريقه فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا آسف عليك .

أيها الانسان ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غِزَار . ارحمها قبل أن ينال اليأس منها فيعبث الهم بقلبها فتفضـل الموت على الحياة .

ارحم الزوجة أم ولدك ، وقعيدة بيتك ، ومرآة نفسك ، وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها اليك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه ، فانك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل ، لا تخَين فرصــة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليـه بين الجهل والظلم . ولا تتخذ عقله متجرا ترْبَح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لأنه يُحِسّ كما تحس ، ويتألم كما نتألم ، ويبكي بغير دموع ولا يكاد يبين . ارحمه وكذب من يقول : ان الانسان طبع على ضرائب[1] لؤم أقلها أنه يُقَبّل يد ضاربه ، ويضرب من لا يَمُدّ اليه يدًا .

ارحم الطيور ، لا تحبسها فى الأقفاص ودعها فى فضائها تهيم حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير . ان الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسع مد جناحها . أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها

(١) الضرائب : جمع ضريبة وهى الطبيعة .

لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفى الغابات وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهى طائرة فى جوّ السماء فيخيل اليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيّار .

أيها السـعداء : أحسنوا الى البائسين الفقراء ، وامسحوا دموع الأشـقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

(٢) أين الفضـــــيلة

قرأت فى بعض الروايات أن فتى قضى حِقْبة من دهره مُولَعا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة فى حياته ، وانمـا تخيّل فى ذهنـه صورة ألّفَها من شتّى المحاسِن ومتفرقاتها فى صور البشر، فلما استقرت فى مخيّلته تجسّمت فى عينيه فرآها ، فأحبها حبا ملك عليه قلبه وحال بينه و بين نفسه وذهب به كل مذهب، فأنشأ يفتش عنها بين سَمْع الأرض و بصرها أعواما طوالا حتى وجدها .

لا أستطيع أن أُكَذّب هـذه القصة لأنى أنا ذلك الفتى . لا فرق بينى و بينه إلا أنه يسمى ضَالّتَه الفتاة واسمها الفضيلة، وأنه فتّش عنها فوجدها وفتشت عنهـا حتى عَيِيتُ بأمرها فمـا وجدت اليها سبيلا .

فتّشت عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر لِصًّا فى أثواب بائع ، ووجدته يبيعنى بدِينارين ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت أنه سارق للدينار الثـانى . ولو وُكِل الىّ أمر القضاء ما هان علىّ أن أعاقب لصوص الدراهم وأُغْفِل لصوص الدنانير ما دام كل منهما يَسْلُبنى مالى ويَتَغَفَّلنى[1] عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق جزائه على جَهْد نفسه فى جلب السِّلعة وبذل راحته فى صونها وإحرازها . وكل ما أعرف من

(١) تغفله : تحين غفلته كاستغفله .

الفرق بين حلال المـال وحرامه أن الأوّل بدل الجـدّ والعمل ، والثانى بدل الغش والكذب .

فتشت عن الفضـيلة فى مجالس القضاء، فرأيت أن أعدل القضاة من يَحرِص الحرصَ كله على أن لا يهفو فى تطبيق القانون الذى بين يديه هَفْوةً يحاسبه عليها من منحه هـذا الكرسى الذى يجلس عليـه مخافة أن يسلُبه أياه . أمّا انصاف المظـلوم والضرب على يد الظالم ، وإراحة (١) الحقوق على أهلها ، وانزال العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنـده ذيول وأذناب لا يَأْبَه (٢) لهـا ولا يحتفل بشأنها إلا اذا أشرق عليها الكوكب بسـعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقا . فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم، ودان البرىء وبَرّأ الجانى. فاذا عَتَب عليـه فى ذلك عاتب كانت معذرته اليه، حكم القانون عليه، كأنمـا يريد أن يجعل العقل أسير القانون . وما القانون إلا حسـنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه .

هذا شأن أعدل القضاة وأهداهم الى الحق وأقومهم سبيلا .

فتشت عن الفضـيلة فى قصور الأغنياء ، فرأيت الغنى إمّا شحيحا أو متْلافا : أما الأوّل فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضى الله عنهـا ، وسمع فى جوف الليـل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مَدّ أصبعيه الى أذنيه ثقـة منه أن قلبه المتحجر لا تَنفُذه نَسَمات الرحمـة، ولا تمرّ بين أثنائه نسمات الاحسان ؛ وأما الثانى : فمـا له بين ثَغْر الحسنـاء وثغر الصهباء، فعلى يد أىّ رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنيـاء .

(١) أراحه : رده . (٢) أبه له : تنبه وفطن .

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتّجران بالعقــول فى أسواق الجهــل ورأيت كلا منهما قد تغرله فى كل رأس من رءوس البشر ثغْرة ينحدر منها الى العقول فيفسدها والقلوب فيقتلها ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبُها، هذا باسم الوطنيّة وذاك باسم الدين .

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثُر بها . فليت شعرى هل أجدها فى الحانات والمواخير أو فى مغارات اللصوص أو بين جدران السجون ؟

سيقول كثير من النــاس : قد غلا الكاتب فى كلمه وجاوز الحدّ فى تقــديره . فالفضيلة لا تزال تجد فى صدور كثير من الناس صدرا رحبــا وموردا عذبا . وأنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم : إنى لا أنكر وجود الفضيلة ولكنى أجهل مكانها، فقد عَقَد رياء الناس أمام عينىّ سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما أجد فى صفحة السماء نجما لامعا ولا كوكبا طالعا . كل الناس يدعى الفضيلة ويَنْتَحِلها وكلّهم يَلْبَس لباسها و يرتدى رداءها ويُعِدّ لهــا عُدتها من منظر يستهوى الأذكياء والأغبياء ومَظْهَر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنا .

فمن لى بالوصول اليها فى هذا الظلام الحالك والليل الأليَل؟

ان كان صحيحا ما يتحدّث به النــاس من سعادة الحياة وطيبها وغِبطتها ونعيمها فسعادتى فيها أن أعثُر فى طريق فى يوم من أيام حياتى بصديق يَصْدُقنى الود وأصْدُقه فيُقنعه منى ودى واخلاصى دون أن يتجاوز ذلك الى ما وراءه ، وأن يكون شريف النفس، فلا يطمع فى غير مطمع، شريف القلب، فلا يَحْمِل حِقْدا ولا يَحْفَظ وِترا، ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير ما يحدث به خُلَطاءه فى مَحْضَره، شريف اللسان فلا يكذب ولا يَنُمّ ولا يُلِمّ بعرض، ولا ينطق بهُجْر، شريف الحب، فلا يُحِب غير الفضيلة، ولا يُبْغِض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها . اني لأرى الرياض الغنّاء تهفو أشجارها ، وترنّ أطيارها ، وأرى جداول المـاء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعي الرّقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورات الأوراق عبث الهوى بألباب العُشّاق ، وأسمع ما بين صفير البلابل ، وخرير الجـداول ، نغمات شجيّة تبلغ من نفس الانسان ، مالا تبلغ أوتار العيدان ، فلا يَسُرّني منظر ، ولا يُطربني مسمع ، لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالّتي التي أنْشُدها .

لقد سُمج وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي ، حتى أصبحت أتمنّى أن أعيش بلا قلب ، فلا أشعر بخير الدنيا وشرها ، وسرورها وحزنها .

ولولا بُنيّات صغار يَفقِدن بفقدي طيب العيش ونعيمه ، لفررت من هذا العالم الناطق ، الى ذلك العالم الصامت ، فسأجد من الأنس به والسكون اليـه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت انسان فكدت أطـير

(٣) الغـنيّ والفقـير

مررت ليلة أمس برجل بائس ، فرأيته واضعا يده على بطنه كأنما يشكو ألمـا ، فرثيت لحاله ، وسألته ما باله ؟ — فشكا اليّ الجوع ، ففثأته[1] عنه ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثّراء والنِّعمة فأدهشني أني رأيتـه واضعا يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسألته عمـا به فشكا اليّ البِطْنة[2] ، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى الغنيّ الفقير ما فَضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سَقَماً ولا ألمـا . لقد كان جديرا به أن يتناول من الطعام ما يُشبع

(١) فثأ الغضب ونحوه : دفع حدته وسكنه . (٢) البطنة : التخمة .

جَوْعته، ويطفئ غُلَّته، ولكنه كان محبا لنفسه مغاليا بها، فضم الى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير، فعاقبه الله على قسوته بالبطنة حتى لا يَهْنَأَ(١) للظالم ظلمه، ولا يطيب له عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: "بِطْنَة الغنى انتقام لجوع الفقير".

ماضنّت السماء بمائها، ولا شحّت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوى الضعيف عليهما فزواهما(٢) عنه، واحتجنهما دونه؛ فأصبح فقيرا مُعْدِما، شاكيا متظلما، غرماؤه المياسير(٣) الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ليتنى أملك ذلك العقل الذى يملكه هؤلاء الناس فأستطيع أن أتصوّر كما يتصوّرون حجة الأقوياء فى أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء.

ان كانت القوّة حُجّتهم عليهم، فلم لا يملكون بهذه القوّة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة فى نظر الحى بأثمن قيمة من اللُّقْمة فى يد الجائع. وان كانت حجتهم أنهم وَرِثوا ذلك المال من آبائهم، قلنا لهم: ان كانت الأبوّة علّة الميراث فلم ورثتم آباءكم فى أموالهم ولم ترثوهم فى هفواتهم؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء وكان حقا عليهم أن يردّوا اليهم ما اغتصبوا منهم. فان كنتم — لا بُدّ — ورثاءهم فاخْلُفوهم فى ردّ المال الى أربابه، لا فى الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء من بنى الانسان وما أقسى قلوبهم! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يُقْلِقهُ فى مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يُرْعَد بردا. ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشوائه، حُلْوه ومُرّه. ولا يُنَغّص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تَثِبُ أحشاؤه شوقا الى فُتَات تلك

(١) هنأ من باب ضرب ونصر وفتح. (٢) زوى عنه الشىء: نحاه وأبعده.

(٣) المياسير جمع موسر وهو جمع شاذ فلا تقل فى جمع مكرم ومحسن مكاريم ومحاسين وانما قياس هذا جمع المذكر السالم للعاقل وجمع المؤنث لغير العاقل.

المـائدة، ويسيل لُعابه تَلَهُّفا على فَضَلاتها . بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ، ولا يعقِد الحياء لسانه ، فيظل يسرُد على مسمع الفقير أحاديث نعمه ورفاهيته ، وربما استعان به على عَدّ ماتشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقُه من الجوهر وغُرَفه من الفراش والرِّياش ليَكسِر قلبه ويُنَغِّص عيشه ويُبَغِّض اليه حياته . وكأنه فى كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته يقول له : أنا سعيد لأنى غنى ، وأنت شقى لأنك فقير .

أحسَب لولا أن الأقوياء فى حاجة الى الضعفاء يسـتخدمونهم فى مرافقهـم وحاجهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويُسَخِّرونهم فى مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليُمَتِّعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحيـاة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا أستطيع أن أتصوّر أن الانسان انسان حتى أراه محسنا ، لأنى لا أعتمد فصلا صحيحا بين الانسان والحيوان إلا الإحسان . وانى أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن الى غيره ليتخذ إحسانه اليه سبيلا الى الإحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذى لا يفهم من الاحسان إلا أنه يستعبد الانسان ، ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشَّرِه المتكالب الذى لو علم أن الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح فى سبيله النـاس جميعا ، ورجل لا يحسن الى نفسه ولا الى غيره وهو البخيل الأحمق الذى يُجيع بطنه ليشبع صندوقه . أما الرابع الذى يحسن الى غيره ويحسن الى نفسه فلا أعلم له مكانا ولا أجد اليه سبيلا . وأحسب أنه هو ذلك الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى « ديوجنس »[1] حينما سئل ما يصنع بمصباحه — وكان يدور به فى بياض النهار — فقال : أفتش عن انسان .

(١) هو الفيلسوف الذى كان فى عصر الاسكندر وقد تقدّم ذكره فى باب الوصف .

رسالة سهل[١] بن هرون فى البخل

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمْركم وجمع شَمْلكم وعَلَّمكم الخير وجعَلكم من أهله . قال الأحنف ابن قيس : يامعشر بنى تميم لا تُسْرِعوا الى الفتنة فان أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفِرار . وقد كانُوا يقولون : اذا أردت أن تَرَى العيوب جَمَّة فتأمّل عَيَّابا فانه انما يَعيب الناس بفضل مافيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تَنْهى مُرْشِدا وان تُغْرَى بمُشْفِق . وما أردنا بما قلنا إلا هِدايتكم وتقويمكم ، واصلاح فاســدكم ، وإبقاء النعمة عليكم . وما أَخْطَأنا سبيل حُسن النيّة فيما بيننا وبينكم . وقــد تَعْلمون أنا ما أوصيناكم إلا بمـا اخترناه لكم ، ولأنفسنا قَبْلكم ، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وما أُرِيد أن أخالِفكم الى ما أنهاكم عنه . إن أُرِيدُ إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أُنِيب﴾ فمـا كان أَحَقَّنا منكم فى حُرْمَتِنَا بكم أن تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقكم ؛ فلا العُذْر المبسوط بَلَغْتم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شُغْلا .

عِبْتمونى بقولى لخادمى : أجيدى العَجِين فهو أطيب لطَعْمه وأَزْيَد فى رَيْعه[٢] . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أَملكوا[٣] العجين فإنه أحد الرَّيْعَين .

وعِبْتُمونى حين خَتَمْتُ على ما فيه شىء ثَمين من فاكهة رَطْبَة نَقِيَّة ومن رُطَبَة غريبة على عَبْد نَهِم وصَبِىّ جَشِع وأمة لَكْعاء[٤] وزوجة مُضيعة .

---

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه ثعلة وعفرة . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون .

(٢) الريع : النماء والزيادة . (٣) املاك العجين : انعام عجنه . (٤) اللكعاء : الحمقاء .

وعبتمونى بالختم وقد ختم بعض الأئمة على مِزْود سَــويق(١) وعلى كيس فارغ . وقال : طينة خير من ظِنّة فأمسكتم عمن ختم على لاشىء وعبتم من ختم على شىء .

وعبتمونى أَنْ قُلْت للغلام : إذا زدت فى المَـرَق فزِدْ فى الإنضاج ليجتمع مع التأدّم باللحم طيب المرق .

وعبتمونى بخَصْف(٢) النعــل وبتصدير(٣) القميص وحين زَعَمْت أن المَخْصُوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبَه بالشدّ وان الترقيع من الحَزْم والتفريط من التضييع . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبه ويقول : لو أُهدى إلى ذِرَاع لقبلت ولو دعيت إلى كُرَاع لأجبت . وقالت الحكماء : لاجديد لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحَدّثا واشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافقا فقال له : أَكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا . ولكنى رأيته فى يوم قائظ يَلْبَس خَلَقا ويلبس الناس جديدا ، فتَفَرّست فيــه العقل والأدب . وقد علمت أن الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل الله لكل شىء قَدْرا وسما به موضعا كما جعل لكل زمان رجالا ولكل مقام مقالا . وقد أحيا الله بالسمّ وأمات بالدواء وأغصّ بالمـاء . وقد زَعَموا أن الاصلاح أحد الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليسارين . وقد جَبَر الأحنف بن قيس يد عَنْز وأمر مالك بن أنس بفَرْك النَّعْل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضة فقد أكل دَجَاجة . ولبس سالم بن عبد الله جِلْد أُضْحِية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أُهْدِى اليــك دجاجة . فقال : ان كان لا بد فاجعلها بَيُوضا .

---

(١) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٢) خصف النعل : خرزها . (٣) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

وعبتمونى حين قلت : من لم يعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى . ولقد أُتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشَدّ من الكفاية فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التَّوْفِير عليها من وَضيعة الماء (١) وجدت فى الأعضاء فَضْلا عن الماء ، فعلمت أنْ لَوْ كنت سَلَكت الاقتصادَ فى أوائله لخَرَج آخره على كِفاية أوّله ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخِر . فعبتمونى بذلك وشَنَّعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذكر السرف : أمَا إنه لَيكونُ فى الماء والكَلأ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه الكَلأ .

وعبتمونى أن قلت : لايَغْتَرَّنَّ أحدكم بطول عمره وتَقْويس ظهره ورِقَّة عَظْمه ووهْن قوته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيَّته فيدعوَه ذلك إلى إخراج ماله من يده وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله يكون مُعَمَّرا وهو لا يدرى وممدودا له فى السّن وهو لايَشْعُر ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يَخْطُر على بال ولا يُدْركه عقل ، فيسترده ممن لا يرده ويُظْهِر الشكوى الى من لا يرحمه أصْعَبَ ما كان عليه الطَّلب وأقبح ما كان به أن يطلب ؛ فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص :

اعْمَلْ لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وعبتمونى بأن قلت : بأن السَّرَف والتبذير إلى مال المواريث وأموال الملوك والى ما لا يُعَرَّض فيه بذهاب الدين واهتضام العِرْض ونَصَب الْبَدَن واهتضام القلب أسرع ، وأن الحفظ للمال المكتسب والغنى المجتلب أقرب . ومن لم يَحْسُب نفقته لم يحسب دخله ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أُوذِن بالفقر وطاب نفسا بالذل .

(١) الوضيعة هنا : النقص .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحـلال يضمن الانفاق فى الحلال ، وإن الخَبيث يَنْزِع الى الخبيث ، وإن الطَّيّب يدعو الى الطّيب ، وإن الإنْفاق فى الهوى حِجاب دون الهُدى ، فعبتم علىّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أر تبذيرا قَطّ إلا والى جَنْبِه تضييع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تَعْرِفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا ينفقه فان الخبيثَ إنما يُنْفَق فى السّرَف . وقلت لكم بالشَّفَقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات والجوائح غير مأمونات فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا النِّقَم باختلاف الأمكنة فإن البلية لاتجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأمة والشاة والبعير : فَرّقوا بين المنايا . وقد قال ابن سِيرين لبعض البَحْرِيّين : كيف تَصْنَعُون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بَعْض سَـلم بَعْض . ولولا أن السـلامة أكثر ما حملنا أموالنا فى البحر . قال ابن سيرين : "تَحْسبها حَمْقاء وهى صَنَاع"[1] .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشْفَاقى عليكم : إن للغنى لَسُكْرا وللمـال لَنَزْوة[2] فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المـال بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة : ليس أحد أقصر عقلا من غَنِىّ أمن الفقر . وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برمك :

وَهُوب تِلَاد المـال فيما ينوبه مَنُوع اذا ما منعه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتم أنى أقدم المـال على العلم ، لأن المـال به يُفَاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العـلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ . (٢) النزوة : الثورة أو الوثبة .

الفرع . فقلتم : كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : آلأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المـال وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالها هى القاضية بينهما . وكيف يستوى شيء حاجة العامة اليه وشيء يغنى فيه بعضهم عن بعض .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأبغض أهـل بيت ينفقون نفقة الأيام فى اليوم الواحد . وكان أبو الأسـود الدؤلى يقول لولده : اذا بسط الله لك الرزق فابْسُط واذا قبض فاقْبِض .

وعبتمونى حين قلت : فضل الغنى على القوت إنمـا هو كفضل الآلة تكون فى البيت اذا احتيج اليها استُعْمِلت وإن استُغْنى عنها كانت عُدّة . وقد قال الحُضَيْن ابن المنذر : وَدِدْت أنّ لى مثـل أُحُد ذهبا لا أنتفع منه بشىء . قيل له فما كنت تَصْنَع به ؟ قال : لكثرة من كان يَخْدُمنى عليه لأن المـال مخدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزّ فى قلبك وذُلّ فى قلب عَدُوّك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سـيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو ؛ ولستم علىّ تردون ولا رأيى تُفَنِّدون ، فَقَدّموا النَّظَر قبل العَزْم وأدرِكوا مالكم قبل أن تُدْرَكوا مآلكم . والسلام عليكم .

*
* *

وقال حافظ بك ابراهيم يدعو الى مكارم الأخلاق ويعيب بعض الرذائل الفاشية فى طبقات الأمة المصرية ويَحُض على تربية المرأة وإصلاح شأنها :

إنى لتُطْرِبُنى الخــلال كريمةً طَرَبَ الغَـرِيب بأَوبة وتلاقى

ويَهُزُّنى ذكر المروءة والنـدى بين الشمائل هَزّة المشتاق

فاذا رُزِقْتَ خَليقة محمــودة فقد اصطفاكَ مُقَسِّمُ الأرزاق

فالناس : هذا حَظّه مال وذا علم وذاك مكارم الأخــلاق

والمـال ان لم تَدّخِره مُحَصَّنا بالعـلم كان نهاية الإمْــلاق

والعـلم ان لم تَكْتَنِفْه شمـائل تُعْلِيـه كان مطيّة الإخفـاق[1]

لا تحسَبن العـلم ينفع وحده ما لم يُتَــوّج رَبّه بخَــلاق

كم عالم مَدّ العـلوم حبائلا لوقيعــة وقطيعة وفــراق

يدعونه عند الشِّقاق وما دَرَوْا أن الذى يدعون خِدْن شقاق[2]

وطبيبِ قوم قد أحـلَّ لِطبِّه ما لا تُحِـلّ شريعة الخَـلّاق

قَتَلَ الأَجِنَّة فى البطون وتارة جمع الدَّوانِق مِن دم مُهْــراق[3]

وأديبِ قوم تستحق يمينـه قَطْع الأنامل أو لَظَى الإحراق

يلهو ويلعب بالعقول بيـانُه فكأنّه فى السـحر رُقْيـة راقى

فى كفه قـلم يَمُج لُعـابه سُمـا وينْفُثـه على الأوراق

يَرِد الحقائق وهى بيض نُصَّع قُدْسِــيّة عُلْـوِية الإشراق

فيرُدّها سُــودًا على جَنَبَاتهـا من ظُلْمَة التّمْويه ألف نطاق

عَـرِيت من الخُلُق المُطَهّر نفسه فيــاته ثِقْـل على الأعْناق

لو كان ذا خُلُق لأسعد قومه ببَيــانه ويَرَاعــه السّبّاق

---

(١) الاخفاق : الخيبة ، يقال أخفق الصياد أو التاجر أو الغازى أو الطالب اذا لم يدرك ما سعى اليه .

(٢) الخدن : الصاحب . (٣) الدوانق : جمع دانق وهو سدس الدرهم .

* * *

من لى بتربيـــة النساء فانها ... فى الشرق عِلّةُ ذلك الإخفاق
الأمّ مدرســـة اذا أعددتهـا ... أعددت شعبا طيب الأعراق
الأمّ روض إن تعهّـــده الحيا ... بالـــرى أورق أيّمـا إيراق
الأم أســـتاذ الأساتذة الأُلى ... شـغلت مآثرهم مدى الآفاق
أنالاأقول: دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجُلن فى الأسواق
فى دورهن شـــؤونهن كثيرة ... كشؤون رب السيف والمزراق[1]
كلّا ولا أدعوكم أن تُسرفوا ... فى الحجْب والتّضييق والارْهاق
ليست نساؤكم حِلًى وجواهرا ... خوف الضياع تصان فى الأحْقاق
تتشـكّل الأزمان فى أدوارها ... دُولا وهن على الجمـود بواقى
فتوسّطوا فى الحالتين وأنصفوا ... فالشّرّ فى التقييـد والإطلاق
ربّوا البناتِ على الفضيلة إنّها ... فى الموقفين لهن خير وِثاق
وعليـكم أن تستبين بنـاتكم ... نُورَ الهدى، وعلى الحياء الباقى

* * *

وقال سالم الأسَدى فى حسن الخلق :

أحب الفتى ينفى الفواحشَ سمعُه ... كأنّ به عن كل فاحشـــة وَقْرا
سليمَ دواعى الصدر لا باسطا أذًى ... ولا مانعا خيرا ولا قائلا هُجْـــرا
اذا شئت أن تدعى كريمـا مكرّما ... أديبـا ظريفا عاقـلا ماجدا حُرّا
اذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنتَ محتالا لزلته عذْرا
غنى النفس مايكفيك من سدّ خَلّة ... فان زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرا

(١) المزراق : رمح قصير.

*
* *

وقال محمود بن الحسين الورّاق فى كرم الصفح :

إنى وهَبْت لظـالمى ظلـــمى وشــكرت ذاك له على علمى
ورأيتــه أسْـــدَى الىَّ يـــدا لمـا أبَان بجهــله حلمى
رجعت إساءته عليـــه ولى فضـــل، فعاد مُضاعَف الجُرْم
فكأنمـا الاحسان كان له وأنا المُسِيءُ اليــه فى الزعــم
ما زال يَظْلمـــنى وأرْحَمــه حتى رَثَيْت له من الظــلم

*
* *

وقال بشّار بن برد فى استبقاء الصديق :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبـا صديقك لم تَلْق الذى لا تعاتبـهْ
فعش واحدا أوصـــل أخاك فانه مُقَارِف ذنب مرة ومُجانبـــهْ
اذا أنت لم تشرب مرارا على القَذَى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربهْ
ومن ذا الذى تُرْضَى سجاياه كلها كفى المرء نبـــلا أن تُعَدّ معايبُهْ

*
* *

وقال معن بن أوس المزنى فى استصلاح ذى القربى :

وذى رحم قلّمْت أظفار ضِـغْنه (١) بحلمى عنـــه وهو ليس له حلم
يحـاول رَغْمى لا يحـاول غيره وكالموت عندى أن يُحَلّ به الرَّغم (٢)
فان أعف عنه أغض عينا على قذى وليس له بالفصح عن ذنبــه علم
وان انتصر منه أكن مثل رائش سهـام عدو يستهاض بهـا العظم (٣)

(١) الضغن : الحقد . (٢) الرغم : الذل . (٣) راش السهـم : الزق عليه الريش وذلك أعون على تسديده وسرعته . واستهاض العظم وهاضه واهتاضه : كسره بعد الجبور .

صـبرت على ما كان بيني وبينـه ... وما تستوى حرب الأقارب والسلم
وبادرت منـه النأى والمرء قادر ... على سهمه مادام فى كفه السهـم
ويشتم عِرضى فى مغيـبِىَ جاهدا ... وليس له عنـدى هوان ولا شتم
اذا سُمتـه وصل القـرابة سامنى ... قطيعتهـا ، تلك السفاهة والإثم
فان أدعه للنَّصْف يأب ويعصنى ... ويدع لحكم جائر ، غيرُه الحكم
فلولا اتقـاء الله والرحم التى ... رعايتهـا حقّ وتعطيلها ظـلم
إذن لعـلاه بارقى وخطمته ... بوسم شنار لا يشا كهه وسم(١)
ويسعى اذا أبنى ليهـدم صالحى ... وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يودّ لوآنى مُعْـدِم ذو خَصاصة ... وأكره جهدى أن يخالطه العُدم(٢)
ويعتـد غُنْما فى الحـوادث نكبتى ... وما إن له فيهـا سناء ولا غنم(٣)
فما زِلْتُ فى ليـنى له وتَعَطُّفى ... عليـه كما تَحْنُو على الولد الأمّ
وخَفْض له منّى الجناح تألُّفا ... لتُدْنِيَـه منى القرابة والرُّحْـم
وقَوْلى اذا أخشى عليـه مُلِمّـة ... ألا اسْلَم فِداك الخال ذو العَقْد والعَمّ
وصـبرى على أشـياء منه تُرِيبنى ... وكَظْمِى على غيظى وقد ينفع الكظم
لأسْتَلّ منـه الضغن حتى استلاته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الجِرم(٤)
رأيت انثـلاما بيننـا فرقَعْتُـه ... برِفْقى واحيـائى وقد يُرقَع الثَّـلم
وأبرأتُ غِلّ الصدر منـه توسُّعا ... بحلمى كما يشـفى بالأدوية الكَلْم(٥)
فداويتـه حتى ارْفأنّ نِفاره ... فعدنا كأنَّا لم يكن بيننـا صَـرم(٦)
وأطفأت نار الحرب بينى وبينه ... فاصبح بعـد الحرب وهو لنا سِلْم

(١) البارق : السيف . وخطمه : ضرب أنفه أو جعل عليه الخطام أو قهره . الوسم : أثر الكى . وشاكهه : شابهه . (٢) الخصاصة : الفقر . (٣) السناء : الرفعة . (٤) الجرم : الحلق . (٥) الكلم : الجرح . (٦) ارفأن : سكن بعد نفار .

* * *

وقال أيضا يتمدح بالعفّة ومكارم الأخلاق :

لَعَمْرُكَ ما أهويتُ كَفِّى لرِيبة ... ولا حملتنى نحــو فاحشة رِجْــلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لهــا ... ولا دلّنى رأيى عليهــا ولا عقــلى
واعــلم أنى لم تُصِــبْنى مصيبة ... من الدهر الا قد أصابت فتى قبلى
ولست بمــاش ما حييتُ لِمُنْــكَر ... من الأمر ما يَمْشى الى مثــله مثلى
ولا مُؤْثِرا نفسى عــلى ذى قرابتى ... وأوثر ضــيفى ما أقام على أهــلى

* * *

وقال المُقَنَّع الكِندى يتمدح أيضا بكرم أخلاقه من السخاء والعفة والشجاعة والحلم والنَّجْدة وجميل الصفح والمواساة :

يُعَاتبنى فى الدَّيْن قومى وانمــا ... دُيونِيَ فى أشياء تَكْسِبهم حَمْــدا
ألم يَرَ قومى كيف أُوسِر مَرَّة ... وأُعسِر حتى تَبْلُغَ العُسْرة الجَهْــدا
فمــا زادنى الإقتار منهـــم تقرُّبا ... ولا زادنى فضل الغنى منهم بُعْدا
أَسُــدُّ به ما قد أخلّوا وضيّعوا : ... ثُغُور حقوق ما أطاقوا لهــا سَدّا
وفى جَفْنَةٍ ما يُغْلَق البــاب دونها ... مُكَلَّلَة لحــا مُدَفَّقَـــة ثُرْدا
وفى فَرَس نَهْــدٍ عَتِيق جعلتــه ... حجابا لبيــتى ثم أخدمته عبــدا
وان الذى بينى وبيــن بنى أبى ... وبيــن بنى عمى لمُخْتَلِف جِدّا
فان يأكُلُوا لحمى وَفَرت لحومهــم ... وأن يَهْدِموا مجدى بنيت لهم مجدا
وان ضيّعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وان هم هَوُوا غَيّى هوِيت لهم رُشدا
وان زجروا طَيْرًا بنحس تَمُرّ بى ... زَجَرْت لهم طَيْرًا تَمُرّ بهم سـعدا
أراهم الى نصرى بِطَاءً وإن هُمُ ... دَعَوْنِى الى نصر أتيتُهُمُ شَــدّا

ولا أحمِلُ الحِقْـد القـديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُلُّ مالى إنـ تتابع لى غِنًى وان قَـلَّ مالى لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْـدا
وإنى لعبـد الضيف ما دام نازلا وما شِيمَةٌ لى غَيْرُها تشـبه العبدا

* * *

وقال مسكين الدارمى فى حفظ الأسرار :

وفِتْيَانِ صِدْق لست مُطْلِع بعضهم على سِرّ بعض غـير أنى جِمَاعها
لكل امرئ شِعْب من القَلْب فارغ وموضـع نَجْوى لا يُرَام اطِّلاعها
يَظَلُّون شَتَّى فى البـلاد وسِرُّهم الى صَخْرَة أَعْيا الرجال انْصِـداعها

* * *

وقال بشار بن برد فى فضل الاستشارة :

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأيِ نَصـيح أو نصـيحة حازم
ولا تجعل الشُّورَى عليك غَضَاضة فانـ الخَوَافِى قُـوَّةٌ للقـوادم
وما خير كَفٍّ أمسك الغُلُّ أُخْتَها وما خَيْرُ سَـيْف لم يُؤَيَّد بقائم
وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيف ولا تكن نؤوما فانـ الحَـزْم ليس بنائم
وإنك لا تَسْـتَطْرِد الهَمَّ بالمنى ولا تَبْـلُغ العُلَيـا بغير المكارم

باب الأجوبة الحاضرة

قال أحمد بن عبد ربّه : هى أصعب الكلام كله مَرْكبًا وأعزّه مَطْلبًا وأغمضه مَذْهبا وأضيقه مَسْلَكا، لأن صاحب الجواب يُعْجل مُنَاجاة الفكرة واستعمال القريحة ويروم فى بديهته نقض ماأبرم القائل فى رَوِيّته؛ فهو كمن أُخذَت عليه الفِجاج وسُدّت عليه المخارج ، قد اعْتَرض الأسِـنّة واسْتَهْدَف للرامى لايدرى ما يُقْرع به فيتأهّب له ولا ما يَفْجَؤُه من خَصمه فيقْرَعه بمثله ولاسيما اذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه بعد أن رَوّى فيه واحتَفَل وجَمّع خواطره واجتهد وترك الرأى يُغِبّ حتى يختمر . فقد كرهوا الرأى الفَطير كما كرهوا الجواب الدَّبرى[1] . فلا يزال فى نَسْج الكلام واستئناسه حتى اذا اطمأنّ شارده وسكن نَافِره صَكّ به خصمه جملة واحدة ثم قال له : أجب ولا تُخْطئ، وأسرع ولا تُبْطئ . فتراه بجواب من غير أَنَاة ولا استعداد يُطَبّق المفاصل ويُنْفِذ المقاتل كما يُرْمَى الجندل بالجندل ويُقْرَع الحديد بالحديد فيَحُلّ به عراه ويَنْقُض به مرائره ويكون جوابه على أكثر كلام خصمه كسحابة لبّدت عَجَاجة . فلا شىء أعضل من الجواب الحاضر ولا أعزّ من الخصم الألدّ الذى يَقْرع صاحبه ويَصْرَع منازعه؛ يقول كمثل النار فى الحطب الجَزْل .

أجوبة إياس بن مُعاوية المتوفى سنة ١٢٢ هجرية

كان إياس بن معاوية المُزَنى لَسِنًا بليغا يضرب به المثل فى الزَّكَن والفطنة وصحة الفِراسة والأجوبة القاطعة . روى أنه دخل الشام وهو فتى فقدّم خصما له الى بعض القضاة وكان الخصم شيخا فصال عليه إياس بالكلام، فقال له القاضى : خَفِّض عليك فانه شيخ كبير . فقال إياس : الحق أكبر منه .

---

(١) الدبرى : الرأى يسنح أخيرا عند فوت الحاجة .

فقال له القاضى : اسكت . قال : فمن ينطق بحُجّتى ؟ ! قال القاضى : ماأراك تقول حقا . فقال إياس : لاإله إلا الله . فأفحم القاضى .

ويروى أن عَدِىّ بن أَرْطاة والى البصرة دخل على إياس وهو قاضيها وكان عدى أعرابى الطبع .

فقال لإياس : يا هَنَاة أين أنت ؟ قال : بينك وبين الحائط .

قال : فاسمع منى . قال : للاستماع جلست .

قال : إنى تزوّجت امرأة . قال : بالرِّفاء والبنين .

قال : وشرطت لأهلها أن لا أخرجها من بينهم . قال : أَوْفِ لهم بالشرط .

قال : فإنى أريد الخروج . قال : فى حفظ الله .

قال : فاقض بيننا . قال : قد فعلت .

قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أخى عمك .

قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك .

جواب أبى تمام الشاعر

كان أبو تمام ينشد قصيدته « ما فى وقوفك ساعة من باس » . للأمير أحمد ابن المعتصم وقد مدحه فيها فلما بلغ إلى قوله :

إقـدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال الفيلسوف الكندى وكان حاضرا : الأمير فوق من ذكرتَ . فأطرق قليلا ثم قال :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شَرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثـلا من المشكاة والنبراس

ومضى فى إنشادالقصيدة . ولما أخذت نسختها من يده ألفيتْ خالية من البيتين فعلموا أنه ارتجلهما ردّا على الكندى .

ثلاثة أفحموا المأمون

ويروى أن المأمون قال : ما أعيانى جواب أحد قط سوى ثلاثة :

أحدهم أم الفضـل بن سهل، فإنى عزّيتُها عنه وقلت : لا تجزعى ودعى البكاء فانا ابنك مكانه . فقالت : وكيف لا أجزع ولا أبكى على من جعل مثلك لى ولدا !

والثانى رجل جىء به إلىّ لادّعائه أنه نبىّ الله موسى فقلت له : إن الله تعالى أخبرنا عن موسى أنه يُدْخل يده فى جيبه ويخرجهـا بيضاء من غير سوء فقال لى : متى فعل ذلك ؟ أليس ذلك بعـد أن لقى فرعون ؟ فاعمل أنت كما عمل فرعون حتى أعمل كما عمل موسى !

والثالث رجل جاء فى جمـاعة من أهل الكوفة يَشْـكُون إلىّ عاملها واختاروه للكلام فطعن على العامل وأكثر، فقلت له : كذبت ومِنْتَ بل هو العفيف الوَرِع العدْل . فذهب أصحابه يتكلمون فسَكّتّهم . ثم قال : صدقت يا أمير المؤمنين هو كما ذكرت وليس من العدل أن تؤثرنا به وتحرم منه[1] سائر رعيتك .

أجوبة معن بن زائدة للمنصور

دخل معن بن زائدة على أبى جعفر المنصور فقال له :

كبِرت يا معن . قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين .

قال : وإنك لجَلْد . قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين .

(١) هذا التعبير خطأ لأن حرم يتعدى الى المفعولين بنفسه . والصواب : وتحرم سائر رعيتك إياه .

قال : وإن فيك لبقيّة . قال : هى لك يا أمير المؤمنين .

قال : أىّ الدولتين أحب اليك ، أهذه أم دولة بنى أُمَيّة ؟

قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنـــين ؛ إن زاد بِرُّك على برِّهم كانت دولتك أحب الىّ . فقال المنصور : صدقت .

أجوبة أبى العيناء المتوفى سنة ٢٨٣ هـ

كان أبو العينـاء من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا وأظرفهم نادرة وأسرعهم جوابا وله فى ذلك مواقف مشهورة وقصص مذكورة .

قال له المتوكل يوما : قد والله ٱشْتَقْتُكَ :

فقال : إنمـا يَشْتَاق العبد لأنه يتعـذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد فمتى أراد عبده دعاه .

وقال له الوزير عبيد الله بن سليمان يوما : ٱعْذِرنى فإنى مشغول .

فقال : اذا فرغت من شُغْلك لم نحتج إليك .

فلا تعتـــذر بالشـــغل عنّا فإنمـا تناط بك الآمال ما اتّصل الشغل

وشكا الى عبيد الله مرة ســوء حاله فقال له : ألم نكتب لك الى ابراهيم بن المدَبِّر؟ فقال كتبتَ الى رجل قَصّر من همته طول الفقر وذُلّ الأسْر ومعاناة محن الدهر فأخفَق سعيى وخابت طلِبتى . فقال له عبيد الله : أنت قد ٱخترته .

قال : وما علىّ أعز الله الوزير فى ذلك ؟ قد اختار موسى قَوْمَه ســبعين رجلا فما كان منهم رجل رشيد . واختار النبى صلى الله عليهم وسلم ابن أبى سرح كاتبا فرجع الى المشركين مُرْتَدًّا . واختار على بن أبى طالب أبا موسى حاكما له فحكم عليه .

وقيل له : إن فلانا يَضْحَك منك : فقال : إنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون .

وقيل له : ما أحسنُ الجواب؟ قال : ما أسكت المُبطل وحيّر المُحِق .

أجوبة القاضى أحمد بن أبى دُواد المتوفى سنة ٢٢٤ ه

قال أبو العيناء : قلت لابن أبى دواد إن قوما من أهل البصرة قدموا سُرَّمَنْ رَأى يدًا علىّ .

فقال : يد الله فوق أيديهم .

قلت : إن لهم لمكرا .

فقال : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

قلت : إنهم كثير .

فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

فقلت : لله درّ القاضى !

باب الحكم والأمثال

الفصـــل الأوّل ــ فى الحـــكم المنشـــورة

مختار من حكم سيدنا ومولانا رسول الله

(١) المؤمن للمؤمن كالبُنْيان يشُدّ بعضه بعضا . (٢) يد الله مع الجماعة . (٣) الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . (٤) كفى بالسلامة داءً . (٥) دَعْ ما يُريبك الى ما لا يريبك . (٦) احترسوا من الناس بسوء الظن . (٧) المرء كثير بأخيه . (٨) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوى . (٩) لا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرّتين . (١٠) إن المُنْبَتّ[١] لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . (١١) الدال على الخير كفاعله . (١٢) جُبِلت القلوب على حب من أحسن إليها وبُغْض من أساء إليها . (١٣) ان ذا الوجهين لا يكون وجيها عند الله . (١٤) زُرْ غِبًّا[٢] تزدد حُبًّا . (١٥) ما عال من اقتصد . (١٦) الحياء شُعْبَة من الإيمان . (١٧) خير الأمور أوسطها . (١٨) إياك وما يُعْتَذر منه . (١٩) الوَحْدة خير من جليس السوء . (٢٠) البركة فى البُكور . (٢١) المرء على دين خليله . (٢٢) كاد الفقر أن يكون كفرا . (٢٣) خير المال عين ساهرة[٣] لعين نائمة . (٢٤) اليد العُلْيا خير من اليد السُّفْلى . (٢٥) من أصبح مُعافًى فى بدنه آمنا فى سِرْبه عنده قوت يومه فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها .

---

(١) انبت : انقطع فهو منبت ، والمراد بالمنبت : المسافر الذى يجهد دابتــه حتى تهلك فى أثناء الطريق فينقطع فلا هو حفظ دابته ولا بلغ غايته ، وهذا مثل لكل من جاوز الحدّ فى العمل . (٢) الغب فى الزيارة أن تكون غير متتابعة ، وحده فى القاموس بأسبوع وليس بلازم . (٣) العين الساهرة : هى عين الماء يكون صاحبها نائما وهى تسق زرعه وتروى أرضه .

(٢٦) رحم الله عبــدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم . (٢٧) التمسو الرزق فى خبايا[1] الأرض . (٢٨) ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصــدقت فأبقيت . (٢٩) الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله . (٣٠) جمال الرجل فصاحة لسانه . (٣١) التاجر الجبان محروم . (٣٢) العالم والمتعلم شريكان فى الخير .

من حكم سيدنا أبي بكر الصديق

(١) صنائع المعروف تقى مصارع السّوء . (٢) ليست مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة . (٣) ثلاث من كنّ فيه كنّ عليــه : البغى والنكث والمكر . (٤) كثير القول يُنسِى بَعْضُه بعضا وانما لك ماوُعِى عنك . (٥) أصلح نفسك يصلح لك الناس .

من حكم سيدنا عمر بن الخطاب

(١) من كتم سره كان الخيار فى يده . (٢) أشقى الولاة من شَقِيت به رعيته . (٣) لايكن حبك كَلَفًا[2] ولا بُغْضك تَلَفا . (٤) من لا يعرف الشَّر كان أجدر أن يقع فيــه . (٥) أعقل الناس أعذرهم للناس . (٦) لا تُؤَخِّر عمــل يومك الى غدك . (٧) أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . (٨) من يئس من شىء استغنى عنه .

من حكم سيدنا عثمان

(١) ما يَزَع الله بالسلطان أكْثَرُ[3] مما يزع بالقرآن . (٢) أنتم الى إمام فعّال أحوج منكم الى إمام قوّال . (٣) يكفيك من الحاسد أنه يغتمّ وقت سرورك .

---

(١) وذلك انما يكون بحرثها وتقليبها للزراعة . (٢) الكلف : الإغرام وفرط المحبة .

(٣) يقول : ان الذين يردعون عن الشرور بواسطة القهر والحكم أكثر من يردعون بواســطة الدين لأنه الناس كما قيل : عبيد العصا ، وإن الذين يؤثر فيهم الوازع الدينى قليل جدا .

من حكم سـيدنا على

(١) رأى الشيخ خير من مَشْهَد الغلام . (٢) الناس أعداء ماجهلوا . (٣) الناس من خوف الذلّ فى الذلّ . (٤) الصَّبْر مَطِيّة لا تَكْبُو وسيف لاينبو . (٥) اذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه . (٦) قيمة كل امرئ ما يُحْسن . (٧) المرء مخبوء تحت لسانه . (٨) استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره . (٩) خير أموالك ما كفاك وخير اخوانك من واساك . (١٠) الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . (١١) ما هَلَكَ آمرؤ عرف قدره . (١٢) من عَذُب لسانه كَثُر اخوانه . (١٣) بَشِّر مال البخيل بحادث أو وارث . (١٤) بالبرّ يستعبد الحرّ . (١٥) اعادة الاعتذار تَذْكير الذنب . (١٦) اذا تمّ العقل نقص الكلام . (١٧) كثرة الوِفاق نِفاق ، وكثرة الخِلاف شـقاق . (١٨) من أكثر فكره فى العواقب لم يَشْـجُع . (١٩) الشرف بالعقل والأدب ، لا بالأصل والنسب . (٢٠) أكثر مصارع العُقول تحت بروق الأطماع . (٢١) قلب الأحمق وراء لسانه ولسان العـاقل وراء قلبه . (٢٢) يعيش البخيل فى الدنيـا عيش الفقراء ويُحَاسَب فى الآخرة حساب الأغنياء . (٢٣) الولايات مضامير[1] الرجال . (٢٤) الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه . (٢٥) من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . (٢٦) الحرمان خير من الامتنان .

من حكم سـيدنا معاوية

(١) المروءة احتمال الجريرة واصلاح أمر العشـيرة ، والنُّبْل الحلم عند الغضب والعفو عند المقدرة . (٢) مارأيت تبذيرا قط إلا والى جنبه حق مُضَيَّع . (٣) أنقص

---

(١) المضامير : جمع مضمار وهو الوقت أو الموضع الذى تضمر فيه الخيل لأجل السباق .

الناس عقلا من ظلم من هو دونه . (٤) أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.
(٥) إصلاح ما فى يدك أسلم من طلب ما فى أيدى الناس .

من حكم بُزُرْجَمِهْر حكيم الفرس

قال بزرجمهر :

نصحنى النُّصَحاء ووعظنى الوعّاظ شَفَقة ونصيحة وتأديبا، فلم يعظنى أحد مثل شيبى ولا نصحنى مثل فكرى . ولقد استضأت بنور الشمس وضوء القمر، فلم أستضئ بضياء أضوأ من نور قلبى . وملكت الأحرار والعبيد فلم يملكنى أحد ولا قهرنى غيرُ هواى . وعادانى الأعداء، فلم أر أعدى الىّ من نفسى اذا جَهِلتْ . واحترزت لنفسى بنفسى من الخلق كلهم حَذَرا عليها وشفقة، فوجدتها شر الأنفس لنفسها ورأيت أنه لا يأتيها الفساد إلا من قِبَلها . وزاحمتنى المضايق فلم يَزْحمنى مثل الخلق السوء . ووقعت من أبعد البُعْد وأطول الطول، فلم أقع فى شىء أضرَّ علىّ من لسانى . ومَشَيْت على الجَمْر ووطِئت على الرَّمْضَاء، فلم أرَ نارا أحَرّ علىّ من غضبى، اذا تمكن منى . وطالبتنى الطُّلَّاب ، فلم يُدْرِكْنِى مُدْرِك مِثْل إساءتى . ونظرت ما الداءُ القاتل ومن أين يأتينى، فوجدته من معصية ربى سبحانه وتعالى. والتَمَسْتُ الرَّاحة لنفسى، فلم أجد شيئا أرْوَح لها من تركها ما لا يَعْنِيها . وركبت البِحار ورأيت الأهوال ، فلم أر هولا مِثْل الوقوف على باب سُلطان جائر . وتَوَحَّشْتُ فى البَرِّيَّة والجبال، فلم أرَ أوْحش من قَرين السّوء . وعالجت السباع والضباعَ والذئاب وعاشرتها وعاشرتنى وغلبتها، فغلبنى صاحب الخلق السوء . وأكلت الطَّيِّب وشَرِبت الهَنِيء، فلم أجد شيئا ألَذّ من العافية والأَمْن . وتوسطت الشياطين والجبّال، فلم أجْزَع إلا من الانْسَان السُّوء . وأكلت الصَّبِر وشَرِبْت المُرّ، فلم أرَ شيئا أمرّ من الفقر . وشَهِدْت الحُروب ولَقِيت الجيوش وباشرت السيوف وصارعت الأقْران ، فلم أر قِرْنا أغْلَبَ من المرأة السوء . وعالجت الحَديد ونقلت الصخر فلم أرَ حِملا

أثقل من الدّين . ونَظَرت فيما يُذِلّ العزيز ويَكْسِر القوى ويضع الشريف ، فلم أر أذلّ من ذى فاقة وحاجة . ورُشقت بالنُّشاب ورُجمت بالحجارة ، فلم أرَ أنفـذ من الكلام السوء يخـرج من فم مطالب بحق . وعَمَرْت السِّجْن وشُـدِدْت فى الوَثاق وضُرِبت بعَمَد الحديد ، فلم يَهْدِمنى شىء مِثْـلَ ما هدمنى الغَمّ والهَمّ . وطَلَبْتُ الغِنَى من وجوهه ، فلم أرَ أغنى من القَنُوع . وتصدّقت بالذخائر ، فلم أرَ صدقة أنفع من ردّ ذى ضَلالة الى هُدى . ورأيت الوَحْدة والغُربة والمَذلّة ، فلم أرَ أذلّ من مقاساة الجار السوء . وشَيَّدْتُ البُنْيان لأعِزّ به وأُذْكر ، فلم أر شرفا أرْفع من اصطناع المعروف . ولبست الكُسَا الفاخرة ، فلم ألْبَس شيئا مِثْلَ الصلاح . وطلبْت أحسن الأشياء عند الناس ، فلم أرَ شيئا أحسن من حسن الخلق .

ومن مأثور حكمه : ان كان شىء فوق الحيـاة فالصحة . وان كان شىء فوق الموت فالمرض . وان كان شىء مثل الحيـاة فالغِنى . وان كان شىء مثـل الموت فالفقر . وسئل : أى الاكتساب أفضل ؟

فقال : العلم والأدب كنزان لا يَنْفَدان ، وسراجان لا يطفَآان وحُلّتَان لا تبليان ، من نالهما أصاب الرشاد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيعا بين العباد .

وسئل : ما المروءة ؟ فقـال : ترك ما لا يَعْنى . قيل : فمـا الحزم ؟ قال : انتهاز الفرصة . قيـل : فما الحلم ؟ قال : العفو عند القدرة . قيل : فمـا الشدّة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الخُرْق ؟ قال : حُبّ مُفْرِط وبُغْض مفرط .

من حكم اكثَمَ بن صَيْفِيّ

(١) من سلك الجَدَد[(١)] أمِن العِثـار . (٢) كَلْم اللسان أنْكَى من كلم السنان . (٣) رب عجـلة تَهَبُ رَيْثا . (٤) رضا جميع الناس غاية لا تدرك . (٥) أقبح

---

(١) الجدد : الأرض الغليظة المستوية .

أعمال المقتدرين الانتقام . (٦) آفة الرأى الهوى . (٧) قبل الرِّماء تملأ الكنائن . (٨) من يزر غبا يزدد حبا . (٩) من سأل فوق قدره استحق الحرمان . (١٠) فضل القول على الفعل لؤم وفضل الفعل على القول مكرمة . (١١) الانقباض من الناس مكْسَبة للعداوة والتقرب من الناس مَجْلَبة لجليس السوء ، فكن من الناس بين المنقبض والمسترسل . (١٢) من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من علمه زاجر . (١٣) فُسُولة[1] الوزراء أضر من بعض الأعداء . (١٤) مقتل الرجل بين فكيه . (١٥) إن قول الحق لم يَدَعْ لى صديقا . (١٦) لم يذهب من مالك ما وعظك . (١٧) وَيْلٌ لعالم أمر من جاهله . (١٨) ويل للشَّجىّ من الخلىّ . (١٩) يتشابه الأمر اذا أقبل فاذا أدبر عرفه الكيِّس والأحمق . (٢٠) لا تَمْنعنكم مساوى رجل من ذكر محاسنه .

من حكم الأحنف بن قيس

قال رجل من بنى تميم : حضرت مجلس الأحنف بن قيس وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الكَرَم منع الحُرَم . ما أقرب النِّقمة من أهل البغى . لا خير فى لذة تعقب ندما . لن يَهْلِك من قَصَد ، ولن يفتقر من زهد . رب هزل قد عاد جِدًّا . من أمِن الزمان خانه ، ومن تعظَّم عليه أهانه . دَعُوا المُزاح فانه يورث الضَّغائن . وخير القول ما صَدَّقه الفعل . احتملوا لمن أدَلّ[2] عليكم واقبلوا عذر من اعتذر اليكم . أطع أخاك وان عصاك ، وصله وان جفاك . أنصف من نفسك قبل أن يُنْتَصَف منك . واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شُؤم . ومن الكرم الوفاء بالذمم .

---

(١) الفسولة : قلة المروءة مع الحمق . (٢) أدل عليه : وثق من محبته فأفرط عليه فى المعاملة .

ما أقبح القطيعة بعد الصلة والجفاء بعد اللَّطَف[1] والعداوة بعد الوُد . لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الإحسان، ولا الى البخل أسرع منك الى البَذْل . واعلم أن لك من دنيـاك ما أصلحت به مَثْواك فأنفق فى حق ولا تكونن خازنا لغيرك . وان كان الغدر فى الناس موجودا فالثقة بكل أحد عجز . اعرِف الحق لمن عرفه لك واعلم أن قطيعة الجاهل تَعْدِل صلة العاقل .

الفصل الثانى — فى الحكم المنظومة

قال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوما : ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب فى الجاهلية؟ فأنشده :

منع البقاء تَقَلُّب الشَّـــمْس ... وطلوعها من حيث لا تُمْسى
وطلوعهـا بيضاءَ صـافيـــة ... وغروبهـا صَـفْرَاء كالوَرْس[2]
تجـــرى عـلى كَبِد السماء كما ... يجرى حِمـام الموت فى النفس
اليـــوم أعـــلم ما يجىء به ... ومضى بفصـــل قضائه أمس

فقال له عبد الملك أحسنت .

* * *

وقال الصَّلَتَان[3] العبدى :

أشاب الصـــغير وأفنى الكبيـ ... ـر كَرُّ الغَـــداة ومَرّ العَشِى
اذا لَيْــلَة هَرَّمت يــومهـا ... أتى بعـــد ذلك يـــوم فَتِى
نروح ونَغْـــدو لحاجاتنـا ... وحاجـة من عاش لا تنقضى

---

(١) اللطف بجبل : البر والتكرمة . (٢) الورس نبات أصفر اللون يكون باليمن .
(٣) الصلتان : شاعر من فحول شعراء الدولة الأموية .

تمـــوت مع المـــرء حاجاتُه وتَبْـــقَ له حاجـــة ما بَقِى

اذا قلت يوما لمن قد تَرَى أرُونى السرِىّ أروْكَ الغَـنِى

* * *

وقال العباس بن مرداس السُّلَمى[1] :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثـــوابه أســـد مرير[2]

ويُعْجِبـــك الطَّرير فتبتليـــه فيخلف ظنك الرجل الطرير[3]

فمـا عظم الرجال لهم بفخـــر ولكن فخرهم كرم وخـــير

بُغاث الطير أكثرها فراخا وأُمّ الصـــقر مِقْلات نَزُور[4]

ضعاف الطير أطولها جسوما ولم تطل البُزاة ولا الصُّـقُور

لقـــد عَظُم البَعِير بغـير لُبّ فـلم يستغن بالعظم البعـــير

يُصَرّفه الصـــبى بكل وجـــه ويَحْبِســـه على الخَسْف الجرير[5]

وتضربه الوَلِيـــدة بالهَراوَى[6] فلا غِـــيَرٌ لديه ولا نَكِير

فان أَكُ فى شـــراركم قليـــلا فانى فى خيـــاركم كثير

* * *

وقال محمد بن بشير[7] :

إن الأمور اذا انسدّت مسالكها فالصـبر يفتُق منها كل ارْتُتِجا[8]

لاتيأسن وان طالت مطالبة اذا اسـتعنت بصبر أن ترى فرَجا

(١) العباس بن مرداس : شاعر من المخضرمين وهو من المؤلفة قلوبهـم فى الاسلام وكان فارسا مقداما . (٢) المرير : القوى الشديد من المرة وهى القوة . (٣) الطرير : الحسن المنظر . (٤) بغاث الطير : ضعافها وما لا يصيد منها . والمقلات : التى تلد واحدا ثم لا تلد بعده أو التى لا يعيش لها ولد والفعل من ذلك أقلت . والنزور : القليلة الأولاد . (٥) الجرير : الحبـل يجر به البعير . (٦) الهراوى : جمع هراوة وهى العصا الغليظة . (٧) محمد بن بشير : من عدوان شاعر فصيح حجازى من شعراء الدولة الأموية . (٨) ارتتج : أغلق والرتاج : الباب الكبير يغلق وفيه باب صغير مفتوح .

أخْلِق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومُـدْمِن القرع للأبواب أن يَلِجا

قدّر لرجلك قبـل الخطو موضعها فمن علا زَلَقًا عن غِرّةٍ زَلَجا (١)

ولا يَغُرّنّك صـفو أنت شاربه فرُبّمـا كـان بالتّكدير مُمْـتَزِجا

* * *

وقال الأضْبط بن قُريع (٢) :

لكل ضِيقٍ من الأمر سَعَه والصُّبْحُ والمُسْىُ لافلاح معـه (٣)

قـد يجمع المـال غير آكله ويأكل المـال غير من جمعـه

ويقطع الثوب غـير لابسـه ويلبس الثوب غير من قطعـه

فاقبل من الدهر ما أتاك به من قر عيناً بعَيْشـه نفعـه

وصِل حبال البعيد إن وصل الْـ ـحبْل وأقص القريب ان قطعه

ولا تعاد الفقير علّك أن تَرْكَع يوما والدهر قـد رفعـه (٤)

* * *

وقال عَبِيد بن الأبرص (٥) :

صـبّر النفس عنـد كل مُلِم إنـ فى الصبر حيلَةَ المحتال

لا تَضيقن بالأمور فقد تُكْـ ـشَف غَمّاؤها بغـير احتيـال

ربمـا تَجْزع النُّفوس من الأمْـ ـر له فُرْجـة كَحَـلِّ العِقَال

---

(١) زلج كضرب : زلق . (٢) الأضبط : شاعر تميمى قديم العهد جدا وهو فيما يذكر أقدم من مهلهل وغيره من الشعراء المشهورين . (٣) المسى من المساء كالصبح من الصباح . يقول إن حركة الفلك تلحقنا بمن هلك . (٤) ويروى : لا تهين الفقير الخ بفتح النون على أن نون التوكيد محذوفة . (٥) عبيد كلبيد شاعر جاهلى من أشهر الشعراء وهو من بنى أسد .

وقال عبيد أيضا :

لعمرك ما يَخْشَى الجليس تَفَحُّشِي عليـــه ولا أنأى على المُتَوَدِّد

ولا أبتغى وُدّ امرئٍ قـلّ خيره وما أنا عن وصل الصديق بأحيد

اذا أنت حمّلت الخئُونـــ أمانة فإنك قــد أسْندتها شرّ مُسْـــنَد

ولا تظهرن ود آمرئٍ قبل خُبْره وبعــد بلاء المرء فاذمُم أو احمد

ولا تَتْبَعَنـــّ الرأى منه تَقَصُّـــه ولكن برأى المرء ذى اللب فاقتد

وقال عدىّ بن زيد[1] :

أعاذل ماأدْنَى الرَّشَاد مِنـــ الفتى وأبْعَـــده منـــه اذا لم يُسَـــدّد

كفى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتـــدى

فنفسك فاحفظها عن الغىّ والرّدَى متى تُغْوِها يَغْوَ الذى بك يهتـــدى

اذا أنت طالبت الرّجال نوالهـــم فعِفّ ولا تطلب بجَهْـــد فَتَنْكَد[2]

عسى سائل ذو حاجة ان منحته من اليوم سؤلا أن يسرك فى غد

اذا ما رأيت الشر يبعث أهـــله وقام جُنَاة الشر بالشــــر فاقعد

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فـكل قريـــن بالمقارن يقتـــدى

وقال ابن الرومى :

عَدُوّك من صديقك مســـتفاد فلا تَسْتَكْثِرن مِـــن الصحاب

فانـــ الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

(١) عدى بن زيد : شاعر من شعراء الجاهلية وكان ذا بصر بالكتابة ودراية باللغة الفارسية ولذلك كان سفير المناذرة ملوك الحيرة عند الأكاسرة ملوك الفرس . وبعض الناس يخلط بين أبيات عدى وأبيات عبيد السابقة لأن البحر واحد والقافية واحدة .

(٢) نكده : منعه سؤله أو لم يعطه إلا أقله .

فدع عنك الكثير فكم كثير ... يُعافُ وكم قليـل مسـتطاب
وما اللُّجَجُ المِلَاح بمـرْويات ... ويُلْقى الرِّىُّ فى النُّطَف العذاب (١)

* * *

وقال أيضا :

لمـا تُؤْذِن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعةَ يولَدَ
والا فمـا يبكيه منها وإنّها ... لأفسح ممـا كان فيـه وأرغد
اذا أبصر الدنيـا استَهَلَّ كأنه ... بمـا سوف يلقى من أذاها يهدّد (٢)

* * *

وقال الطُّغرائى :

أصـالة الرأى صانتـنى عن الخَطَـل ... وحِلْيَة الفضـل زانتنى لدى العَطَـل
مجـدى أخـيرا ومجـدى أوّلًا شَرَع ... والشمس رادالضُّحا كالشمس فى الطَّفَل (٣)
حبّ السـلامة يَثْـنى همّ صاحبـه ... عن المعـانى ويُغْرِى المرء بالكسل
فان جَنَحْتَ اليـه فاتخذ نَفَقًـا ... فى الأرض أو سُلَّما فى الجوّ فاعتزل
ودع غِمَـار العـلا للمقدمين على ... ركـوبهـا واقتنـع منهن بالبَلَل (٤)
يرضى الذليـل بخَفْض العيش مسكنه ... والعزّ عنـد رسـيم الأينُق الذُّلُل (٥)
إن العـلا حدّثتنى وهى صادقـة ... فيا تحـدّث أن العِزّ فى النّقـل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشـمس يوما دَارَة الحَمَـل (٦)
أُعَلِّـل النـفس بالآمال أَرْقُبهـا ... ما أضـيق العيش لولا فسحة الأمـل!

---

(١) النطف : جمع نطفة وهى الماء القليل . (٢) استهل : رفع صوته بالبكاء . (٣) الطفل : وقت الأصيل . (٤) الغمار : المياه الكثيرة . (٥) خفض العيش : سهله ولينه . والرسيم : ضرب من سير الابل . (٦) دارة الحمل : برج فى السماء تحله الشمس فى فصل الربيع .

أعدى عدوك أدنى من وثقت به ... فحاذر الناس واصحبهم على دَخَل [(١)]
فانما رجال الدنيا وواحدها ... من لا يعوّل فى الدنيا على رَجُل
وحسن ظنك بالأيام معجزة ... فظنّ شرًّا وكن منها على وَجَل

***

وقال المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
والهم يخترم الجسيم نحافة ... ويشيب ناصية الصبى ويهرم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ... ينسى الذى يولى وعاف يندم [(٢)]
لا يخدعنك من عدوّ دمعه ... وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه ... من لا يقل كما يقل ويلؤم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى ... عن جهله وخطاب من لا يفهم
والذل يظهر فى الذليل مودة ... وأودّ منه لمن يودّ الأرقم [(٣)]
ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

***

وقال زهير بن أبى سُلمى المُزَنى :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة ... يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم [(٤)]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

---

(١) الدخل : المكر والخديعة . (٢) الحفاظ : المحافظة على العهد . والعافى : ذو العفو يقول إن الناس اطرحوا الوفاء فلا المحسن اليه يشكر الصنيعة ولا المحسن يبتهج بالاحسان . (٣) الأرقم : أخبث الحيات وأطلبها للناس . (٤) المنسم : طرف الخف من الامام كالسنبك من الحافر يقول : من لم يدار الناس فى كثير من الأمور يناله أذى كثير .

ومن هاب أسـباب المنايا ينلنـه … وإن يَرْقَ أسـباب السماء بسـلم
ومن يجعـل المعروف فى غير أهـله … يكن حمـده ذما عليه ويَنْـدَم
ومن يعص أطـراف الزّجاج فانّه … يطيـع العوالى رُكِّبَتْ كل لَهْـذَم (*)
ومن لا يذُدْ عن حوضه بِسِـلاحه … يهـدَّم ومن لا يظلم النـاس يُظْـلَم
ومهما تكن عنـد امرئٍ من خليقة … وان خالهـا تخفى على النّـاس تُعْلَم

الفصل الثالث — فى أمثـال مختـارة

(١) إن من البيان لسحرا. (٢) إن البلاء مُوَكَّل بالمنطق. (٣) أن المُوصَّيْن بنو سَهْوان . (٤) إن الشَّـقِيّ وَافِد البَرَاجِم . (٥) إن البُغاث بأرضنا يستَنْسر . (٦) إن الجبان حتفه من فوقه . (٧) إن المُعَافَى غير مخدوع . (٨) إن فى الشر خِيَارا . (٩) إن الحديد بالحديد يُفْلح . (١٠) إن الشَّفِيق بسـوء ظن مُولَع . (١١) إن وراء الأكَمَة ما وراءها . (١٢) إن العَصَا من العُصَـيَّة . (١٣) إن العَوَان لا تُعَلَّم الخِمْـرة . (١٤) إن الغَنِيَّ طويل الذّيل مَيَّـاس . (١٥) إن الليل طويل وأنت مقمر . (١٦) إن العَصَا قُرِعت لذى الحـلم . (١٧) إن الحبيب

(*) الزجاج : جمع زج وهو حديدة تكون فى أسفل الرمح لوقايته . واللهذم : سنان الرمح القاطع ؛ وكان من عادتهم أنهم اذا هاج الشر بينهـم توافق الصفان ووجه كل زج رمحه الى مقابله وسعى الساعون فى دفع الشر فان لم يفلحوا قلبوا الرماح وطعنوا باللهاذم ؛ يقول : من لم يخضع للين خضع للشدّة .

(١) يضرب فى استحسان المنطق . (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شىء أمر به . (٤) البراجم : بطن من تميم . يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة طمعا . (٥) يضرب للضعيف يصير قويا . (٦) يضرب فى أن الحذر لا ينجى من القدر . (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع . (١١) يضرب لمن يفشى على نفسه أمرا مستورا . (١٢) يضرب فى مشاكلة الفرع للأصل . (١٣) العوان : المرأة النصف ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب فى استغناء المجرّب عن الارشاد . (١٤) أى لا يستطيع ذو الغنى أن يكتمه . (١٥) يضرب للأمر بالتصبر فى طلب الحاجة . (١٦) يضرب لمن اذا نبه انتبه .

الى الإخوان ذو المـال . (١٨) إن الهـزيل اذا شَبِـع مات . (١٩) إن غدا لناظره قريب . (٢٠) إن أخاك من آساك . (٢١) إنك لا تجنى من الشوك العنب . (٢٢) أتتك بحائن رجلاه . (٢٣) إنما أُكِلْت يوم أُكِل الثور الأبيض . (٢٤) إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر . (٢٥) إن كنتَ ريحا فقد لاقيت إعْصارا . (٢٦) أن ترد المـاء بماء أكيس . (٢٧) إحدى حُظَيَّات لُقْمانـ . (٢٨) أكل عليـه الدّهر وشرب . (٢٩) إنّه لَيَعْـلم من أيْن تُؤْكل الكَتِف . (٣٠) آكل لحمى ولا أدعه لآكل . (٣١) إياك وما يُعْتَذر منه . (٣٢) اذا زَلّ العالم زَلّ بزلتـه عَالَم . (٣٣) أنت تَئِق وأنا مَئِق فمتى نتَّفِق . (٣٤) إيّاكِ أعنى واسمعى ياجارة . (٣٥) اذا حان القضاء ضاق الفضاء . (٣٦) أمُّ الجبان لا تفْرَح ولا تحْزَن . (٣٧) اذا جاءت السَّنَة جاء معها أعوانها . (٣٨) إن حالت القَوْسُ فَسَهْمِى صائب . (٣٩) ألَا مَنْ يشترى سهرا بنوم . (٤٠) اذا ما القارظُ العَنَزِى آبا . (٤١) إن كنت كَذُوبا فكن ذَكورا . (٤٢) إنما يُحْمل الكَلّ على أهل الفَضْل . (٤٣) اذا تخاصم اللصان ظهر المسروق . (٤٤) اذا تَفَرَّقت الغنم قادتْها العنز الجرباء .

(١٨) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (٢٠) يضرب فى الحث على مراعاة الاخوان . (٢٢) يضرب فى المرء يسعى لحتفه بظالفه . (٢٣) يضرب به المرء يزرأ بأخيه . (٢٤) يضرب للأمر المشهور . (٢٥) يضرب للداهى الشديد يبلى بمن هو أدهى منه وأشدّ . (٢٦) يضرب للأخذ فى الأمور بالاحتياط . (٢٧) يضرب فى الشر يصدر عمن عرف به ، وحظيات لقمان : سهامه (وفى القاموس خطأ) . (٢٨) يضرب لمن طال عمره . (٢٩) يضرب فى المجرب المحنك . (٣٠) يضرب فى الرجل ينصر قريبه وإن كان عدوّه . (٣٣) التئق : السريع الى الشر . والمئق : السريع الى البكاء . يضرب للمختلفين اخلاقا . (٣٤) يضرب لمن يخاطب شخصا وهو يريد غيره تعريضا . (٣٧) السنة : القحط وأعوانها الجراد والأمراض ، يضرب فى تجمع الشدائد . (٣٨) حالت القوس : زالت عن استقامتها . يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته . (٣٩) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية . (٤٠) يضرب فى امتداد الغيبة . (٤١) يضرب الرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه . (٤٢) الكل : الثقل . (٤٤) يضرب فى القوم يختلفون فيسود فيهم الأشرار .

(٤٥) اذا عاب البَزَّاز ثوبا فاعلم أنه من حاجته . (٤٦) اذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع . (٤٧) إن يكن الشغل مجهدة فان الفراغ مفسدة . (٤٨) اذا قَدُم الإخاء سَمُج الثناء . (٤٩) بَلَغَ السيل الزُّبى . (٥٠) بعض الشر أهون من بعض . (٥١) بلغ السكين العظم . (٥٢) باقعة من البواقع . (٥٣) ابدأهم بالصُّراخ يَفِرُّوا . (٥٤) أبْدى الصَّريحُ عن الرِّغْوة . (٥٥) بعض الجدب أمرأ للهزيل . (٥٦) بنان كفّ ليس فيها ساعد . (٥٧) بعد البَلاء يكون الثناء . (٥٨) أبلغ من قُسّ . (٥٩) أبْخَل من مَادِر . (٦٠) أبصر من زَرْقاء اليمامة . (٦١) أبصر من غُراب . (٦٢) أبقى من الدّهر . (٦٣) أبقى من وَحْيٍ فى حَجَر . (٦٤) أبين من فلق الصبح (٦٥) أبْكَر من غُرَاب . (٦٦) تَرْكُ الذنب أيْسَر من طلَب التّوبة . (٦٧) تجُوع الحُرَّة ولا تأكل بثَـدْيَيْها . (٦٨) تَسْأَلنى برامتين سَلجَما . (٦٩) تجشَّأ لُقْمانُ من غير شِـبع . (٧٠) تَضْرِب فى حديد بارد . (٧١) تَلْدَغ العَـقْرب وتَصِئُ . (٧٢) تَرَكْتُهم فى حَيْصَ بَيْصَ . (٧٣) تَطْلُب أثَرًا بعـد عَيْن . (٧٤) تسـمع بالمُعَيْدى خَيْر من أن تراه . (٧٥) اتَّخذ الليل جملا . (٧٦) ترى الفتيان كالنخل وما يُدْريك ما الدَّخْل . (٧٧) التَّثبُّت نصف العفو . (٧٨) تُقَطع أعناق الرجال

(٤٥) البزاز : بائع الثياب . (٤٩) الزبى : جمع زبية وهى أعلى الجبل . يضرب لمن جاوز الحدّ . (٥٠) يضرب فى الشرين يختار أهونهما . (٥١) يضرب لما جاوز الحدّ . (٥٢) الباقعة : الداهية يقال فى الرجل يكون داهيا منكرا . (٥٣) يضرب فى الظالم يتظلم ليسكت عنه . (٥٤) يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره . (٥٥) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه . (٥٦) يضرب فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغ ما فى نفسه . (٦٣) الوحى : الكتابة . (٦٧) أى لا تكون مرضعا . يضرب فى صيانة الرجل نفســه عن خسيس المكاسب . (٦٨) السلجم : اللفت . يضرب لمن يطلب شيئا فى غير موضعه . (٦٩) يضرب لمن يدّعى ما ليس يملك . (٧١) يضرب لمن يظلم ويتظلم . وصاءت العقرب : صوتت . (٧٢) يضرب فيمن وقع فيما لا مخلص له منه . (٧٣) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه . (٧٤) يضرب فيمن منظره دون مخبره . (٧٥) أى أدّى واجبه من العمل ليلا . (٧٦) يضرب لذى المنظر لا خير فيه .

المطامع . (٧٩) اتبع السيئة الحسنة تَمْحُها . (٨٠) اتّق شرّ من أحسنت اليه . (٨١) تَضَرَّع الى الطبيب قبل أن تَمْرَض . (٨٢) تجرى الرياح بما لا تشتهى السُّفن . (٨٣) التّقدير أحد الكاسبين . (٨٤) التدبير نصف المعيشة . (٨٥) جزاء سِنِمَّار . (٨٦) جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنا . (٨٧) جَوِّع كلبك يَتْبَعك . (٨٨) جاوز الحزام الطِّبيين . (٨٩) جَانِيك من يَجْنِي عليك . (٩٠) جليس السوء كالقَيْن ان لم يُحْرِق ثوبك دَخَّنه . (٩١) جاءوا على بَكْرة أبيهم . (٩٢) أجود من حاتم، ومن كعب ابن مَامَة . (٩٣) أجبن من صافر، ومن نعامة . (٩٤) أجهل من فراشة . (٩٥) أجمع من نملة . (٩٦) حال الجَرِيض دون القَـرِيض . (٩٧) حَنّ قِدْح ليس منها . (٩٨) حَسْبُك من شر سماعه . (٩٩) حَسْبك من القِلادة ما أحاط بالعُنُق . (١٠٠) حُبُّـك الشيء يُعْمِى ويُصِمّ . (١٠١) الحـــديث ذو شُجُون . (١٠٢) حافظ على الصديق ولو فى الحـــريق . (١٠٣) أَحَشَفًا وسُـوءَ كِيلَة . (١٠٤) الحكمة ضالَّة المُؤمن . (١٠٥) الحُبَارى خالة الكَرَوان . (١٠٦) الحاجة تَفْتُق الحيلة . (١٠٧) أَحْمق من هَبَنَّقة ومن جُحَا . (١٠٨) أحلم من الأحنف . (١٠٩) أحكم من لُقمان . (١١٠) أحْذَر من غراب، ومن ذئب، ومن ظَلِيم .

---

(٨٥) يضرب فى مقابلة الاحسان بالاساءة . (٨٦) يضرب فيمن يعد ولا يفى . (٨٧) يضرب فيما ينبغى أن يعامل به اللئيم . (٨٨) يضرب فى تفاقم الأمر . (٨٩) أى لا تزر وازرة وزر أخرى . (٩٠) القين: الحداد . (٩١) أى جاءوا جميعا . (٩٣) الصافر من الطيور بناتها وضعافها . (٩٦) الجريض : الغصة . والقريض : الشعر . يضرب فى الأمر يتيسر حين لا ينفع . (٩٧) يضرب فى الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه . (٩٨) يضرب فى المقالة السيئة وما يخشى منها . (١٠١) الشجون : الفنون . يضرب فى الحديث يتذكر به غيره . (١٠٣) يضرب فى الجمع بين خصلتين مكروهتين . (١٠٥) يضرب فى مناسبة أحد الشيئين للآخر . (١١٠) الظليم : ذكر النعام .

(١١١) أحْفَظُ من الشّعْبي . (١١٢) خُذْ من جِذْع ما أعطاك . (١١٣) خالفْ تُذْكر . (١١٤) خَرْقَاء وجدت صوفا . (١١٥) خير المـال عين خَرّارَة فى أرض خَوّارة . (١١٦) أخطب من سَحْبَـان، ومن قُس . (١١٧) أخْوَن من ذِئب . (١١٨) دون ذا ويَنْفُق الحمَـار . (١١٩) أدْهَى من قيس بن زُهـير، ومن عمرو ابن العاص . (١٢٠) ذهبوا أيدى سَبَا . (١٢١) الذئب خَالِيًا أَسَد . (١٢٢) ذَكّرْتَنِي الطّعْن وكُنْتُ ناسيا . (١٢٣) رَمَتْنِي بدائها وانْسَلّت . (١٢٤) رَمَاه الله بثَالِثـة الأثَافِىّ . (١٢٥) رب قول أشدُّ من صَوْل . (١٢٦) رب أخٍ لك لم تلده أُمُّك . (١٢٧) رجع بخُفّىْ حُنَين . (١٢٨) رب رَمْيـة من غير رام . (١٢٩) الراوية أحد الشاتمين . (١٣٠) ربَّ كلمة سلبت نعمة . (١٣١) ربّ مَلُوم لا ذنب له . (١٣٢) رب زارع لنفسه حاصدٌ سواه . (١٣٣) أرْوَى من ضَبّ . (١٣٤) أرق من النسيم، ومن رَقْراق السَّراب، ومن غِرْقِئ البيض . (١٣٥) الزّيْتُ فى العجين لا يَضِيع . (١٣٦) زكاة النِّعم المعروف . (١٣٧) أزْكَن من إياس . (١٣٨) أزْهَى من طاوُس . (١٣٩) سبق السيف العَذَل . (١٤٠) أساء سمعا فأساء إجَابة .

---

(١١٢) جذع : اسم رجل . يضرب فى اغتنام ما يجود به البخيل . (١١٤) الخرقاء : التى لا تحسن العمل . يضرب لمن يفسد ماله بسوء تصرفه . (١١٥) الخوارة : الأرض التى فيها لين وسهولة . (١١٨) يضرب فى المبالغة فى المدح بغـير احتياج اليها . (١٢٠) أى تفرّقوا تفرّقا لا اجتماع معه كما تفرقت سـبأ . (١٢٢) يضرب فى تذكر الشىء بغيره . (١٢٣) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه . (١٢٤) الأثافى : جمع أثفية وهى الحجر توضع عليه القدر وهما أثنتان وثالثهما الجبل والمراد بها الداهية العظيمة . (١٢٥) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به . (١٢٧) يضرب فى الخيبة . (١٢٩) هذا كقولنا شتمك من بلغك . (١٣٣) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج الى شرب المـاء بل يفتح فاه للهواء فيكون فى ذلك ريه . (١٣٤) الغرقئ : القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيضـة . (١٣٥) يضرب فى الاحسان الى الأقارب . (١٣٨) الزهو : العجب . (١٣٩) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه .

(١٤١) سَكَت أَلْفا ونطق خَلْفا . (١٤٢) سُرق السارق فانتحر . (١٤٣) السَّليم لا ينـام ولا يُنيم . (١٤٤) سحابة صيف عن قليـل تَقَشَّع . (١٤٥) شَرّ الرأى الدَّبَرِىّ . (١٤٦) شُخْب فى الأناء وشُخْب فى الأرض . (١٤٧) شِنْشِنة أعرِفها من أَخْزَم . (١٤٨) شرّ من الموت مايُتَمَنَّى معه الموت . (١٤٩) أشأم من البَسُوس ، ومن أحمر عاد ، ومن غراب البَيْن . (١٥٠) أشكَر من كَلْب . (١٥١) صَدَقَنى سِنّ بَكْره . (١٥٢) صادف دَرْء السَّـيل درءا يصدعه . (١٥٣) صدرك أوسع لسرك . (١٥٤) أصدق من قطاة . (١٥٥) أصعب من رد الشُّخب فى الضَّرع . (١٥٦) ضَرَب أخمـاسا لأسـداس . (١٥٧) أضيق من ظِـلّ الرُّمْح . (١٥٨) أضعف من بعوضة . (١٥٩) أضبط من نملة . (١٦٠) أَطْرِق كَرَا ، إن النعامة فى القُـرَى . (١٦١) أطول صُحْبـة من الفَرْقَدين . (١٦٢) أطمع من أشعب . (١٦٣) طبيب يداوى الناس وهو مريض . (١٦٤) طُفَيلِىّ ومُقْتَرِح . (١٦٥) ظِئْر رؤوم خير من أمّ سَؤُوم . (١٦٦) عند الصباح يَحْمَد القوم السُّرَى .

---

(١٤١) الخلف : الردىء من القول . (١٤٢) يضرب لمن ينتزع من يده ماليس له فيجزع عليه . (١٤٣) السليم : المـلدوغ . يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره . (١٤٥) الدبرى : الذى يسنح بعد فوات الفرصة . (١٤٦) الشخب : ما خرج من الضرع ممتدا من اللبن . يضرب فيمن يصيب مرة و يخطئ أخرى . (١٤٧) الشنشنة : الطبيعة والعادة يضرب فى مشابهة الفرع لأصـله فى الشر . (١٤٩) البسوس : هى المرأة التى هاجت بسببها حرب بكر وتغلب . وأحمـر عاد هو أحمر ثمود وهو الذى عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جراء عمله . (١٥١) يضرب فى الانسان يقرّ بالحقيقة على غير قصد منه . (١٥٢) هـذا كقولهم لا يفل الحديد إلا الحـديد . (١٥٤) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير . (١٥٦) يضرب فيمن يريد الشيء و يظهر غيره . (١٦٠) الكرا : الكروان . يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه . (١٦٥) الظئر : الحاضنة . والرؤوم : العطوف . (١٦٦) يضرب فى تحمل المشقة رجاء الراحة .

(١٦٧) عند جُهَيْنَةَ الخبر اليقين . (١٦٨) عَرَض عليه خَصْلتى الضَّبُع . (١٦٩) عِشْ رَجَبا تَرَ عَجَبا . (١٧٠) أَعْطِ القوس بَارِيها . (١٧١) أَعْرَض ثَوْبَ المَلْبَس . (١٧٢) العود أحمد . (١٧٣) عند الامتحان يُكْرَم المرء أو يُهان . (١٧٤) أعز من كليب وائل . (١٧٥) أعيا من باقل . (١٧٦) أعدى من الظَّلِيم ، ومن الشَّنْفَرَى ، ومن السُّلَيك . (١٧٧) أَعَقُّ من ذئبة . (١٧٨) أعقد من ذَنَب الضَّبّ . (١٧٩) أعْجز ممَّن قتل الدُّخَان . (١٨٠) غُدَّة كغدة البعير وموت فى بيت سلُولِيّة . (١٨١) غَثّك خير من سمين غيرك . (١٨٢) فى الصيف ضيعتِ اللبن . (١٨٣) فى بيته يؤتَى الحَكَمُ . (١٨٤) فى كل شَجَر نار واَسْتَمْجد المَرْخُ والعَفَار . (١٨٥) أفرس من بِسْطام . (١٨٦) أَفْتَك من عمرو بن كلثوم . (١٨٧) قطعت جَهِيزة قول كل خطيب . (١٨٨) قد أنصف القَارَةَ من رَاماها . (١٨٩) قبل الرِّماء تملأ الكنائن . (١٩٠) اقتلونى ومالكا . (١٩١) القَوْلُ ما قالت حَذَامِ . (١٩٢) كان كُرَاعا فصار ذِراعا . (١٩٣) كلام كالعسل، وفعل كالأسل. (١٩٤) كل فَتَاةٍ بأبيها مُعْجَبَة. (١٩٥) كطالب القَرْن جُدِعت أُذُنه.

---

(١٦٧) يضرب فى الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : (على الخبير سقطت) .
(١٦٨) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلبا وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه . يضرب فيمن يسوم غيره مالا خيار فيه من البلاء . (١٧١) يضرب فيمن اذا سألته عن أمر أبهم الجواب . (١٨٠) سلول قبيلة ذليلة . يضرب فى اجتماع خصلتين من الشر . (١٨٢) يضرب لمن يطلب شيئا قد فوته على نفسه .
(١٨٤) المرخ والعفار: شجران قويا النار. يضرب فى تفضيل بعض الشيء على بعض. (١٨٧) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتى بها . (١٨٨) القارة : قبيلة من أبرع الناس فى المراماة .
(١٨٩) يضرب فى الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه . (١٩٠) يضرب فيمن يريد بصاحبه المكروه وإن ناله هو منه ضرر . (١٩٢) يضرب فى الذليل يصبح عزيزا . (١٩٣) الأسل : الرماح .
(١٩٤) يضرب فى عجب الرجل برهطه وعشيرته . (١٩٥) أصل المثل فى النعام . ويضرب فى طلبه الأمر يفضى بصاحبه الى التلف .

(١٩٦) كمجير أم عامر . (١٩٧) كيف أعاودك وهذا أثر فأسك . (١٩٨) كأنّ على رءوسهم الطير . (١٩٩) كالمُستَجير من الرَّمْضاء بالنّار . (٢٠٠) لو ذاتُ سِوار لَطَمَتْنى . (٢٠١) لو خُيِّرتُ لاخـترت . (٢٠٢) لو تُرِكَ القَطا ليلا لنام . (٢٠٣) لعلّ له عُذْرا وأنت تلوم . (٢٠٤) لأَمْرٍ ما جُدِعَ قَصِيرٌ أنْفُه . (٢٠٥) لكل مقام مقال . (٢٠٦) لا مَخْبأ لعِطْر بعد عَرُوس . (٢٠٧) لا تَعْدَم الحسناء ذَاما . (٢٠٨) لا تَهْرِفْ بما لا تَعرِفُ . (٢٠٩) لا ناقتى فيها ولا جَمَلى . (٢١٠) لا فى العِير ولا فى النفــير . (٢١١) لا يَفُلّ الحديد إلا الحـديد . (٢١٢) لا تأمَن الأحمق وبيده سِكّين . (٢١٣) لا تَجْزَعَنْ من سُـنَّة أنتَ سِرتَها . (٢١٤) ما وراءك ياعِصَام . (٢١٥) ما يوم حليمة بسر . (٢١٦) ما أشبه اللَّيْلَةَ بالبارحة . (٢١٧) مَرْعًى ولا كالسَّعْدان . (٢١٨) ما كل بيضاء شَحْـمة . (٢١٩) منك أنْفُك وإن كان أجْدع . (٢٢٠) من اسـترعى الذئب ظلم . (٢٢١) من مأمَنِه يُؤْتَى الحَـذِر . (٢٢٢) مواعيد عُرْقُوب . (٢٢٣) مُكْرَه أخـوك لا بَطَل . (٢٢٤) أمنع من عقـاب الجَـو . (٢٢٥) نَفْسُ عِصام سَـوّدَتْ عِصَاما .

---

(١٩٦) أم عامر : الضبع وقد أكلت من أجارها . يضرب فى الذى يجزى على إحسانه بالسوء .

(١٩٧) يضرب فيمن لا يفى بالعهد . (٢٠٠) يضرب فى الوضيع يقع منه العدوان .

(٢٠٢) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير إرادته . (٢٠٦) يضرب فيمن لايدخر عنه نفيس .

(٢٠٧) يضرب فى الشىء الحسن لا يخلو من عيب . (٢٠٨) يضرب لمن يتعجل فى مدح الشىء قبل تمام معرفته . (٢١٠) يضرب فى الوضيع ليس فيه شىء من خلال الشرف . (٢١٢) يضرب فى عسف الجاهل اذا قدر . (٢١٥) حليمة بنت ملك غسان . يضرب للأمر المشهور الذى لا يكاد يجهل .

(٢١٧) السـعدان : نبت من أنفع الاعشاب للابل . يضرب فى الشىء يفضـل على أشكاله وأقرانه .

(٢١٩) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره . (٢٢٣) يضرب فيمن يحمـل على ما ليس من شأنه .

(٢٢٥) يضرب فى سودد الرجل بنفسه .

(٢٢٦) نعيم كلب فى بؤس أهله . (٢٢٧) أندم من الكُسَعِىّ . (٢٢٨) وافق شَنٌّ طَبَقَة . (٢٢٩) أوردها سعد وسعد مُشْتَمِل . (٢٣٠) أوْفى من السموءل، ومن الحارث بن عُباد . (٢٣١) هما كَفَرَسَىْ رِهان . (٢٣٢) يَدَاكَ أوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ . (٢٣٣) اليوم خَمْر وغدا أمْر .

الفصل الرابع — فى أبيات يتمثل بها

اذا آعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمرّ به الوحول.

* * *

اذا آمتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدوّ فى ثياب صديق.

* * *

اذا القلب لم ينصفلك فى كل موطن فما السيف إلا آلةٌ حملها إدٌّ.

* * *

اذا ما الجرح رُمّ على فساد تبيّن فيه تفريط الطبيب.

* * *

اذا أنت لم تُعلِم طبيبك كلّ ما يسوءك أبعدت الدواء عن السقم.

* * *

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم.

* * *

اذا ما الدهر جرّ على أناس حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

---

(٢٢٦) يضرب فى التابع كالخادم يشغل سادته بمصيبة فيغتنم ما قدر عليه من أموالهم .
(٢٢٨) يضرب فى تمام المشاكلة والاتفاق . (٢٢٩) يضرب للقصر فى الأمر . (٢٣٢) يضرب لمن يجنى على نفسه . (٢٣٣) يضرب فى تقلب الأيام .

* * *

اذا كان غـــير الله للمـــرء عُـــدّة أتته الرزايا من وجوه المكاسب

كما جرت الحنفاء حتف حذيفـــة وكان يراها عـــدة للنـــوائب

* * *

اذا الله لم يحرســـك مما تخافـــه فلا السيف قطّاع ولا الدرع مانع

* * *

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البـــذر

* * *

اذا المـــرءَ أعيته المـــروءة ناشـئا فمطلبها كهلا عليـــه شـــديد

* * *

اذا لم يكن مر السنين مترجما عن الفضل فى الإنسان سميتَه طفلا

* * *

اذا رأيت نيـــوب الليـــث بارزة فـــلا تظنّنّ ان الليث يبتسـم

* * *

اذا محاسِـــنِيَ اللاتى عرفتُ بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

* * *

أرى ماء وبى ظـــمأ شـــديد ولكن لا ســـبيل الى الورود

* * *

أتمـــنّى عـــلى الزمان محالا أن ترى مقـلتاى طلعـــة حرّ

* * *

ألم تر أنّ المـــرء تَدْوَى يمينـــه فيقطعها عمـــدا ليســـلم سائره

* * *

ألم تَرَ أن الســـيف يُزْرَى بقـــدره اذا قيل هذا السيف خير من العصا

* * *

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغـــير ســـلاح

* * *

ألَا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعـــيم لا محالة زائل

* * *

إنْ كنت تطلب عزا فادّرع تعبـا أو فارض بالذل وٱختر راحة البدن

* * *

إن كان منزلتى فى الحب عنـــدكم ما قـد رأيت فقد ضيّعت أيامى

* * *

إن الكرام اذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهـم فى المنزل الخشن

* * *

إن السماء اذا لم تبـــك مقلتهـا لم تضحك الأرض عن شيء من الزهَر

* * *

إن الســلاح جميع النـاس تحمـــله وليس كلّ ذوات المخلب الســـبع

* * *

بقـدر الكد تكتسب المعـالى ومن طلب العلا سهر الليـالى

* * *

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشـــهد من إبر النحل

* * *

جمـال الوجه مع قبـح النفـوس كقنديل على قـــبر المجـــوسى

* * *

حسنٌ قولُ نعم مِن بعـد لا وقبيـح قـــول لا بعـــد نعـــم

* * *

الخـــير لا يأتيـــك متصـــلا والشر يســـبق ســـيْلَه المطـــر

* * *

ذكر الفتى عمـــرُه الثـانى وحاجته ما قاته وفضـــول العيش أشـغال

* * *

ذو الفضـل لا يسْلَم من قَـدْح وإن غدا أقوم من قِـدْح

* * *

رب يوم بكيت منـــه فلمـا صرت فى غـــيره بكيت عليـــه

* * *

الرأى يصـــدأ كالحُسام لعارض يطرا عليـــه وصـــقله التذكير

* * *

ســـبكناه ونحســـبه لُجـــينا فابدى الكِير عن خَبَث الحديد

* * *

ستبدى لك الأيام ما كانت جاهلا ويأتيـــك بالأخبار من لم تزود

* * *

صـــديق عدوى داخل فى عدواتى وإنى لمن وَدَّ الصـــديق ودود

* * *

عفافك عَجْـــزٌ انمـا عفـــة الفـــتى اذا عفّ عن لَذّاته وهو قادر

* * *

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فمـا كل مصـــقول الحديد يمـانى

* * *

فالدر وهو أجـــل شىء يقتـــنى ما حط قيمتـــه هوان الغـــائص

* * *

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتـــلى الله بعضَ القوم بالنعـــم

* * *

قـــد يدرك المتأنّى بعض حاجتـــه وقـــد يكون مع المســـتعجل الزلل

* * *

قـــد يدرك الشرفَ الفـــتى ورداؤه خَلَق وجيب قميصـــه مرقـــوع

* * *

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويجحد الفم طعم المـاء من ســـقم

* * *

كل عيش وان تطاول دهرا منـــتهى أمره الى أن يزولا

* * *

كل حـلم أتى بغـير اقتـدار حجّـة لا جئ اليهـا اللئـام.

* * *

كل المصـائب قـد تمرّ على الفتى وتهون غـيرَ شمـاتة الحسّاد.

* * *

كنت فى كربتى أفِـر اليهـم فهـم كربتى فأين الفـرار.

* * *

كريشـة فى مهب الريح ساقطـة لا تسـتقر على حال من القلق.

* * *

لا أذود الطـير عن شـجر قـد بلوت المـرّ من ثمـره.

* * *

لا تحسب المجـد تمـرا أنت آكله لن تبلغ المجـد حتى تلعق الصـبرا.

* * *

لا تسأل المـرء عن خلائقـه فى وجهـه شاهـد من الخـبر.

* * *

لا يسـلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق عـلى جوانبـه الدم.

* * *

لعـل عتبـك محـود عواقبـه وربمـا صحت الأجسـاد بالعـلل.

* * *

لولا عجـائب صـنع الله ما نبتت تلك الفضـائل فى لحم ولا عصب.

* * *

ليس من مات فاسـتراح بميْت انمـا المـيْت ميّـت الأحيـاء.

* * *

ليس الغبيّ بسـيّد فى قومـه لكن سـيّد قومـه المتغابى.

* * *

له خـلائق بيض لا يغـيّرها صَرف الزمان كما لا يصدأ الذهب.

* * *

ما انت أوّل سـار غـرّه قمـر ورائدٍ أعجبتـه خضرة الدِّمَن

* * *

ما أن يضرّ العَضْبَ كون قرابه خَلَقا ولا البـازى حقارة عشـه

* * *

ما عاش من عاش مذموما خصائله ولم يمت من يكن بالخـير مذكورا

* * *

ما كلف الله نفسـا فوق طاقتهـا ولا تجـود يد إلا بمـا تجـد

* * *

ما بالثراء يسـود كل مسـوَّد مثر ولكن بالفـعال يسـود

* * *

ما كان أحـوج ذا الكمال الى عيب يوقّيـه من العين

* * *

من يفعل الخـير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

* * *

من يزرع الخـير يحصد ما يسر به وزارع الشر منكوس على الراس

* * *

من لم يـؤدبْه والداه أدّبـه الليـل والنهـار

* * *

من يزرع الشر يحصـد فى عواقبـه ندامة ولحصـد الزرع إبّان

* * *

وما الحسن فى وجه الفـتى شرفا له اذا لم يكن فى فعـله والخـلائق

* * *

وما الحداثة عن حلم بمـانعة قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

* * *

وما المـرء إلا كالهلال وضـوئه يوافى تمـام الشـهر ثم يغيب

* * *

وما للمـــرء خـــير فى حيـاة   اذا ما عُدّ من سَقَط المتـاع

* * *

وما انتفـاع أخى الدنيـا بناظره   اذا استوت عنـده الأنوار والظـلم

* * *

وكل آمرئ يولى الجمــل محبّب   وكل مكان ينبت العز طيب

* * *

وفى تعب من يجحد الشمس ضوءَها   ويجهد أن يأتى لهـا بضريب

* * *

ومن يأمن الدنيـا يكن مثل قابض   على المـاء خانتـه فروج الأصـابع

* * *

ومن يجـــد الطريق الى المعـالى   فـــلا يذر المطى بلا سَـــنام

* * *

ومن يـك ذا فـــم مرّ مريض   يجـــد مرا به المـاء الزُّلالا

* * *

ومن نكد الدنيـا على الحر أن يرى   عدوّا له ما من صداقتـــه بدّ

* * *

ومن البليّـــة عذل من لا يرعوى   عن غيّه وخطاب من لا يفهم

* * *

ومن العـــداوة ما ينـالك نفعــه   ومن الصـــداقة ما يضر ويــؤلم

* * *

والمـرء يفـــرح بالأيام يقطعها   وكل يوم مضى يُدْنِى من الأجل

* * *

وأول ما يكـون الليث شـــبلا   ومبـــدأ طلعة القمر الهـــلال

* * *

والنجم تستصغر الأبصار رؤيتــه   والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

